السلطان

عبد الحميد الثاني

و فلسطين

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:

بيروت، ساقية الجنزير، بناية
برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هـ ٨٠٧٩٠٨/
تلكس، LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

التوزيع في الأردن:

دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان
ص.ب: ٩١٥٧، هاتف: ٦٠٥٤٣٢، فاكس
٦٨٥٥٠١ - تلكس ٢١٤٩٧

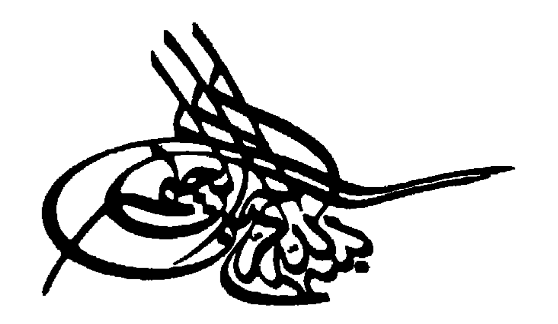
الطبعة الثالثة ١٩٩١

رفيق شاكر النتشة

السلطان عبد الحميد الثاني و فلسطين

السلطان الذي خسر عرشه من أجل فلسطين

المؤسسة العربية للدراسات والنشر



« لا أقـدر أن أبيع ولو قدماً واحداً من البلاد ، لأنها ليست لي بل لأمتـي ، لقد حصلـت أمتي على هذه الامبراطوريـة بإراقـة دمائهـا وسوف تحميها بدمائها قبل أن تسمـح لأحد باغتصابها منـا ، ليحتفظ اليهود بملايينهم ، فإذا قسمـت الامبراطوريـة فقد يحصـل اليهـود على فلسطيـن دون مقابـل ، انما لـن تقسـم إلا على جثثنا »

السلطـان عبـد الحميـد الثانـي

الفصل الأول

اليهود في ظل الحكم الإسلامي

١ – الإسلام واليهود .
٢ – اليهود والنصارى في القرآن والسنة .
٣ – اليهود في العالم الإسلامي .
٤ – اليهود في الدولة العثمانية .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــدمة

من الحقائق المسلم بها ان القضية الفلسطينية هي القضية المحورية والأساسية للعالمين العربي والإسلامي . ومنذ وقوع البلاد العربية تحت الحكم العثماني ، ظلت أربعمائة سنة بعيدة عن السيطرة الاستعمارية الاوروبية ، ولم يستطع الاستعمار الغربي الوصول إلى فلسطين إلا بعد سقوط الدولة العثمانية ، وعند ذلك فقط أمكن وضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ .

ونحن لا ننكر ان البلاد العربية قد وصلت في اخر عهد الدولة العثمانية إلى درجة كبيرة من الانحطاط والتخلف الاجتماعي ، والثقافي ، والحضاري . وهذا الانحطاط كان ينطبق على جميع أقاليم الدولة العثمانية ، بما فيها تركيا ذاتها .

وكان لمجيء السلطان عبد الحميد الثاني أثر واضح في المحاولات الكثيرة والجهود الكبيرة التي بذلها لرفع شأن الدولة العثمانية وإجراء الإصلاح في كل ركن من أركانها ولكن يبدو انه جاء متأخراً ، إذ كان الفساد قد استشرى في كل مكان من الدولة ، وأصبح الإصلاح مستعصياً ، خاصة وان الدول الاستعمارية كانت قد قطعت شوطاً كبيراً من التقدم والرقي ، وأخذت بكل أسباب القوة .

لقد كانت الدول الاستعمارية جميعها تتطلع إلى الدولة العثمانية المحتضرة (الرجل المريض) للانقضاض عليها وتفتيتها واقتسام ممتلكاتها فيما بينها . مستعملة في ذلك

كل الوسائل المتاحة لها لتحطيم الدولة العثمانية والسيطرة على البلاد العربية ولوضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ في فلسطين ، الأرض المستهدفة من قبل جميع الدول الاستعمارية .

ونحن في هذا الكتاب أردنا ان نبين مواقف السلطان عبد الحميد الثاني من القضية الفلسطينية والتي كانت في زمنه تتركز على قضية الهجرة اليهودية إلى فلسطين وشراء الأراضي) ومشاركة كل الدول الاستعمارية في العمل على تشجيعها مستخدمة في ذلك الاغراء المادي تارة ، والضغط على السلطان تارة أخرى أو استخدام ذوي النفوس الوضيعة بالرشوة من أجل تشجيع الهجرة وشراء الأراضي .

ولكن تصدى السلطان عبد الحميد الثاني للدول الاستعمارية وللصهيونية في منعها من تهجير اليهود إلى فلسطين ، ومنعها من شراء الأراضي فيها ، قد وضعه في مصاف ألد اعدائها ، وأصبح حجر عثرة في سبيل تحقيق المشروع الصهيوني .

وقد تجلت مقاومة السلطان عبد الحميد لمشاريع الاستعمار والصهيونية في الرد على المحاولات المتعددة والمجهودات الكبيرة التي قام بها عميل الاستعمار الغربي هرتزل .

فقد سافر هرتزل إلى الاستانة في ١٨ حزيران (يونيه) ١٨٩٦م لاقناع السلطان بالهجرة اليهودية وشراء الأراضي مقابل المساعدات ، والهبات المالية للدولة العثمانية ، ولكن السلطان بلّغ وسطاء هرتزل رفضه لهذه المحاولات بقوله وكما أورده هرتزل في مذكراته :

« لا أقدر ان أبيع ولو قدماً واحداً من البلاد ، لانها ليست لي ، بل لأمتي ، لقد حصلت أمتي على هذه الامبراطورية بإراقة دمائها ، وسوف تحميها بدمائها ، قبل أن تسمح لأحد باغتصابها منا . ليحتفظ اليهود بملايينهم ، فإذا قسمت الأمبراطورية ، فقد يحصل اليهود على فلسطين دون مقابل ، إنما لن تقسم إلا على جثثنا ، ولن أقبل بتشريحنا لأي غرض كان » .

وقد حاول هرتزل بعد شهرين معاودة الاتصال بالسلطان وعرض عليه عروضاً مالية مضاعفة ولكن السلطان واجهها بالرفض .

بعد انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧م وفي ٤ شباط (فبراير) عام ١٨٩٨م حاول هرتزل عن طريق وسطاء ، الحصول على ما يريد ، ولكن جواب السلطان هذه المرة كان في حزيران (يونيه) من العام نفسه ان أصدر قوانين جديدة ضد الهجرة ، وبلغ من تشدد السلطات العثمانية في تنفيذ هذه القوانين انها منعت نائب القنصل البريطاني في انطاكية من الدخول إلى فلسطين ما لم يقدم التعهد المطلوب لكونه يهودياً . (ذلك التعهد الذي يقضي بخروجه من البلاد) .

وفي ١٣ آب (اغسطس) ١٨٩٩م أرسل هرتزل إلى السلطان عبد الحميد بمناسبة انعقاد المؤتمر الصهيوني رسالة يطلب فيها السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين ، ولكن السلطان رفض الرد على الرسالة .

وفي ١٣ آيار (مايو) ١٩٠٠ توجه إلى استانبول في زيارة ثالثة للاجتماع بالسلطان العثماني بصفته صحافي صهيوني ، وقد تم له ذلك عن طريق جاسوس عثماني مستشرق هنعاري اسمه فامبري الذي حذر هرتزل قبل الاجتماع بالسلطان من الانجراف في آراء مضادة لما يفكر فيه السلطان ، وقال له « اياك ان تحدثه عن الصهيونية ، القدس مقدسة لهؤلاء الناس مثل مكة » .

وفي ١٨ آيار (مايو) ١٩٠١م قال هرتزل للسلطان وكان قد اصطحب معه حاخام تركي (موسى ليفي) وعرض على السلطان تصفية الديون العثمانية ، وإصلاح الاقتصاد المتدهور ، ووقف حملات صحف (تركيا الفتاة) في أوروبا ، وذلك مقابل (إيجاد ملجأ) لليهود في الأراضي المقدسة « فلسطيـــن » .

فغضب السلطان لما سمع وتوجه بالكلام إلى الحاخام ليفي قائلاً : (اننا نظن بأن قومكم يعيشون بعدالة ورفاه وأمن ، وأنكم تعاملون نفس المعاملة الحسنة التي يعامل بها كافة تبعتنا ، دون تفريق أو تمييز ، فهل لكم شكاية ؟ أو هنالك معاملة غير عادلة ولا نعرفها نحن ؟) فأجاب الحاخام موسى ليفي : (استغفر الله سيدي بفضل ظل شاهانتكم ، نعيش بكمال ورفاه ، حاشا لا توجد لنا شكاية ما) .

فأجاب السلطان : « **انكم تستفيدون من خيرات بلادنا كمواطنينا الآخرين ، بل أنتم تنعمون أكثر من سواكم ، أفأظنكم نسيتم الاضطرابات والعذاب الذي كنتم**

ترونه في انحاء الدنيا وأنتم في أحضان أمتي » . ثم وقف السلطان وأدار نظره إلى هرتزل وقال : « **إننا لن نفرط بشبر من بلادنا دون أن نبذل أكثر مما بذلناه من دماء في سبيلها** » وأضاف السلطان :

« **اني أحب تطبيق العدالة والمساواة على جميع المواطنين ، ولكن اقامة دولة يهودية في فلسطين التي فتحناها بدماء اجدادنا « المسلمين » العظام فلا** »

وفي ١٢ شباط (فبراير) ١٩٠٢م سافر هرتزل مرة أخرى إلى استانبول في زيارة رابعة ، ولكن لم يستطع مقابلة السلطان .

ونتيجة للفشل الذريع لمهمة نبي الصهيونية ورسول الاستعمار الغربي مع السلطان عبد الحميد الثاني قررت القوى الاستعمارية والصهيونية التخلص من شخص السلطان وذلك بترتيب اغتياله .

وتذكر المصادر الصهيونية انه بسبب موقف السلطان المتصلب من المشروع الصهيوني عرض هرتزل على القوى الاستعمارية في ٢٤ شباط (فبراير) ١٩٠٤م اقتراحاً يقضي بأن يبحر هرتزل إلى البوسفور في سفينتين وينسف قصر يلدز ، ولكن اقتراحه فشل ، لما سيترتب على هذه العملية من نتائج وخيمة على اليهود .

وهكذا أصبح السلطان عبد الحميد هدفاً للمؤامرات الاستعمارية والصهيونية بسبب موقفه من القضية الفلسطينية من بدايتها . وظلت تلك القوى تتآمر عليه وعلى الدولة العثمانية حتى تم لها ما أرادت ، وسقط السلطان وخسر عرشه وخلف من بعده خَلْفٌ اضاعوا البلاد ، وفرطوا في فلسطين ، وبدأت القوى الاستعمارية والصهيوبية تعمل بحرية لإقامة المشروع الصهيوني بعد أن أصبحت فلسطين في ظل الاحتلال البريطاني .

لقد حرصت في هذا الكتاب ان انصف هذا الرجل الذي شوهته الأقلام التي وضعت نفسها في خدمة الصهيونية والاستعمار سواء كان ذلك عن عمد أو عن جهـــل .

وما يهمني في هذا الموضوع ليس تقييم موقف السلطان من الاصلاحات الداخلية في الدولة العثمانية ، فهذا متروك لأصحاب الاختصاص ، والمهتمين بذلك ، ولكن الذي أود توضيحه هو هذا الجانب المضيء للسلطان عبد الحميد في موقفه من الاستعمار والصهيونية ومحاولاته الصادقة في الحفاظ على فلسطين .

كما وان موقف السلطان هذا قد جعله من الأبطال الذين لن ينساهم شعبنا بالرغم من كل الدعايات المغرضة التي أثارتها الدول الاستعمارية والصهيونية ضده .

ولقد حرصت في هذا الكتاب على اعطاء صورة عن حالة اليهود في ظل الحكم الإسلامي ، مما يؤكد عدم وجود أي مبرر للتحدث عن المشكلة اليهودية في بلادنا كما بينت في فصل آخر حالة الدولة العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر والتي كانت تسير نحو التفسخ والانحلال ، مما شجع الدول الاستعمارية على التآمر عليها والعمل على تفجيرها من الداخل ، باستغلال الدعوات القومية ، وهذا ما وضحته في الفصلين اللاحقين .

وأخيراً بينت كيف تصدى السلطان عبد الحميد للاستعمار والصهيونية ، وكيف دفع عرشه ثمناً لموقفه المشرف . وهذا ما جعله يستحق منا ان نكتب عنه هذا الكتاب .

والله ولي التوفيق ،،،،

رفيق شاكر النتشة

٢٧ رمضان ١٤٠٤هـ

٢٧ حزيران ١٩٨٤م

قـــال الله تعـــالى :

« لا ينهاكـــم الله عـــن الذيـــن لم يقاتلوكـــم فـــي الديـــن ولـــم يخرجوكـم مـــن دياركـــم أن تبروهـــم وتقسطـــوا اليهـــم إن الله يحـــب المقســطين »

« صـــدق الله العظيـــم »

اليهود في ظل الحكم الإسلامي

مقـــــدمة :

لقد واجه اليهود عبر التاريخ الطويل للشرية انواعاً متعددة من الاضهادات والمظالم ، لاسباب مختلفة ، يعزيها بعض المؤرخين إلى أسباب ذاتية تتعلق باليهود انفسهم ، بسبب اعتناقهم الدين اليهودي ، أو بسبب وظائفهم الاقتصادية ، كما يعزيها البعض الآخر إلى أسباب خارجة عن إرادة اليهود ، بسبب الاغيار الذين يحملون عقيدة مخالفة لهم ، أو لأسباب اقتصادية أو سياسية أو غير ذلك .

ولقد شهد اليهود مذابح واضطهادات في معظم البلاد الأوروبية – إن لم يكن جميعها – شرقيها وغربيها . فقد حصل ان واجهوا ذلك في بعض البلاد منها :

بريطانيـــا : طردتهم في أول القرن السادس للميلاد ومنعت دخولهم اليها مدة ثلاثة قرون .

وفرنســـا : اضطرت في عهد لويس التاسع عشر إلى طردهم وحرق تلمودهم بسبب كيدهم للشعب الفرنسي .

* من كتاب الاستعمار وفلسطين (إسرائيل مشروع استعماري) ، رفيق شاكر النتشه – طبعة أولي ١٩٨٤ – دار الجليل – عمـان .

واسبانيــا : طردتهم وحرمتهم من الدخول إلى بلادها . وفي سنة ١٤٩٢م اصدر الملك فرديناند والملكة ايزابيلا مرسوماً بطردهم ومعهم ابناؤهم وبناتهم وخدامهم وخادماتهم وأقرباؤهم كبيراً وصغيراً بسبب هزئهم من الكاثوليكية والسخرية منها كما جاء في المرسوم الملكي .

والبرتغــال : فعلت كذلك بعد ان ذاقت منهم الأمرين .

والمانيــا : فكلنا يعرف موقف السلطات الالمانية النازية منهم . والمذابح التي وقعت عليهم من النازيين .

أمــا روسيا القيصرية : التي حاولوا فيها قتل القيصر ، فقد قامت ضدهم بعدة مذابح في اوقات متفرقة من التاريخ[١] .

كما واجهوا احراق كتبهم الدينية كالتلمود في كثير من البلاد الأوربية في الوقت الذي كان فيه موسى بن ميمون (الذي كان يعمل في قصر الخليفة المسلم في بلاد الاندلس) يكتب عن التلمود والفلسفة اليهودية بحرية في ظل الحكم الإسلامي .

في سنة ١٢٤٤م أمر ملك فرنسا لوي التاسع بإحراق نسخ التلمود . وفي نفس العام أمر البابا انوسنت الرابع بإحراق نسخه في روما .

وفي سنة ١٢٤٨م أمر الكردينال ليجات أودو إعادة إحراق نسخ التلمود .

وفي سنة ١٢٩٩م أمر فيليب ليبيل بإحراق كل تلمود اعيد طبعه .

وفي سنة ١٣٠٩م أمر فيليب ليبيل ملك فرنسا بطرد اليهود منها بعد ان احرق نسخ التلمود تحت اشرافه ومراقبته ، وذلك حين ظهر له تشيع يهود فرنسا للتلمود الذي لا يتزحزون عنه .

وفي سنة ١٣١٩م أمر الملك لوي باحراق نسخ التلمود في حضور الناس بعد ان شوهد تكاثرها في مدينة تولــوز .

وفي سنة ١٣٢٢م أحرقت نسخ التلمود في روما بأمر من البابا جون الثاني والعشرين ، كما قتل الناس اليهود الذين قبض عليهم بجوار المدينة ووزعت أموالهم على فقراء البلد .

وفي سنة ١٣٥٣م أمر البابا يوليوس الثالث بإحراق نسخ التلمود . فأحرقها الناس في مدن جل أهلها مسيحيون متل بارسيلونا ، والبندقية ، وروماغنا ، وأوربينو وبيسارو .

وفي سنة ١٥٥٨م اعيد احراق نسخ التلمود في ايطاليا في انكونا ، وفرارا ومانتوا ، وبدوا ، وكنديا ، وفي رافننا .

وفي نفس العام ، أحرقت نسخ التلمود التي دخلت روما من جديد بأمر من الكردينال جيسليري .

وفي سنة ١٥٥٩م أمر سكتوس سيننزيز باحراق نسخ التلمود التي ادخلها اليهود العنيدون خلسة إلى روما .

وفي سنة ١٥٥٧م جمع شعب بولندا ، الذي أدرك خطورة هذا الكتاب ، جميع نسخ التلمود وأحرقها ، كما ان الحكومة اصدرت أمراً باحراقها كذلك .[٢] .

وهنا نأتي إلى سؤال لا بد من الاجابة عليه وهو : كيف كانت أحوال اليهود في العالم الإسلامي ؟ وهل واجهوا المتاعب والمذابح كما واجهوها في البلاد المسيحية الأخرى ؟ .

ونحن هنا عندما نستعرض بإيجاز أحوال اليهود في العالم الإسلامي ، إنما نود أن نتبين فيما إذا كان هناك من مبرر ديني ، أو عرقي ، أو سياسي ، يدعو اليهود عامة ، والصهاينة خاصة ، للانتقام من العرب ، أو المسلمين ، والاشتراك في الهجمة الاستعمارية الصليبية الجديدة ، على بلادهم ، واغتصاب أهم قطر من هذه البلاد وهي فلسطيـــن .

الإســـلام واليهـــود :

بادىء ذي بدء نود ان نؤكد ان معاملة اليهود في ظل الحكم الإسلامي عبر التاريخ ، لم تكن وليدة صدفة ، ولا مجرد كرم أخلاقي من الحكام المسلمين ، وإنما

كان ذلك بسبب العقيدة الإسلامية التي تلزم اصحابها حكاماً ومحكومين ، بحماية اصحاب الديانات الأخرى ، ومعاملتهم كمواطنين لهم حقوقهم التي لا يجوز المساس بها ولهم احترامهم كأصحاب ديانات سماوية يعترف بها الإسلام ويعترف برسلهم .

﴿ آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كلّ آمن بالله ، وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين احد من رسله ﴾ صدق الله العظيم .

وبالرغم من ان الكتب المقدسة الموجودة الآن تعتبر من وجهة نظر الإسلام كتب محرفة ، وليست كما نزلت على موسى وعيسى عليهما السلام ، إلا أن ذلك لم يمنع الإسلام بالزام المسلمين باحترام المؤمنين بها وحماية كنائسهم ، واتاحة الفرصة لهم للتمتع بممارسة عباداتهم بالشكل الذي يعتقدونه .

كما والزم الإسلام المسلمين بحماية حقوق غير المسلمين ، ليس فقط بحرية العبادة ، بل بحرية العمل والتملك ، والحياة الحرة الكريمة ، واعتبر الإسلام ان الاعتداء على احد من هؤلاء هو خروج على التعاليم الإسلامية ، ما داموا يؤدون واجباتهم والتزاماتهم ، ويؤدون الطاعة اللازمة ، ولا يخرجون على النظام العام والقوانين والأنظمة التي حددها الإسلام للمسلمين وغير المسلمين .

اليهود والنصارى في القرآن والسنة :

لقد ورد في القرآن عدد كبير من الآيات التي تأمر المسلمين بمعاملة أهل الكتاب (النصارى واليهود) أحسن معاملة وكان عنوان التعاون معهم في المجتمع الإسلامي على أساس القاعدة العامة التي رآها الفقهاء : (لهم ما لنا – وعليهم ما علينا)[٣] .

فقال الله تعالى في سورة الممتحنة . آية ٨ :

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين ﴾ صدق الله العظيم .

كما قال تعالى في سورة العنكبوت آية ٤٦ :

﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم ... ﴾ الآية

وقد امتدح القرآن الصالحين من أهل الكتاب كما يمتدح غيرهم من المؤمنين فقال الله تعالى في سورة آل عمران آية ٧٥ :

﴿ ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ﴾ الآية

كما قال سبحانه في سورة آل عمران آية ١١٣/١١٤ :
﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون (١١٣) يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات أولئك من الصالحين (١١٤) ﴾ صدق الله العظيم .

أما الأحاديث النبوية فقد ورد منها العشرات التي تدعو المسلمون لمعاملة أهل الكتاب من اليهود والنصارى أحسن معاملة ، وقد حرم على المسلمين إيذاءهم أو الاعتداء على املاكهم ، أو معابدهم ، أو أكل حقوقهم .

وكل عهد يعطي لغير المسلمين من النصارى واليهود ، عهد يستوجب التنفيذ حسب الشريعة الإسلامية ، وقد عاهد الخلفاء المسلمون النصارى واليهود على كثير من الأمور بعد انتهاء الحرب ، فتضمنت عهودهم « حمايتهم ، والحفاظ على حريتهم الشخصية والدينية ، وإقامة العدل بينهم والانتصاف من الظالم »(٤) .

وجاء في الحديث « من ظلم معاهداً ، أو كلفه فوق طاقته فانا حجيجه »(٥) .
ولهذا قرر الإسلام المساواة بين الذميين والمسلمين . فلهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وكفل لهم حريتهم الدينية ، وذلك بعدم إكراه أحد منهم على ترك دينه . قال الله تعالى في سورة البقرة الآية ٢٥٦ **﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغـــي ﴾** .

ومن حق أهل الكتاب ان يمارسوا شعائر دينهم فلا تهدم لهم كنيسة ولا يكسر لهم صليب . يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه « اتركوهم وما يدينون » .

بل من حق زوجة المسلم « اليهودية والنصرانية » ان تذهب إلى الكنيسة أو المعبد ، ولا يحق لزوجها في منعها من ذلك .

كما سوى الإسلام بينهم وبين المسلمين في العقوبات[٦] قال الزهري « دية اليهودي ، والنصراني ، وكل ذمي مثل دية المسلم » .

وقد كفل الإسلام جميع حقوق الانسان (ومنهم اليهود والنصارى) ، وواجب حمايتها ، وصيانتها ، سواء أكانت حقوقاً دينية أو مدنية ، أو سياسية .

ومن هذه الحقـــوق :

١- حق الحياة . ٢- حق صيانة المال . ٣- حق الحرية . ٤- حق العِرْض

٥- حق المأوى وكذلك حق التعليم وإبداء الرأي .

وإن أي تفويت أو تنقيص لحق من حقوق الإنسان يعتبر جريمة من الجرائم[٧] وكان المسلمون يعاملون من هم على غير دينهم من النصارى واليهود ، كما يعاملون المسلمين ، ويقف المسلمون أمام القانون مع النصارى واليهود سواء بسواء حتى ولو كان المسلمون من الخلفاء الراشدين أو من الصحابة .

وعن انس رضي الله عنه قال : رهن النبي ﷺ درعاً عند يهودي بالمدينة وأخذ منه شعيراً لأهله » .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : ان النبي ﷺ اشترى طعاماً من يهودي إلى أجل ورهنه درعاً من حديد ، وفي لفظ : توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهون عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير . رواهما البخاري ومسلم[٨] .

اليهود في العالم الإسلامي :

وانطلاقاً من هذه القاعدة نأتي لنستعرض أحوال اليهود في العالم الإسلامي : لا شك ان اليهود في الجزيرة العربية ، قد وقفوا موقفاً عدائياً من الإسلام والمسلمين منذ ظهور الإسلام ، وتآمروا مع المشركين لإخفاء نوره وسحق دعاته ، ولهذا فقد اضطر الرسول ﷺ ان يعاملهم بالمثل فحاربهم ، وعاهدهم ، ولكنهم خانوا ، وخدعوا فتم اجلاؤهم عن الجزيرة العربية . ليس لانهم يهود ، بل لخياناتهم .

وبعد ان انتصر الإسلام على المشركين ، وعلى اليهود ، وتمت له السيطرة أصبح اليهود ، شأنهم شأن النصارى ، يعاملون معاملة طبيعية كمواطنين ، ما لم يخرجوا على النظام ، ويمتنعوا عن القيام بواجباتهم المفروضة عليهم .

فحقوقهم محفوظة طالما أدوا واجباتهم . وهذا لا ينطبق عليهم وحدهم كأصحاب دين مغاير ، بل ينطبق على المسلمين أيضاً الذين يخرجون على النظام ويخالفون القوانين والأنظمة التي ارساها الإسلام .

ولقد شهد اليهود في حياتهم بين المسلمين في العالم الإسلامي ، أكرم حياة وعوملوا أطيب معاملة ، كانت مضرب المثل لليهود في الاقطار الأخرى .

وقد شهد على ذلك المؤرخون اليهود والنصارى ، بالإضافة إلى المؤرخين المسلمين . فمنذ ان فتح المسلمون فلسطين ، سمح الخليفة عمر بن الخطاب لليهود بالعودة إلى القدس ومنحهم قطعة أرض على جبل الزيتون لإقامة الصلوات ، كما سمح لهم بعد ذلك السلطان صلاح الدين الأيوبي بالعودة بعد الاضطهاد والابادة التي لاقوها أثناء الحروب الصليبية ، وأخيراً سمح لهم العثمانيون بالعودة إلى فلسطين بعد طردهم من الأندلس .[٩] .

وفي حين كانت أوروبا الغربية المسيحية تضطهد اليهود باسم الدين وتذيقهم ألوان العذاب في القرون الوسطى ، وتضطرهم على النزوح إلى شرقي أوروبا وغربيها ، كانت الدول العربية توليهم اسمى المناصب وتعترف لهم بحق المساواة المطلقة فيتجرون ويثرون ، يبلغون شأناً في السياسة والإدارة والاقتصاد لم يسبق له مثيل .[١٠]

ونود ان نبدأ هنا بالاستشهاد عن التسامح الذي لقيه اليهود في العالم الإسلامي بما كتبه عدد من المؤرخين والسياسيين ، وعلماء الاجتماع ، اليهود ، والنصارى .

فهذا هو الكاتب اليهودي الماركسي إبراهام ليون في كتابه « المفهوم المادي للمسألة اليهودية » والذي علق عليه الكاتب اليهودي مكسيم رودنسون يقول في ص (١٥٦) :

« عامل الإسلام اليهودية بتسامح يفوق التسامح الذي لاقاه هذا الدين – من جانب المسيحية – كتيار ايديولوجي اعترف بحقه بالبقاء بالرغم من الهزيمة التي لحقت به »(١١) .

ويقول أيضاً في ص (١٥٧) :

وفي ظل الامبراطورية الإسلامية والدويلات التي قامت على اشلائها ، والتي احتفظت فيما بينها بصلات وثيقة ، أزدهرت التجارة بين مناطق متباعدة ، وتقدم الانتاج الزراعي الخاص بكل اقليم من الأقاليم ، وراجت الصناعات اليدوية ، وشارك اليهود كسائر عناصر السكان في هذا التقدم ، ومارس عدد كبير منهم التجارة كما يقول – جواتين – : « لقد أدت هذه الثورة – البرجوازية – إلى الإسراع في تحويل اليهود من شعب يمارس بالدرجة الأولى المهن اليدوية إلى جماعة تهتم بصورة رئيسية بالتجارة .. وعندما وجد اليهود انفسهم ابان العصر الإسلامي أمام حاضرة ميركانتيلية قابلوا التحدي وتحولوا بدورهم إلى أمة تتكون من رجال الأعمال وباشروا بالقيام بدور رئيسي في نهضة الحضارة الجديدة(١٢) .

ويؤكد ذلك في ص ١٦١ فيقول :

وقد وجد اليهود الذين لم يعانوا الاضطهاد القاسي حيث كانوا يقيمون ملجأ لهم في البلدان المجاورة ، وخاصة خارج البلدان المسيحية ، في العالم الإسلامي الذي فتح لهم صدره (١٣)

كما يقول الكاتب والمؤلف اليهودي المعادي للصهيونية الفرد ليلنتال في كتابه « هكذا يضيع الشرق الأوسط » ص (٢٩٤) :

وكما اثار المؤرخون اليهود فإن العصر الذهبي لليهودية امتد على القرون البادئة عام ٧١١ ب . م عندما عاش اليهود متمتعين بالنفوذ والاحترام تحت السلطة الإسلامية في اسبانيا والبرتغال ، وحين اضطر اليهود إلى الفرار من وجه مجالس التفتيش المسيحية وجدوا ملجأ لهم في شمال افريقيا والشرق الأوسط .

ما يعرف في الغرب بالعداء للسامية لم ينشأ في العالم العربي في يوم من الأيام ، إن العرب لم يكونوا قط معادين لليهود ، والإسلام يعتبر موسى وإبراهيم كما يعتبر يسوع أنبياء(١٤) .

كما يقول في ص (٢٩٥) :

وفي مصر عاش اليهود طوال الف سنة جنباً إلى جنب مع المسلمين – وبعضهم من احفاد اليهود القدماء الذين خلفهم موسى وراءه عند خروجه من مصر . وفر آخرون إلى مصر بعد التدمير الأول الذي انزله البابليون بهيكل القدس ، وفي عام ٢٥٠ ق.م يحدثنا فيلو انه كان في الاسكندرية يهوداً أكثر مما كان في القدس ، ووجد اليهود ملاذاً لهم في مصر نجّاهم من الاضطهادات النصرانية في اسبانيا والبرتغال خلال القرن الخامس وكذلك اثناء الثورة الروسية والحكم الهتلري . ولا ريب في ان الغزو الاسرائيلي لمصر قد وضع حداً لهذا الملاذ المصري ليهود العالم[١٥] .

وجاء في كتاب « تاريخ العرب – الحزء الثاني » لكل من الدكتور فيليب حتى والدكتور ادوارد جرجي والدكتور جبرائيل حيدر ص ٤٣٧/٤٣٨ :

ولقد لقي اليهود من محاسنة المسلمين فوق ما لقيه النصارى برغم ما في بعض الآيات القرآنية من تنديد بهم والسبب انهم كانوا قليلي العدد فلم يخشى آذاهم . وقد وجد المقدسي سنة ٩٨٥م ان أكثر الصيارفة وأرباب البنوك في سوريا يهود وأكثر الكتبة والأطباء نصارى ونرى في عهد عدد من الخلفاء واخصهم المعتضد (٨٩٢ – ٩٠٢م) انه كان لليهود في الدولة مراكز هامة . وكان لهم في بغداد مستعمرة كبيرة ظلت مزدهرة حتى سقوط المدينة . وقد زار هذه المستعمرة بنيامين التطيلي حول سنة ١١٦٩م فوجد فيها عشر مدارس للحاخامين وثلاثة وعشرين كنيساً منها واحد رئيسي مزدان بالرخام المخطط ومجمل بالذهب والفضة . وأفاض بنيامين في وصف الحفاوة التي لاقاها رئيس اليهود البابليين من المسلمين بصفته سليل بيت داوود النبي ورئيس الملة الاسرائيلية (ريش جاوثا) في الارامية أي أمير السبي أو بصفته في الواقع زعيم جميع اليهود الدين يدينون بالطاعة للخلافة في بغداد . فقد كان لرئيس الحاخاميين هذا من السلطة التشريعية على ابناء طائفته مثل ما كان للجاثليق على جميع النصارى . وقد روى أنه كانت له ثروة ومكانة وأملاك طائلة فيها الحدائق والبيوت والمزارع الخصبة . وكان إذا خرج إلى المثول في حضرة الخليفة ارتدى الملابس الحريرية المطرزة وعمامة بيضاء موشاة فيها الجواهر واحاط به رهط من الفرسان وجرى امامه ساع يصيح بأعلى صوته (افسحوا درباً لسيدنا ابن داوود)[١٦] .

كما يؤكد ذلك السيد صبري جريس في كتابه « تاريخ الصهيونية (١٨٦٢ — ١٩١٧م) الجزء الأول ص ٦٠ :

تمتع اليهود في فلسطين ، التي كانت خاضعة للحكم العثماني ، منذ سنة ١٥١٧م وفي أماكن أخرى من الامبراطورية العثمانية ، بقسط كاف من الحرية الدينية ، لم تكن من نصيبهم في أي بلد أوروبي . فخلال الحكم العثماني ، لم تتخذ أية اجراءات رسمية تستحق الذكر ، تناهض اليهود أو تميز بينهم وبين باقي السكان ، كما كان الحال في معظم الدول الأوروبية . إن لم يكن فيها كلها [١٧]

يعزو بعض المؤرخين (غير المسلمين) سبب بقاء اليهود على قيد الحياة إلى استضافة المسلمين وحمايتهم لهم . يقول ج . هـ . جانسن في كتابه « الصهيونية واسرائيل وآسيـا ص ١٦ :

وفي مناسبتين من التاريخ اليهودي في أوروبا نرى ان بقاء اليهود على قيد الحياة يعود الى استضافة وحماية الحكام المسلمين ، كانت الفترة الأولى في القرن السادس عندما وضعت الفتوحات الإسلامية في اسبانيا حداً للاضطهاد اليهودي على يد المسيحيين هناك . ومنذ القرن العاشر فصاعداً أخذ الضغط على اليهود في أوروبا الغربية في الازدياد ببطء حتى إذا ما أطل القرن السادس عشر كانت تلك المنطقة بكاملها قد افرغت من اليهود ما عدا بعض الجيوب الصغيرة والمبعثرة . لقد انتقلت الجاليات اليهودية نحو الشرق ووجدت ملجأ لها في الامبراطورية العثمانية كما في بولندا وروسيا حيث تجمع القسم الأكبر منهم في المقاطعات الغربية من روسيا وبولندا وهي التي عرفت فيما بعد بمناطق الاستيطان .

اليهود في الدولـة العثمانيـة :

وقد عاش اليهود تحت الحكم العثماني بسلام لكنهم كانوا يلاقون دوماً في أوروبا الشرقية تمييزاً وكراهية قوية كانت تتفاقم من وقت لآخر لتنتهي بالمذابح [١٨] .

كما يؤكد (المؤلف نفسه) ذلك في ص (٢٣) :

ولم يواجه المهاجرون اليهود أي عقبة سياسية لان زعماء المسلمين لم يرفضوا في أي فترة السماح لليهود القادمين من البلدان الاجنبية بدخول فلسطين والاستيطان

فيها . ولم يمنح هذا السماح للمسيحيين الغربيين . وبعد وصول أول فوج من المستوطنين الصهيونيين من رومانيا عام ١٨٨٢م أصدر السلطان عبد الحميد لأول مرة في التاريخ ، عام ١٨٨٥م ، أمراً يسمح بدخول اليهود كحجاج فقط لا كمستوطنين . على ان القانون لم ينفذ أبداً بصرامة . ولكن هذا القانون وما تلاه من قوانين تقيد الهجرة كانت تنطبق فقط على اليهود الأجانب ، أما مئات الآلاف من المواطنين اليهود في البلدان المحيطة بفلسطين والخاضعة للإمبراطورية العثمانية فقد كان باستطاعتهم دوماً الاستيطان في فلسطين . ويقدر عدد اليهود الذين كانوا في فلسطين عام ١٨١٤م بحوالي ١٠,٠٠٠ يهودي فقط ، وفي عام ١٩١٤م محرد ٣٥,٠٠٠ يهودي من بين ١٢,٠٠٠,٠٠٠ يهودي يرددون في صلواتهم ثلاث مرات في اليوم ان لن ينسوا أورشليم والعودة إلى أرض الميعاد . والبرهان القاطع هو انه « رغم ما كتب عن المكانة التي تشغلها فلسطين في قلب الشعب اليهودي » ، إلا انها كأرض للعيش عليها لم يكن لها إلا تأثير ضئيل على الفرد اليهودي . وأشار داعية صهيوني إلى التوبيخ الذي يحس به لان اليهود هم أقل طائفة من بين الطوائف الأخرى تقصد إلى فلسطين [١٩]

كما ينقل الدكتور أميل توما في كتابه « جذور القضية الفلسطينية » (ص ١٢) عن كتاب جون برونغ (تقرير حول سوريا) وصف الأخير أحوال اليهود في ظل الإسلام :

إن التجار اليهود الأجانب في دمشق هم الفئة الاغنى بين التجار وذكر عائلتين تملك كل منهما مليون ونصف مليون جنيه ، وهذه ثروة ضخمة في ذلك الحين ، وأضاف ان أكثر البيوتات التجارية تتاجر مع بريطانيا[٢٠]

ولقد كانت صلة اليهود بفلسطين عبر التاريخ وقبل وجود الصهيونية الاستعمارية ، مجرد صلة دينية عاطفية ولم يكن لهم أية مطامع سياسية . وكان هذا الأمر قبل السبي البابلي ، الذي قام به نبوخذ نصر . إذ أنه من الثابت تاريخياً أن اليهود كانوا موزعين في العالم العربي ، وغير العربي ، في ذلك الوقت ، ولم يكونوا مجتمعين فقط في فلسطين ، بل كانوا مواطنين في كثير من الدول .

كانت صلة اليهود بفلسطين مجرد صلة دينية عاطفية ورغبة لدى بعض الفئات اليهودية المتدينة في الاقامة قرب الأماكن المقدسة للتعبد وممارسة الطقوس الدينية لقضاء أيامهم الأخيرة في المدن الأربعة المقدسة (القدس ، صفد ، طبريه ، الخليل) ناهيك عن ان اليهود المتدينيين كانوا يؤمنون بفكرة بعث الدولة اليهودية في فلسطين بحدوث معجزة إلهية يظهر معها المسيح المنتظر الذي سيعيد بناء « هيكل سليمان » ويقود العالم نحو الخير والسلام [٢١] .

ولما ابتدع الفكر الاستعماري – غير اليهودي – الصهيونية السياسية ، التي كان يتطلع من ورائها إلى تنفيذ المشروع الصهيوني الاستعماري بإقامة دولة يهودية في فلسطين ، بدأ الساسة المستعمرون ومن يعمل معهم من المبشرين بإطلاق المزاعم عن (العودة إلى أرض الميعاد) . (وتحقيق نبوءة المسيح) والاستشهاد بنصوص التوراة التي اطلقوها وفسروها لتخلم المشروع الصهيوني . ومن الطبيعي ان تلاقي هذه المقولة اذاناً صاغية واستحساناً لدى المجتمعات الغربية المسيحية التي أرادت ان تتخلص من اقلياتها اليهودية (فاشفقت) عليهم لما حل بهم من ويلات ومآسي ابان العصور الغابرة من محاكم التفتيش في اسبانيا في القرن الخامس عشر إلى البوغروم في روسيا في القرن التاسع عشر (وهي ملاحقات واعتقالات واجراءات اضطهادية حدثت في روسيا على يد القيصر الروسي في « ١٨٨١ – ١٨٨٢م » إلى أفران الغاز في المانيا النازية في النصف الأول من هذا القرن [٢٢] .

وفي الوقت الذي كانت فيه مذابح اليهود كثيرة الوقوع في روسيا وبولونيا ، كانت هناك حركات في فرنسا وغيرها من اعرق أمم أوروبا حضارة ترمي إلى ما يشبه القضاء على اليهود ، حتى كادت قضية دريفوس ان تشعل نار الثورة في فرنسا ، وكان اليهود يجدون في البلاد الإسلامية أطيب معاملة ، ويعتبرونها الملجأ الآمن لهم وكانت هذه البلاد الإسلامية ترى واجباً عليها حماية اللاجئين اليها منهم والمساواة بينهم وبين المسلمين في المعاملة [٢٣] .

ويجدر بنا ونحن بصدد الحديث عن الدولة العثمانية ان نبين كيف كانت تلك الدولة تعامل اليهود قبل ظهور الفكرة الصهيونية السياسية التي لم يكن لها أي علاقة

باليهود أو بالدين اليهودي ، إلا من ناحية واحدة ، وهي استعمال الدين اليهودي كغطاء لتنفيذ المشروع الصهيوني ، واستعمال اليهود كمادة لاستغلالها من أجل اقامة الدولة اليهودية التي كان الاستعمار يرمي من وراء اقامتها تأسيس قاعدة استعمارية لتأمين مصالحه في العالم الإسلامي .

لقد عمل اليهود في الامبراطورية العثمانية في كل فروع التجارة والعمل والصناعة والعلم . ووصل بعضهم إلى مراكز هامة . وتمتع اليهود – كسائر الاقليات داخل الإمبراطورية بقدر كبير من الاستقلال الذاتي والإداري والطائفي ، فكان الحاخام باشي أو الحاخام الأكبر هو ممثل اليهود في كل أمر أمام الحكومة ، كما سمح لأفراد الطائفة بحرية إختيار رؤسائهم الروحيين ، وفرض الضرائب ، وحل الخلافات فيما بينهم وكانت المحكمة اليهودية تحكم بينهم حسب الشريعة اليهودية ، كما لم يحدث ادنى تدخل بالأموال التي تجمع لمؤسساتهم الخيرية أو التعليمية ، وتمتعت مدارسهم الطائفية باستقلال ثقافي ذاتي[٢٤] .

وبعد خضوع فلسطين للحكم العثماني في أوائل القرن السادس عشر ، بدأ يهود أوروبا يهاجرون إليها وأقاموا في الأماكن المقدسة . القدس ، طبريا ، صفد ، الخليل . وفي منتصف القرن الثامن عشر هاجر عدد من يهود بولندا وروسيا إلى فلسطين بسبب اضطهادهم هناك ، واستقر معظمهم في صفد وطبريا حيث لاقوا تحت حكم ضاهر العمر الحماية والأمن .

كما لاقوا من مختلف السلاطين العثمانيين المعاملة الحسنة ، وتعتبر الدولة العثمانية هي الدولة الوحيدة التي لم يحصل فيها اضطهاد . وقد بلغ عدد اليهود في فلسطين عندما غزا نابليون البلاد عام ١٧٩٩م خمسة آلاف فحسب . ثم إزداد عددهم في أوائل القرن التاسع عشر بعد ان ازداد تدفقهم من اسبانيا بسبب مظالم فرديناند الكاثوليكي وفيليب الثاني . ويسمى هؤلاء اليهود بالسفارديم أي أهل الكتاب والظاهر ان عددهم ارتفع الى حوالي ستة آلاف في عام ١٨٣٩م مقابل ما يقرب من ٣٠٠,٠٠٠ عربي أي أن اليهود لم تتعد نسبتهم ٢٪ بالمئة من مجموع سكان فلسطين . بينما يذكر ماندل بأن عدد اليهود عام ١٨٨٠م لم يتعد ٢٢ ألف يهودي موزعين في المدن الأربع[٢٥]

تمتع اليهود في فلسطين ابان الحكم العثماني بقسط كاف من الحرية الدينية . لم تكن من نصيبهم في أي بلد أوروبي ، فخلال الحكم العثماني لم تتخذ أية اجراءات رسمية ، تستحق الذكر تناهض اليهود ، أو تميز بينهم وبين باقي السكان . كذلك تعزز مركز اليهود ومركز باقي الطوائف الأخرى غير الإسلامية بمنحهم امتيازات كثيرة تتعلق بالمحافظة على حقوقهم الدينية ومنحهم حكماً ذاتياً في هذا المجال ، وتوسع نظام الحماية كذلك بحيث أصبح الكثيرون من اليهود والمسيحيين بمثابة مواطنين للدول الأجنبية التي تتولى حمايتهم بواسطة قناصلها[٢٦] .

وحين وافق السلطان سليمان عام ١٥٦٢م على تحويل مدينة طبريا إلى مدينة يهودية عارض المسيحيون ، وتدخل البابا مع الصدر الأعظم لإفساد المشروع ورفض العمال العرب ان يعملوا ولكن والي دمشق ساعد على اتمام بناء السور إلا أن التطور توقف بموت السلطان سليم سنة ١٥٧٤ [٢٧] .

ومن المعروف تاريخياً أن الصليبيين ، عندما احتلوا بيت المقدس ، جمعوا يهود المدينة في الكنيس ، ثم احرقوهم فيه احياء !![٢٨] . بينما نجد عكس هذه المعاملة تماماً لليهود في ظل المسلمين ، وفي جميع بلدان العالم الإسلامي ويكفي ان نورد ما كتبته (الموسوعة اليهودية) بهذا الصدد لنعرف ما لاقاه اليهود من معاملة حسنة :

تؤكد (الموسوعة اليهودية) بأن السلطان عبد الحميد الثاني عامل يهود الدولة العثمانية معاملة طيبة ، ويشهد بذلك بعض المقربين إليه من اليهود أمثال « ارمينيوس فامبري » الصديق الشخصي للسلطان الذي صرح : انه من خلال الصداقة المستمرة التي تربطني بالسلطان منذ سنوات طويلة كانت لي الفرصة للتعرف على معاملته الطيبة لليهود . وكان أول حاكم تركي يعطيهم المساواة أمام القانون مع رعاياه المسلمين ، وعندما استلم الحكم أمر باعطاء رواتب شهرية لحاخام تركيا الأكبر وبمعنى آخر عامل الحاخام كما يعامل كبار موظفي الدولة وأتخذ تقليداً بأن يرسل سنوياً في عيد الفصح إلى حاخام القسطنطينية ثمانية آلاف فرنك لتوزع على فقراء اليهود في العاصمة التركية . وعندما منعت حكومة كريت المحلية في عام ١٨٨١م مشاركة اليهود في الانتخابات البلدية الغى عبد الحميد هذه الانتخابات ووبخ السلطات لتعديها على حقوق اليهود . وفي عام ١٨٨٢م ونتيجة للحريق الذي شب

في الحي اليهودي « حسكني » ، تشردت ستة آلاف عائلة يهودية في القسطنطينية ، فبذل السلطان عبد الحميد ما باستطاعته لتخفيف هذه الكارثة عن اليهود [٢٩] .

ولا أظن ان هذا السلطان وبهذه الأخلاق التي تعبر عن عقيدته الإسلامية يستحق من الصهاينة اليهود ذلك التآمر الذي قاموا به ضده بتنفيذ المؤامرات لصالح الاستعمار الغربي والذي أدى أخيراً إلى الاطاحة به .

وهكذا نجد أن المعاملة الطيبة ، التي لا مثيل لها في أي بلد آخر ، التي لاقاها اليهود في العالم الإسلامي لم تتغير إلا بعد نشوء الصهيونية التي ابتكرها ورعاها ، وخطط لها ونفذ لها المستعمرون غير اليهود أولاً ثم حفنة من عملائهم اليهود الصهاينة بعد ذلك .

في الماضي كان يباح للأجنبي الاتجار مع البلاد العثمانية والمكوث فيها دون ان يملك أقل قطعة من الأرض ، لأن الشرع الإسلامي لا يبيح له دخول البلاد الإسلامية إلا إذا قبل أحد امرين الجزية أو الإسلام ، وإذا دخلها فلا يقيم بها إلا لأجل معين إلى ان تغير ذلك في ٧ صفر ١٢٨٤هـ (١٨٥٦م) بصدور الخط الهمايوني الذي يساوي بين حق الأجنبي وحق العثماني في الامتلاك العقاري بالبلاد العثمانية . ولكن الأوامر الجديدة كانت تستثنى اليهود الأجانب من التملك في فلسطين[٣٠] .

وقد أشارت جريدة المؤيد في ١٨٩١/١١/٥م بأن الدولة العلية كانت قد رحبت بالمهاجرين من يهود روسيا فكانت بذلك اعرف الدول بحقوق الانسانية ولكنها رأت بعد ذلك انهم يفدون إلى البلاد التي يقصدونها زمراً وجماعات بحيث يضيق عنهم فضاء تلك البلدان . وسينشأ عن ذلك حدوث أمراض معدية وحميات مضرة ، فلما تدبر الباب العالي في المضار التي تلحق الرعايا العثمانية من وفودهم بهذه الصفة اضطرت ان تمنع دخولهم الأراضي العثمانية [٣١] .

ولقد كان عرب فلسطين (بصفتهم مواطنين عثمانيين) يتمتعون بحق المواطنين في الدولة العثمانية ويمارسون حقوقهم شأنهم شأن اخوانهم المواطنين الآخرين ، وذلك قبل نشوء الحركات القومية التي أدت إلى تفجير الامبراطورية العثمانية .

كان عرب فلسطين – شأنهم شأن سائر الشعوب التي كانت تتألف منها الامبراطورية العثمانية يتمتعون بحق انتخاب ممثليهم في البرلمان العثماني وانتخاب مجالس الإدارة والبلديات ، وتولى العرب معظم مراكز الإدارة الرئيسية في فلسطين وكان من ابنائهم من تولى مراكز إدارية عالية في عاصمة الدولة العثمانية وسائر انحاء الامبراطورية . كما شغل عدد من ابناء الأمة العربية مناصب في الوزارات العثمانية المتوالية ، بينما تولى رئاسة الوزارة العثمانية رجل عربي (محمود شوكت العراقي) في سنة ١٩٠٨م فماذا كان مصير تلك الحقوق التي كان يتمتع بها عرب فلسطين في العهد العثماني .. وسائر حقوقهم الطبيعية والمكتسبة من عهود الانجليز ووعود الحلفاء وميثاق عصبة الأمم ومبادئها[٣٢] .

أما بعد ان بدأ السلاطين يلتفتون إلى ملاذهم الشخصية ويتخلون عن واجباتهم تجاه الشعوب التي تتألف منها دولتهم ، اختلف الحال ، وأصبح المواطنون جميعاً بما فيهم الأتراك العثمانيين انفسهم يتذمرون ويتململون للتخلص من الظلم ، والفساد الذي بدأ ينفذ في كل ركن من أركان تلك الدولة التي شاخت وأصبحت تسمى (الرجل المريض) .

ولقد كان وصول المهاجرين اليهود إلى أراضي الدولة العثمانية – ومنها فلسطين – يستقبل بعدم المبالاة ، وينظر إليه نظرة انسانية ، خاصة ان هؤلاء المهاجرين كانوا يأتون للاقامة من أجل العبادة ، ويهربون من المذابح التي يلاقونها في بلاد أخرى ليست من العالم الإسلامي .

ولا يعقل ان يخطر ببال المهاجرين الاساءة إلى العرب في قطرهم وهم الذين رحبوا بهم وافسحوا لهم صدرهم الآن وعلى مدى عصور التاريخ[٣٣] .

ويقول الفرد ليلينتال الكاتب والمؤلف اليهودي غير الصهيوني في نفس كتابه السابق الذكر (ص ٣١٤) :

ولقد عبر هاورد سميث في اوائل عام ١٩٥٦م وكان في عمان عن هذا المعنى نفسه في اذاعة له فقال :

لقد استيقظ ضميرنا على معاملة هتلر لليهود ، لقد شعرنا في وضوح بالحاجة إلى

خلق وطن يستطيع أولئك المضطهدون اليهود ان يلجأوا اليه . أما الحقيقة التي اغفلناها فهي هذه : إننا اخترنا لهم منزل شخص آخر ان معذبي اليهود كانوا غربيين : الجرمان واللاسامية توجد في امريكا وفي بريطانيا ، كما توجد في كثير من البلدان الغربية ولكنها لم توجد في البلدان العربية قط . ان العرب ساميون أيضاً وهكذا فلكي ندفع دين ضميرنا نكره العرب – الذين لم ينزلوا باليهود أي أذى على تسديد الكمبيالة (٣٤) .

كما يقول في نفس الكتاب (ص ٢٩٦ – ٢٩٧) :

« وزادت الصحف الامريكية الوضع سوءاً بالانباء المبالغ فيها وبالاكثار من اطلاق تهمة « العداء للسامية » . ولكن الواقع ان مصر لم تكن لا سامية تجاه اليهود في أرضها . في حين كانت اسرائيل هي « اللاسامية » تجاه العرب . يدلك على ذلك ان روحاً يهودية واحدة لم تزهق في مصر . بينما قتل ٣٨٦ عربياً في حادثين رئيسيين وقعا في قطاع غزة . في خان يونس ورفح وقتل ٦٦ اخرون في حوادث أخرى ، كما صرع ٤٨ عربياً في قرية كفر قاسم الواقعة داخل اسرائيل نفسها (٣٥) .

والغريب العجيب ان يقف اليهود من العرب هذا الموقف العدائي الوحشي وهم الذين نعموا في ظل الدولة العربية الإسلامية بالسلام والرخاء . بينما يتعرضون في أوروبا لضروب الاضطهاد : لقد منحهم الإسلام الحرية واعتبرهم « أهل الكتاب » واتاح لهم الفرصة للوصول إلى المراتب العليا في الدولة وشجع وأكرم من نبغ منهم من الشعراء ، والفلاسفة ، والعلماء ، والأطباء ، والمؤرخين .. وفي هذا الوقت بالذات كانوا يعتبرون في أوروبا « قتلة الرب » و « جلادي المسيح » وكانوا متكتلين في جماعات مغلقة على ذاتها ، وبسبب هذه العزلة عانوا ألواناً من الزراية والاضطهاد وكثيراً ما أخذوا بجريرة آثار لم يرتكبوها(٣٦) .

ويبين الصحفي الاسرائيلي شموئيل سيجف في كتابه « المثلث الايراني » (ص ١٨٠) أحوال اليهود في بلد إسلامي مثل إيران .

من بين ٨٠ ألف يهودي كانوا يعيشون في إيران في عام ١٩٧٨ نسبة ١٠٪ بالمئة اثرياء جداً و ٨٠٪ بالمئة من الأثرياء العاديين أو من الطبقة المتوسطة و ١٠٪ بالمئة

فقط كانوا فقراء يحتاجون إلى مساعدة الجالية اليهودية . كما ظهر التحسن الذي طرأ على وضع اليهود في إيران في مجال التعليم ، حيث أصبح منهم الطلبة الجامعيون والبروفسورات والمحاضرون في الجامعات ، وكان أكثر من نصف أولاد اليهود يدرسون في مدارس عبرية [٣٧] .

وحتى قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م لم تسيطر الصهيونية على اليهود الشرقيين لانهم لم يعانوا من اللاسامية في البلدان التي اقاموا فيها[٣٨] .

ولكن انقلب بعد ذلك كل شيء ، بفضل مخططات الاستعمار الغربي الذي بدأ بالتعاون مع عملائه الصهاينة — بافتعال القتل والحرق والدمار ضد المواطنين اليهود في البلاد الإسلامية والعربية خاصة ، مما أدى وعن سابق تخطيط إلى تهجير مئات الآلوف من اليهود العرب إلى اسرائيل ليشاركوا في بناء الدولة الاسرائيلية التي ستكون قاعدة عسكرية للاستعمار الغربي ، والامبريالية الامريكية .

وهكذا نجد أنه ليس هناك من مبرر اطلاقاً ، للاعتداء على أي قطر من أقطار العالم الإسلامي ، (بسبب اضطهاد اليهود) ، أو (بسبب اللاسامية) ، أو (بسبب المسألة اليهودية) التي لم يكن قد وقع عليهم بسببها أي أذى في العالم الإسلامي .

فلم يكن هناك اضطهاد ، ولا مذابح ، بفضل سماحة الإسلام والمسلمين .

ولم يكن هناك لا سامية في العالم الإسلامي ، خاصة في العالم العربي لان العرب هم أساس العرق السامي .

ولم يكن هناك مشكلة يهودية في أي قطر عربي أو إسلامي لأنهم كانوا يعاملون أحسن معاملة يلقاها اخوانهم في الدين في أي بلد في العالم .

وكان من الأولى أن تحل مشكلتهم عند من أوجدوها . عند أولئك الذين أوقعوا فيهم المذابح والاضطهادات ، وعند الذين إخترعوا اللاسامية ومارسوها ، وعند أولئك الذين أوجدوا المشكلة اليهودية .

مراجـــع
اليهـود في ظـل الحكم الإسلامي

١- رفيق شاكر النتشـة — الإسلام وفلسطين ، محاضرة ص ٤٢ - ٤٣ ، فلسطين المحتلة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨١م .

٢- الجنرال جواد رفعت اتلخان — الإسلام وبنو إسرائيل ، ص ٦٠ - ٦١ ، ترجمة يوسف وليشاه ، الرياض ، ١٤٠٤هـ .

٣- السيـد سابـق — فقة السنة - المجلد الثاني ، ص ٦٦٢ ، دار الكاتب العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٩م .

٤- السيـد سابـق — المصدر السابق ، ص ٦٦٩ .

٥- السيـد سابـق — المصدر السابق ، ص ٦٦٨ .

٦- السيـد سابق — المصدر السابق ، ص ٦٠٣ - ٦٠٤ .

٧- السيـد سابق — المصدر السابق ، ص ٥٦٤ .

٨- السيـد سابق — المصدر السابق ، ص ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٢ .

٩- مجلة البحوث الإسلامية — العدد السابع ١٤٠٣هـ ، ص ٢٢ ، تصدر عن رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الامانة العامة لهيئة كبار العلماء باشراف سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ، الرياض .

المؤلف	المصدر
١٠- د. إسماعيل أحمد ياغي	موقف عرب فلسطين من الهجرة اليهودية الصهيونية (١٨٨٢ - ١٩١٤م) ، بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين) ص ١ .
١١- إبراهـام ليــون	المفهوم المادى للمسألة اليهودية ، ص ١٥٦ ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٠م .
١٢- إبراهـام ليــون	المصدر السابق ، ص ١٥٧ .
١٣- إبراهـام ليــون	المصدر السابق ، ص ١٦١ .
١٤- الفريد ليلينتـــال	هكذا يضيع الشرق الأوسط ، ص ٢٩٤ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٥٧م .
١٥- الفريد ليلينتـــال	المصدر السابق ، ص ٢٩٥ .
١٦- فيليب حتي ، د. ادوارد جرجي،	تاريخ العرب ، الجزء الثاني ، ص ٤٣٧ - ٤٣٨ ،
د . جبرائيل جبـــور	دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٦١م .
١٧- صبـــري جريـــس	تاريخ الصهيونية ، الجزء الأول ، ص ٦٠ ، م.ت.ف ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٨١م .
١٨- ج. هـ. جانســـن	الصهيونية وإسرائيل وآسيا ، ص ١٦ ، مركز الابحاث ، بيروت ، ١٩٧٢م .
١٩- ج. هـ. جانســـن	المصدر السابق ، ص ٢٣ .
٢٠- د . أميــل تومــا	جذور القضية الفلسطينية ، ص ١٢ ، مركز الابحاث ، بيروت ، ١٩٧٣ م .
٢١- د . إسماعيل أحمد ياغي	المصدر السابق ، ص ٢ .

٢٢- محمـــود اللبـــدي — المنطلقات الأساسية في الفكر الأعلامي الصهيوني ، ص ١٨ ، منشورات فلسطين المحتلة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٢م .

٢٣- د. إسماعيل أحمد ياغي — المصدر السابق ، ص ٢ .

٢٤- د. خيريـــة قاسميـــة — النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه (١٩٠٨ - ١٩١٨م) ، ص ١٩ ، م.ت.ف ، مركز الابحاث ، بيروت ، ١٩٧٣م .

٢٥- حسان علي الحـلاق — موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية (١٨٩٧ - ١٩٠٩م) ، ص ٨٣ ، الدار الجامعية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٠م .

٢٦- د. إسماعيل أحمد ياغي — المصدر السابق ، ص ٢ .

٢٧- د. إسماعيل أحمد ياغي — المصدر السابق ، ص ٣ .

٢٨- د. محمـــود السمـــرة — فلسطين الفكر والكلمة ، ص ١٠ ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، ١٩٧٤م .

٢٩- حســان علي الحـلاق — المصدر السابق ، ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

٣٠- د. خيريـــة قاسميـــة — المصدر السابق ، ص ٢٥ .

٣١- د. خيريـــة قاسميـــة — المصدر السابق ، ص ٢٤ .

٣٢- أميـــل الغـــوري — أغتيال فلسطين ، ص ٢٣ ، دار النيل للطباعة ، القاهرة ، الطبعة الاولى ، ١٩٥٥م .

٣٣- د. إسماعيل أحمد ياغي — المصدر السابق ، ص ٣ .

٣٤- الفريـــد ليلينتـــال — المصدر السابق ، ص ٣١٤ .

٣٥- الفريد ليلينتال المصدر السابق ، ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

٣٦- د . محمود السمرة المصدر السابق ، ص ٢٥٥ .

٣٧- شموئيل سيجف المثلث الإيراني ، ص ١٨٠ ، ترجمة غازي السعدي ، دار الجليل ، عمان ١٩٨٣م .

٣٨- ج. هـ. جانسن المصدر السابق ، ص ٤٣ .

الفصـــل الثانــي

الدولة العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر

١- دولة في مرحلة الانهيار .
٢- السلطان عبد الحميد يتصدى للدول الاستعمارية .
٣- انحطاط الدولـة العثمانيـة .
٤- محمد علي والي مصر يهدد الدولة العثمانية .

« لقد كان مستشار المانيا الأمير بسمارك يرى أن في تجزئة تركيا خدمة لمصالحه الخاصة » .

جون هسلب

مؤلف كتاب السلطان الأحمر

قصة حياة السلطان عبد الحميد

الدولة العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر

دولة في مرحلــة الانهيــار :

لمعرفة الظروف التي طرح فيها المشروع الصهيوني الاستعماري لا بد من معرفة الأوضاع السياسية والاقتصادية التي كانت تمر بها الدولة العثمانية – تلك الدولة التي كانت فلسطين احدى الأقاليم المهمة التابعة لها ، ولا بد لكل منصف ان يعترف ان العثمانيين قد حافظوا على عروبة فلسطين كبلد إسلامي يتبع الدولة الإسلامية العثمانية لمدة اربعمائة عام منذ احتلالها عام ١٥١٧م حتى سقوطها بيد الانجليز عام ١٩١٨م .

وبقيت الدولة العثمانية دولة قوية مهابة الجانب تتحدى الدول الاستعمارية الطامعة ، حتى قدر لها في نهاية القرن التاسع عشر ان ترزأ بسلاطين مستهترين ضعاف ، همهم الملذات ، والترف والمجون ، فانصرفوا عن متابعة شئون الحكم ، وأصبحوا اسرى قصورهم ووقعوا تحت تأثير محظياتهم من الحريم ، والمستشارين الفاسدين المرتشين ، مما أدى إلى ضعف الدولة وطمع الطامعين من الدول الاستعمارية بها . تلك الدول التي استغلت تلك الأوضاع الفاسدة ، وأخذت تتدخل في شئون الدولة الداخلية عن طريق قناصلها . واستطاعت تلك الدول الحصول على إمتيازات للتدخل في الأوضاع الداخلية للدولة العثمانية ، ففرضت العديد من الدول الاستعمارية وصايتها على الطوائف ، والأقليات ، واعتبرت نفسها حامية حمى تلك الأقليات ، وأخذت تحيك

المؤامرات لنخر جسم الدولة التي اوشكت على السقوط في نهاية القرن التاسع عشر ، والتي أصبحت تسمى بـ « الرجل المريض » الذي لم يكن يبقيه في آخر الأمر على قيد الحياة إلا صراع الدول الاستعمارية على اقتسام تركته ، وحرص كل منها على الاستيلاء على النصيب الأكبر من الأقاليم التي كانت تطمع في الاستيلاء عليها .

ولا نريد استعراض أحوال الدولة العثمانية بالتفصيل ، فليس ذلك موضوع الكتاب ، ولكن القاء صورة سريعة على حياة عدد من السلاطين المتأخرين يوضح لنا الواقع المفجع الذي كانت تعيش فيه الدولة العثمانية ، والتي لم ينفعها وصول السلطان عبد الحميد الثاني إلى الحكم ، لأن الاوان كان قد فات ، وكان المرض قد استشرى لدرجة ان الجهود الجبارة التي بذلها السلطان لانقاذ الدولة قد باءت بالفشل .

ففي عهد السلطان عبد العزيز (١٨٦١ — ١٨٧٦م) بدأت بوادر الانحلال تدب في جسد الدولة وبالرغم من الاصلاحات العظيمة التي قام بها فؤاد باشا وعلي باشا الصدرين الأعظمين ، والوزيرين المشهورين في التاريخ العثماني . ولكن وفاة هذين الرجلين في العام ١٨٧١م — وقد كانا رجلي دولة فعلاً — احدثت تغييراً كاملاً في سياسة تركيا الخارجية والداخلية . وبموتهما تحرر عبد العزيز من الوصاية عليه وأندفع وراء ملذاته بهوس جنوني .. وما عتم الأمر أن أخذ الهمس يدور بين أفراد حاشيته عما كان السفراء الأجانب وحدهم قد أعلنوه في رسائلهم الخاصة ، وهو « إن السلطان قد بدأ يفقد عقله ... » فكي يبعد الضجر عنه أخذ يلجأ إلى نوع من اللهو الغريب الشاذ .. فمن أدوات المائدة المكونة من الذهب الخالص والمرصعة بالحجارة الكريمة والتي قام بصنعها أحد أمهر الصاغة الباريسيين[١] .

وتكاثرت في أقاليم السلطان عبد العزيز الأوروبية الجمعيات السرية التي كان يديرها القناصل الروس وتمولها السفارة الروسية في القسطنطينية[٢] . وفي عام ١٨٧٥م ونتيجة للتبذير والاسراف الجنونيين اللذين درج عليهما السلطان ، أصبحت خزينة الدولة في حالة يرثى لها ، مما اضطر السلطان إلى أن يصارح دائنيه الأوروبيين بأن وضعه لا يسمح له بدفع ما يترتب عليه تجاههم وقد أثار هذا التصريح موجة من الاحتجاج في كل البلدان[٣] .

وحدث صباح يوم في (بالاتا) ان فوجيء عبد الحميد بسماعه أحد الصيارفة اليونان يروي بكثير من اللامبالاة كيف ان عبد العزيز باع حقوقه بالسيادة على مصر مقابل بعض المبالغ التي كفلها له صيارفة الخديوي الأرمن(٤) .

وأصبح الوضع الاقتصادي ، كالوضع السياسي الداخلي مصدر تذمر للمواطنين ، الذين بدأوا يطالبون بالاصلاح والحريات ، بل وأصبحوا يطالبون بدستور جديد للدولة على شاكلة الدساتير الأوروبية ولم تكن مثل هذه المطالب معروفة فيما بين الرعايا العثمانيين الأتراك ، بل الأصح أنها لم تكن تظهر كمطالب علنية .

وقد كتب سفير انجلترا السيد هنري ايليوت إلى حكومته عن هذا الأمر في ربيع عام ١٨٧٦م قائــلاً :

« ابتداء من الباشوات حتى الحمالين في الشوارع وربابنة الزوارق في البوسفور لم يعد أحد يخشى من إبداء رأيه . فكلمة – دستور – على كل شفة ولسان ، وإذا رفض السلطان ان يحقق شيئاً لشعبه ، فإن محاولة عزله تبدو أمراً محتوماً »(٥) .

ولم تكن الأحوال في الأقاليم بأحسن مما عليه في تركيا نفسها فبدأت الثورة في البوسنا ، وانفجرت المشاكل في صربيا والجبل الأسود ، وقامت مذابح بين المسلمين والأرمن وكل هذا كان يتيح للدول الأجنبية التدخل في شئون الدولة تحت مبررات مختلفة .

ففي صربيا ، والجبل الأسود ، هرعت جموع المتطوعين لمساندة ثائري « بوسنا » وفي سالونيك أدى انفجار التعصب الإسلامي إلى ذبح قنصلي فرنسا وألمانيا ، فبرزت في ربيع تلك السنة « قضية الشرق » أكثر من أي يوم مضى ، وأصبحت موضع اهتمام كل المحافل الأوروبية – فانبرى أباطرة النمسا وألمانيا وروسيا إلى الاحتجاج العلني على السلطان لأنه لم ينفذ الاصلاحات التي وعد بها منذ أمد طويل وحذروه بأنه إن لم يقم بتعهداته فسيجدون أنفسهم مضطرين للتدخل من أجل حماية رعاياهم المسيحيين(٦) .

ولم يكن الاصلاح الذي يطلبون سوى اصدار التشريعات التي تتيح لهم مزيداً من التدخل في شؤون الدولة الداخلية .

وخوفاً من اندلاع نار الثورة استدعى السلطان مدحت باشا إليه ، لكن هذا الأخير كان قد غادر العاصمة منذ ثمانية أيام اعتقاداً منه بأن أي عمل اصلاحي لن يتم طالما أن عبد العزيز متربع على العرش ، ولما وجد السلطان نفسه غير جدير بمجابهة الأزمة ، إنزوى في حرمه ليقضي الليالي والقسم الأكبر من النهار بين ذراعي شركسية في السابعة عشر من عمرها . فقد سلبت هذه الشركسية لبه وسيطرت على عقله الضعيف لدرجة جعلته يصرف عليها كما قيل ، ما يقارب المليون ليرة تركية لإرضاء نزواتها . ولما لم يعد هناك حل سوى اقالته ، قصد مدحت باشا ولي العهد الذي كان يعيش عملياً كأسير في « كوناكـة » خارج العاصمة[٧] .

وكان مدحت باشا مشكوكاً في حسن نيته ، وفي أنه كان يعمل للمصلحة العامة وليس لمصلحته الشخصية بل كان متهماً بأنه يعمل بالتعاون مع الدول الأجنبية الاستعمارية ، وبالرغم من المبررات القوية التي تستدعي إبعاد السلطان عبد العزيز ، والذي اتهم مدحت باشا بقتله بعد ذلك ، إلا أن ولي العهد الأمير مراد ، لم يكن احسن حالاً من عبد العزيز الذي كان مدمناً للشمبانيا ، والخمور مما جعله في حالة نفسية وعقلية لا تؤهله للقيام بأعباء الحكم .

وان الأمير مراد الذي قدمه مدحت باشا وحزبه إلى العالم تحت اسم « مراد المصلح والمثال لكل الفضائل » لم يكن فيه شيء من الشباب المملوء حمية والذي تبنى بحماس وتفهم أثناء سفره إلى أوروبا كل شعارات الديمقراطية ، فالحياة التي عاشها في خلوته قد أفسدت صحته ، لأن ما كان معتبراً عنده بمثابة ميل في النفس ، قد أصبح آفة متأصلة ، فإدمانه المفرط على شرب الشمبانيا ممزوجة بالكونياك قد جعله في اسوأ حال صحياً وأدبياً[٨] .

وسواء مات عبد العزيز انتحاراً أم قتلاً ، فإن موته جعل خلفه يشعر بالمصيبة تحدق به .. إذ أخذ هذا التعيس المضطرب العقل ، ينظر إلى نفسه كأنه هو قاتل عمه .. وأصبحت حالته مخيفة مرعبة ، مما حمل مدحت باشا بناءً لالحاح السلطانة الوالدة الجديدة على ان يستدعي له من فيينا اخصائياً معروفاً بالأمراض العصبية[٩] .

وكان عبد الحميد منذ عدة أشهر قد زاد اهتمامه بصحة أخيه مراد ، ذلك لأنه علم ان الأطباء حكموا بأنه مصاب بمرض عصبي وراثي قد تفاقم بسبب افراطه في تناول

المنبهات كما علم بأن كل صدمة وكل تأثير مفاجىء قد يعرضان للشؤم عقله المحتل التوازن . وظهور السلطان الجديد في ذلك الصباح أكد هذا الحدس أكثر فأكثر ، لأنه أثار الشفقة عليه عندما دخل إلى قاعة الاجتماعات في وزارة الحربية ، ليس مصحوباً بمدحت باشا ، بل مستنداً إليه .. فالأمير الذي أعلن عند تسلمه العرش عن بزوغ فجر جديد ، تقدم ليستقبل وزراءه بخطى مرتجة .. ومن شدة ارتعاشه بالكاد استطاع الامساك بسيفه !! وعندما أدى اليمين التقليدية ، كان صوته تقريباً غير مفهوم(١٠) .

وقد حدثت أحداث داخلية جعلت السلطان الجديد يفقد ما تبقى من عقله ، فعندما توفيت محظية عبد العزيز الشركسية بعد انتحاره (أو قتله) مشى وراء نعشها حتى مقبرة سكيتاري ، مع حشد ضخم من الناس ، ولم يكن موت هذه المحظية سوى بداية مآس متلاحقة ، فشقيقها الضابط التركسي الشاب الذي اشتهر بدقة تصويبه للمسدس ، تأثر لما لحقه من إهانة وصمم على الانتقام من وزير الحربية ، فبعد أن أصبح كالمجنون لكثرة ما استنشق من حشيشة الكيف ، تسلح بأربعة مسدسات ، أخفى اثنين منهما في جزمته واثنين تحت زناره وانقض على اجتماع لمجلس الوزراء ، وبطلقتين اثنتين قتل وزير الحربية ووزير الخارجية ولما حاول بقية الحضور انتزاع اسلحته ، صرع الواحد تلو الآخر . ولم يستطع السيطرة على أعصابه إلا بعد ان قتل سبعة أشخاص وجرح ثمانية(١١) .

وعندما شنق أمام جمع غفير ، بقي حتى آخر لحظة مالكاً زمام نفسه ، مؤكداً بأنه لا شريك له ، وأنه أراد فقط الانتقام من وزير الحربية ، لكن هذا العمل المنفرد الذي قام به شاب متعصب ، كان بمثابة رصاصة الرحمة للعهد الجديد ، لأنه على اثره فقد السلطان مراد كامل قواه العقلية ، فعندما وصل الدكتور ليدرسدروف من فيينا ، كان طبيب مراد الخاص ومدير مصح المجانين في القسطنطينية ، قد أعلنا بأن مرض السلطان غير قابل للشفاء ، ومع ذلك فالدكتور ليدرسدروف لم يشاطرهما الرأي ، إذ حكم بأنه مصاب بداء الغول المزمن الناتج أصلاً عن تناول الكحول ، وقد ازداد خطورة بسبب سلسلة من الصدمات المتلاحقة ، وان شفاء هذا المرض غير ميؤوس منه ، شرط ان تتوفر للسلطان الراحة التامة لمدة ثلاثة أشهر ، وان يبعدوا عنه

كل المؤثرات ، فزاد هذا التشخيص من حيرة الوزراء ، لأنه عملياً سوف يترك الامبراطورية العثمانية بدون سلطان ، وذلك في أدق مراحلها التاريخية[١٢] .

وفي هذه الأثناء التي تواجه فيها الدولة المشاكل الداخلية الخطيرة كانت ولايتا صربيا والجبل الأسود قد انضمتا إلى ثوار « بوسنا » لمهاجمة تركيا ، وفي بلغاريا احدثت دسائس العملاء الروس عصياناً شبيهاً بعصيان بوسنا ، فهاجم في شهر آيار المسلحون المسيحيون جيرانهم المحمديين (المسلمين) الودعاء ، فأغتصبوا النساء وأحرقوا القرى وذبحوا أكثر من مئة جندي وشرطي تركي ، قبل ان يتمكن السكان المسلمون — الذين عززوا بعصابات غير نظامية جندت على عجل — من الرد على المعتدين ، ولكن كان ردهم من العنف بحيث ان العالم ارتعد من هول مذابح بلغاريا[١٣] .

وهكذا نرى أن الدولة كانت تنهكها المشاكل الداخلية والثورات في الأقاليم والفساد يدب في أوصالها في الوقت الذي كانت تتطلع إلى افتراسها الدول الاستعمارية التي كان يحكمها شخصيات عرفت بتطلعاتها الاستعمارية واحقادها على الإسلام . فقد كان على رأس الحكومة الانجليزية يومذاك السير غلادستون زعيم حزب الأحرار المعروف بمناصرته للأمم الصغيرة وبعدائه المستحكم للإسلام[١٤] .

وفي هذه الأثناء ، التي كانت تتردى فيها الدولة العثمانية على الصعيد السياسي والاقتصادي ، والعسكري داخلياً وخارجياً تولى السلطان عبد الحميد الثاني مسؤولياته .

وفي الثلاثين من تشرين الأول عام ١٨٧٦م تليت في الديوان الملكي الفتوى المعلنة أنه وفقاً للنصوص الشرعية يعتبر السلطان المصاب بإختلال عقلي غير جدير بأن يحكم ، وبناء على ذلك خلع مراد رسمياً لمصلحة شقيقه عبد الحميد الذي خلفه على العرش وأصبح السلطان العثماني الرابع والثلاثين[١٥] .

السلطان عبد الحميد يتصدى للدول الاستعمارية :

لقد قُدم السلطان عبد الحميد للعالم ، من قبل أجهزة الاعلام الأوروبي على أنه

ذلك السلطان ، الأحمر ، الدكتاتور ، الظالم ، الجاهل ، مصاص الدماء ، عنوان الجهل والتخلف ، وحُمل ظلماً مسؤولية تدمير الدولة العثمانية .

وأنا لست هنا بمعرض الدفاع عن السلطان عبد الحميد الثاني ، ولكن انصافاً لهذا الرجل لا بد أن نذكر الحقيقة التي تبرئه من كثير مما ألصق به ، ومن حقه علينا نحن العرب عامة والفلسطينيين خاصة ، أن نذكر له موقفه المشرف والرائع من الحركة الصهيونية ، الذي رفض أن يرضخ للدول الاستعمارية بمنحها أي شبر من أرض فلسطين مقابل كل الاغراءات المالية والسياسية ، والذي فقد عرشه بسبب فلسطين .

وأنا هنا أستعرض ما كتبه عنه جون هاسلب في كتابه « السلطان الأحمر – عبد الحميد » :

« لقد استُقبل مجيء السلطان عبد الحميد باحترام بالغ من الدول الكبرى ، لجديته ، وعدم انغماسه بالترف والملذات وتمضيته أكثر أوقاته في رفع شأن الدولة والقيام بالاصلاحات الأساسية ، على الصعيد الاقتصادي والعسكري » .

وبالرغم من ذلك الاحترام الذي أظهرته الدول إلا أنها بدأت تخاف منه باعتباره كان يسعى إلى معالجة (الرجل المريض) وشفائه ومن ثم تقويته واعادته إلى سابق قوته وسطوته ، مما جعل تلك الدول الاستعمارية تتربص به وتحيك له المؤامرات للتخلص منه .

فبعد مرور سنتين على اعتلاء عبد الحميد العرش ، كتب رئيس الوزارة البريطانية يومذاك إلى اللورد ساليسبوري يقول :

« إن السلطان ليس له سوى زوجة واحدة ، فهل سيكون كسليمان القانوني »[١٦] .

كان عبد الحميد يتابع أخبار الامبراطورية وهو منزو في قصره قبل أن يستلم مسؤولياته . وعرف عبد الحميد أيضاً بأن في إمبراطورية عمه لا يوجد أي وزير لديه محاسبة قانونية تتعلق بوزارته !.. كما أنه ليس هناك مساحة وسجلات عقارية ، واصلاحات عام ١٨٣٩م ، وعام ١٨٥٦م قد أهملت باستخفاف واحتقار ، والطريقة

المنكرة في جباية الضرائب بقيت هي اياها تمارس في الولايات والأقاليم ، وفوق ذلك لم يعد عبد الحميد يسمع بسوى الرشوة والفساد المستشريين ، وكان هذا كافياً رغم حقده على الأجانب - هذا الحقد المغذى بعناية بواسطة المشايخ ورجال الدين - ليدرك بأنه فقط بالتقرب من الاوروبيين يستطيع ان يفهم كيف يجب ان يحكم إمبراطوريته، وأن يستفيد ليس فقط من خبراتهم وعلمهم ، بل أيضاً من ضعفهم(١٧) .

وفي قصر دولمابتشي حيث الفخفخة والبذخ المترع يلهبان الحماس ويقتلان الروح انكب عبد الحميد على العمل بحيوية فائقة جعلت الوزراء في ذعر شديد .. إذ كان يصر على معرفة كل ما يجري في الأطراف الأكثر بعداً من إمبراطوريته ، كما كان يقرأ كل التقارير التي يبعث بها حكام الولايات ، حتى أنه كان يناقش في كل نزاع قبلي يقع في كردستان وفي كل رخصة استثمار تعطي في الأناضول . وكان يهب إلى مكتبه في ساعات الفجر الأولى ويستمر في العمل حتى ساعة متأخرة من الليل ، ولا يدع موضوعاً مهما كان ضئيل الشأن إلا ويعيره اهتمامه . وخلال الأشهر الأولى من حكمه لم يرفض عبد الحميد مقابلة أي شخص التمس مقابلته مهما كان وضيعاً ، لأنه أخذ على عاتقه التصدي لمشاكل الحكم منفرداً(١٨)

وبسبب المذابح التي حصلت في البوسنا والجبل الأسود ، وتعبيراً عن الأحقاد الاستعمارية ، وخاصة من غلادستون أشهر رجل استعماري في عصره ، بدأت الحملات ضد السلطان عبد الحميد وضد تركيا ، وضد الشعب التركي .

فالكتيب الذي بموجبه شَهَّرَ غلادستون بفظاعة الشعب التركي بأجمعه واعتبره « النموذج اللاإنساني الأكبر للانسانية وطلب من العالم المتمدن طرحه مع أسلحته وأمتعته خارج أوروبا ، صدر يوم تنصيب عبد الحميد بالذات ، وعلى اثره قامت بأسم المسيحية المهانة حملة سياسية عنيفة ضد حكومة المحافظين سار خلالها تحت لواء المستر غلادستون ، أساقفة وأقران لهم من محبي البشر ، وصحافيون وأصحاب رسالات(١٩) . ولم يكن الهدف من هذه الحملة سوى توجيه الرأي العام ضد الدولة العثمانية ، التي كانت محط اطماع الدول الاستعمارية .

وبعد ان انقسمت الوزارة البريطانية على نفسها ، قبل ديزرائيلي بأن يعقد اجتماع في القسطنطينية تحضره الدول الكبرى ، ويتقرر خلاله اجبار تركيا على القبول بالشروط

التي تحددها أوروبا لإعادة السلم إلى ربوع الأقاليم الثائرة وانهاء حالة الحرب فيها[٢٠] لا رغبة في السلم وإنما محاولة لزعزعة الاستقرار في أقاليم الدولة العثمانية والاستيلاء عليها .

غير أن عبد الحميد تملص من معاقبة المسؤولين المباشرين عن الجرائم المرتكبة بحجة ان هناك جوامع قد انتهكت حرماتها ، وان نساءً تركيات قد اغتصبن من قبل المتمردين ، وشريعة القرآن تقضي بانزال أقصى العقوبات بحق مرتكبي المنكر ، وإذا كان باستطاعته عزل هؤلاء المسؤولين أو ارسالهم إلى الأقاليم النائية ، فهو بصفته خليفة للمسلمين ، قد ادعى عدم تمكنه من سفك دماء رجال قاموا بما قاموا به دفاعاً عن ديانتهم[٢١] .

لقد اعتادت الدول الاستعمارية ان تحقق مكاسب سياسية متتالية نتيجة ضغوطها على السلاطين والحكومات التي سبقت عبد الحميد ، وكانت تلك الدول الاستعمارية تستغل ديونها للدولة العثمانية ، وتستغل المذابح التي تقع بين المسلمين والأرمن وغيرهم في أقاليم الدولة فتقوم بضغوط متواصلة ، وتعقد المؤتمرات التي ترمي من خلالها الحصول على مزيد من المكاسب السياسية والاقتصادية ، وتزيد من تدخلها بشؤون الدولة العثمانية .

وفطن عبد الحميد إلى كل تلك الدسائس والمؤامرات فأخذ يخطط للتخلص منها ، وكانت اساليبه تتسم بالذكاء والمكر والدهاء ، لسببين اساسيين أولهما ضعف الجهاز الحكومي وعدم اخلاص موظفيه للدولة وله شخصياً ، وثانيهما ضعف الدولة العثمانية وعدم تمكنها من مواجهة تلك الدول القوية .

ففي صباح الثالث والعشرين من كانون الأول عام ١٨٧٦م اجتمع ممثلوا الدول العظمى في قاعة الأميرالية لتقرير مصير تركيا بحضور مندوبين عنها هذه المرة ولقد كان الطقس بارداً ورطباً والنور الأشهب المنسل عبر النوافذ ، أبرز أكثر فأكثر التعبير عن الريبة والتكتم في وجوه الدبلوماسيين . ففي تلك الساعة كان تفكيرهم قد انصرف عن المؤتمر إلى ما سوف يحدث بعد المؤتمر ، لأنه بالرغم من الزعم بأن مقرراتهم قد أتخذت بالاجماع ، فكل موفد كان يدس على الآخر لمصلحة بلاده ، والجو المهيمن على القاعة كان جواً عدائياً .

وما كادت الشكليات الأولية لاعلان المقررات تنتهي حتى سمع دوي مئة طلقة مدفع وطلقة مصدرها الضفة الثانية من القرن الذهبي ، فهل قامت ثورة الأتراك كرد على تمادي الأوروبيين في فرض المطالب عليهم ؟ بعد هذا التساؤل اتجهت جميع الأنظار بصورة عفوية نحو المندوبين الأتراك فنهض وزير الخارجية التركية صفوت باشا بوجهه المصفر من شدة التأثر وصرح قائلاً :

« أيها السادة ، ان طلقات المدافع التي تسمعونها والتي مصدرها برج وزارة الحربية تنبيء باعلان صاحب الجلالة السلطان دستوراً جديداً يضمن المساواة بالحقوق والحريات لجميع رعاياه . وبعد هذا الحدث العظيم ، أعتقد بأن اعمالنا لم تعد ذات جدوى »[٢٢] .

وهكذا استطاع أن يجهض ذلك المؤتمر تحت شعار مطلب أوروبي يهم الدول الاستعمارية بمقدار ما كان مطلب شعبي يهم دعاة الاصلاح داخل الدولة العثمانية .

وقد اتسمت سياسة عبد الحميد بالتصلب أمام الدول الاستعمارية كلما استطاع ذلك ، ففي الاجتماعات التي كانت تبحث موضوع المذابح في بلغاريا اتحد الأتراك موقف التصلب والمكابرة . فعندما تعرض مندوب فرنسا بالتلميح إلى مذابح بلغاريا ، لم يترددوا هم في تذكيره بمذبحة « سان بارتلمي » الشهيرة التي ذبح فيها الكاثوليك الفرنسيون مواطنيهم البروتستانت بناء لأوامر شارل التاسع وبتحريض من الملكة كاترين دي مدسيس[٢٣] .

وبلهجة مهذبة لكنها جازمة ، قال الأتراك « لا » لأوروبا ، وبعد شهر من المناقشات العقيمة ، حزم المفاوضون المطلقوا الصلاحية حقائبهم وعادوا إلى بلدانهم .

لقد سافر الضيوف غير مزودين بالهدايا التقليدية ، ولا زينت صدورهم بالأوسمة المرصعة بالألماس كما جرت العادة . وعندما طلب اللورد سالسبيري مقابلة السلطان قبل سفره اعتذر جلالته بحجة شعوره بألم حاد في أسنانه[٢٤] ، وحتى لا يترك مجالاً للاتهامات المعهودة من أنه ضد الأقليات والطوائف ، تصرف عبد الحميد تصرف الممثل البارع في هذا الأمر عندما رأوه يعين أرمنياً نائباً للمجلس النيابي ، ويختار ضابطين اسرائيليين كمرافقين له[٢٥] ويقول السلطان عبد الحميد في كتابه :

«مذكراتي السياسية ، ص ٢٧ » «ولا أكون مبالغاً إذا قلت ان ثلث الموظفين هم من الارمن »[٢٦] وكان الارمن قد تقلدوا في جميع العهود أعلى المناصب الوظيفية في الدولة بما فيها منصب الوزير الأعظم ، وظل عبد الحميد يتصرف بشجاعة لمنع تدخل الدول الاستعمارية في شؤون دولته الداخلية .

ويبدو ان بناء يلدز قد أفعم قلبه بشجاعة جديدة انعكست على سياسته الخارجية لأنه عندما قامت الدول الغربية في شهر آذار من العام ١٨٧٧م بمحاولة أخيرة لحفظ السلام بقي عبد الحميد مصراً بعناد على رفض أي نوع من التفاهم . وفي انجلترا لم تتمكن وسائل الاقناع المغرية التي استعملها الجنرال اينياتيف من الحصول على شيء هام سوى التوقيع على وثيقة مبهمة عرفت « بأسم بروتوكول لندن » تنص على ان الدول العظمى مع ارتياحها للسلام الذي تم الاتفاق عليه بين تركيا وصربيا ، تعلن بأنها ستراقب بإهتمام الطريقة التي بموجبها ستضع الحكومة العثمانية موضع التنفيذ الاصلاحات التي وعدت بها ، وهي تحتفظ لنفسها بالحق في اتخاذ التدابير الكفيلة بتحقيق السلام العام في الشرق ، إذا رأت أن أحوال الشعوب المسيحية لم تتحسن .

ومع أن انجلترا قامت بمجهود كبير لحمل السلطان على اعتبار البروتوكول عرضاً ودياً من الحكمة ان لا يرفضه ، فقد رفض عبد الحميد الاعتراف لأوروبا بحق التدخل في شؤون امبراطوريته الداخلية[٢٧] .

وبدافع الخوف من الخطر استشاطت الملكة فكتوريا غضباً من البرودة التي قابل بها معظم وزرائها التنبيهات التي جاءت في تقارير سفرائها ، وفي تموز من العام ١٨٧٧م ، كتبت إلى اللورد بيكونسفيلد طلبت إليه بالحاح أن يصدر نداء إلى انصاره ، ان في مجلس العموم وان في مجلس اللوردات ، يبين لهم فيه كيف ان مصالح بريطانيا العظمى باتت على كف عفريت بسبب لا مبالاتهم ، وان هذه الحرب القاسية الشرسة ، ما استعر أوارها من أجل الدفاع عن المسيحيين (الذين هم قساة القلوب كالأتراك) بل من أجل هدف آخر هو الفتح . ولكن اللورد بيكونسفيلد الذي كان فيما يتعلق به شخصياً مستعداً كل الاستعداد لتنفيذ أوامر ملكته المحبوبة ، اضطر إلى مصارحتها باحترام ، بأنه لا يوجد بين أعضاء حكومة جلالتها ثلاثة أشخاص مستعدين للدخول في حرب ضد روسيا[٢٨] .

ولم يكن السلطان عبد الحميد يواجه قوة واحدة ، بل كانت جميع القوى الأوروبية ، وروسيا القيصرية ، تطمع في الاستيلاء على دولته ، ولم يكن يستطيع ردها إلا بصلابة بعض وحدات جيشه أحياناً ، وبصراع الدول بعضها مع بعض وتنافسها على اقتسام التركة أحياناً أخرى .

فعندما كان الروس يتقدمون في بلغاريا ، بدأت القوات الزاحفة في البلقان تشن هجماتها ، بينما القطعات الخفيفة أخذت تنتشر ألويتها في سهول « تراس » .

لكن برقية لايارد لم تكن بعد قد وصلت إلى وزارة الخارجية البريطانية عندما وقع حادث غير مجرى الحرب كلها ففي « بلافنا » المدينة الاستراتيجية الهامة والواقعة إلى يمين القوات الروسية المتقدمة في بلغاريا ، كبد الجنرال التركي عثمان باشا العدو خسائر فادحة ، مما اضطر الروس عوضاً ان يشنوا هجوماً على المدينة ويحتلوها ، ان يحاصروها فقط وبعد حصار دام خمسة أشهر تمكنت الحامية التركية الصغيرة التي كانت تدافع عن المدينة من صد مئة ألف جندي روسي وروماني .

وانتقل النبأ كالبرق الخاطف إلى العواصم الأوروبية ، ملقياً ضوءاً جديداً على المسألة الشرقية . فهل كان « الرجل المريض » قابلاً للشفاء ؟؟(٢٩) .

ولكن تآمر الدول الاستعمارية ومكائدها كان للسلطان بالمرصاد ، فما لبثت ان تصدت له المانيا فقضت على آماله بتقوية الامبراطورية ، إذ أن دسائس ومكائد الأمير بسمارك الذي كان يرى في تجزئة تركيا خدمة لمصالحه الخاصة ، وكان الهدف من عمله خلق احتكاك دائم بين الدولتين القويتين المجاورتين لألمانيا وهما النمسا وروسيا(٣٠) .

وبالرغم من نظرة الدول الاستعمارية الحاقدة على السلطان عبد الحميد إلا أنه كان ينظر إليه كرجل شريف .

وفعلاً كانت مسألة الشرق قد سويت حول طاولات مؤتمر برلين ، وأوروبا وبالأخص انجلترا غدت تنظر إلى عبد الحميد على أنه ديكتاتور مستحب ، لأنه حسب تعبير اللورد بيكونسفيلد « لم يكن فاسقاً ، ولا ظالماً ، ولا قابلاً للرشوة ... »(٣١) وكانت

المحافظة على « اتفاق الدول الأوروبية » احدى قواعد السياسة البريطانية ، وباستثناء المانيا ، فإن كل الدول الكبيرة قد استفادت وان على تفاوت ، ففرنسا اطلقت تلميحاتها باحتلال تونس في المستقبل ، وإيطاليا أخذت تتكلم بغموض على طرابلس الغرب ، بينما الدول الصغيرة كاليونان ، وصربيا والجبل الأسود لم يكفها الاعتراف باستقلالها ، بل أخذت تحلم بتوسيع حدودها على حساب الامبراطورية العثمانية . وتشبهاً بالدول ، سعت الشعوب أيضاً كي يكون لها كلمتها المسموعة في برلين . فقد جاء وفد غير فطين من رعايا السلطان الأرمن وقدم شكاواه ومطالبه إلى المؤتمر .

وكان عبد الحميد كمثل اسلافه المتتابعين ، قد أظهر عدلاً وتسامحاً تجاه الأرمن الذين نسوا بأن بعضهم قد اقتيد كخائن أثناء حرب كريمة ، وان الكثيرين منهم يحتلون مراكز هامة في الباب العالي وفي القصر السلطاني .

انه في بدء عهد عبد الحميد ، كان الأرمن يتمتعون بنعمة النظر اليهم على أنهم ابناء الأمة الصديقة .

وأبناء « الأمة الصديقة » هذه بتشجيع من العملاء الروس والمرسلين الأمريكان أخذوا يطالبون باستقلالهم وحضروا إلى برلين كشعب مضهد ومظلوم ورجال الدولة الأوروبيون ، وبالأخص اللورد سالسبيري المتشرب بالأفكار الانسانية ، أعاروهم آذاناً صاغية والشرط الذي أدرجه الروس في معاهدة سان استيفانو ، والقاضي « بمنح الدول العظمى حق الأشراف على الاصلاحات التي وعد الباب العالي بتحقيقها في الولايات التي يقطنها الأرمن » صادق مؤتمر برلين على شرعيته بحماس . فأثار هذا الشرط بنوع خاص حفيظة عبد الحميد وجعل غضبه لا يعرف الحدود ، خصوصاً عندما طالب الانجليز بحق تسمية قناصل عسكريين للسهر على تطبيق هذه الاصلاحات كي تعطي النتيجة المرجوة(٣٢) .

ولكن أنّا لهذا السلطان ان يتمكن من المحافظة على دولته التي كانت محط أنظار ثلاثمائة مليون مسلم في العالم والذي كان يحمل طموحاً بالمحافظة عليها وتقويتها ، بإمكانيات لا تسمح له بتحقيق أحلامه ، بسبب وراثته لأوضاع فاسدة ،

ومتخلفة ومنهارة ، وبسبب ما كان يحيط به من دول استعمارية قوية تتطلع إلى دولته تطلع الذئاب إلى الفريسة . وخلف مظاهر الضعف فيه ووراء عينيه القاتمتين الحزينتين ، كانت هناك إرادة حديدية ضاربة مستعدة للدفاع عن امبراطوريته المنهارة ضد الطغيان الأجنبي . لقد عرف لاياردر السلطان في مئة من الأمزجة يمثل مشهداً من حقيقة طبيعته .. لكن ما كان متسلطاً فيه ، هو الإرادة بأن يبقى ليس سلطان تركيا ، بل أيضاً خليفة المسلمين ، وأي ضغط أجنبي ، لن يستطيع ارغامه على منح أي أمتياز أو القيام بأي أصلاح يتنافى مع تعاليم القرآن والشريعة ، ويعرضه بالتالي لنقمة ثلاثمائة مليون مسلم كان يعتبرهم رعاياه الروحيين(٣٣) .

ولم يكن يطيل في عمر الدولة بالرغم من ضعفها إلا مصالح الدول الاستعمارية المتناقضة ، وكان أكثر المهتمين ببقاء الحال كما هو عليه في الدولة العثمانية هي بريطانيا . فمهما كانت مشاعر المستر غلادستون الشخصية تجاه تركيا ، تبقى سياسة بريطانيا العظمى الخارجية قائمة على مبدأ استمرار الإمبراطورية العثمانية(٣٤) .

وبالرغم من هذا كان عبد الحميد يكن عداءاً شديداً لبريطانيا بسبب المسألة المصرية مما جعله يرفض حتى استقبال مبعوث اللورد سالسبيري الخاص الذي جاء ليبحث معه شروط احتلال الانجليز لمصر ومدة هذا الاحتلال . فهو بعد ان كاد المكائد بالتناوب مع فرنسا ومع الحديوي وحتى مع مهدي السودان ، وبعد أن انفق المبالغ الطائلة على تمويل الصحف الوطنية في القاهرة ، فهم بأن البريطانيين ليست لديهم أية نية للانسحاب من مصر(٣٥) .

وبدافع حقده على ما جرى في مصر ، كان عبد الحميد يظهر عداءه وحذره في كل مرة تطرح فيها المسألة الأرمنية على بساط البحث . وكان يلوم أوروبا لرعايتها عداوة الأرمن المسالمين في مألوف العادة ، ضد جيرانهم الاكراد . كما كان يحمل على المذاهب الغربية الهدامة التي باسم الحرية حملت التجار الأرمن الأغنياء في أوروبا والولايات المتحدة على ان يمولوا قضية اخوانهم في الدين المقيمين في كيليكيا وكردستان(٣٦) .

وكان الانجليز دائمي التدخل في الاضطرابات الداخلية التي كانت تحدث في الدولة العثمانية خاصة في بلغاريا .

فبينما كانوا يسعون حثيثاً في لندن لابعاد العلنية عن التدخل في الاضطرابات التي انفجرت في الجبال الأرمنية ، كان نشاط العملاء الانجليز في شمالي آسيا الصغرى لا يرقى إليه شك[٣٧]

وكانوا يستغلون أتفه الأسباب للقيام بحملات مكثفة تدين الرأي العام لإثارته ضد السلطان وضد الدولة العثمانية ، كما حدث عندما ثارت في العام ١٨٩٣م ثائرة الرأي العام في بريطانيا العظمى والولايات المتحدة بسبب الدعوى الشهيرة التي أقيمت ضد استاذين أرمنيين تابعين لمعهد تبشيري أمريكي . فقد اتهم هذان الاستاذان بطبع مناشير تدعو للفتنة والشغب ، واقتيدا مغلولي الأيدي إلى محكمة أنقرة فحكمت عليهم بالشنق حتى الموت . ولكن ما كاد قرار المحكمة يصدر وتعرف مضامينة حتى قامت المهرجانات والتظاهرات الاستنكارية في سائر أنحاء العالم الانجلو — ساكسوني[٣٨] .

وكانت أرمينيا مصدر اغتياظ وتأثر دائمين بالنسبة للسلطان ، لأنه استمر يعامل سكانها معاملة انسانية عادلة ، حتى اليوم الذي أخذوا فيه بتحريض من العملاء الروس وبتشجيع من التعاليم الديمقراطية للمرسلين الأمريكيين يطالبون بحقهم في الاستقلال . فالقناصل الروس في أرمينيا التركية الذين كانوا يشجعون ويمولون المنظمات السرية الأرمنية . وبعد أن وجد الأرمن انفسهم محرومين من المساعدات الروسية ، اتجهوا بأبصارهم نحو الدول الأوروبية الأخرى ، وبالأخص نحو انجلترا حيث لاقوا كل عطف وتأييد من قبل المستر غلادستون واللورد ساليسبيري ، وذلك بصفة كونهم أحد الأعراق المسيحية الأكثر قدماً والأكثر اضطهاداً . فرنسا وحدها التي كانت تعتبر نفسها كحامية للأرمن الكاثوليك[٣٩]

وكانت الدول الاستعمارية تستغل الارساليات التبشيرية وتتستر تحت ستار الدين في إثارة الطوائف واستغلالها وتوجيهها لخدمة سياساتها الاستعمارية .

وكان عبد الحميد ينظر باستمرار نظرة الريبة والحذر إلى هؤلاء المرسلين البروتستانت . فمعظم الصعوبات والمشاكل التي اعترضت سبيله في بلغاريا ، كان مصدرها غير المباشر معهد « روبيرت » على البوسفور ، هذا المعهد الذي كان يرأسه تلميذ هؤلاء المرسلين المفضل « ستامبولوف » ذلك الداعية القومي(٤٠) .

وكانت أهم المشاكل التي تواجه السلطان عبد الحميد في الأقاليم هي المشكلة الأرمنية .

ان حركة التمرد الأرمنية جاءت نتيجة الدعاية الثورية ، والسلطان يحمل المسؤولية في كل ما جرى وما آلت اليه المسألة ، ليس لأوروبا وحدها ، بل أيضاً لأمريكا ، وبالأخص للمرسلين الأمريكيين الذين سبق لجده السلطان محمود — وقد كان كريم الأخلاق — أن سمح لهم بفتح المدارس والمعاهد في عدة أقاليم من امبراطوريته(٤١) .

وهكذا واجه عبد الحميد المؤامرات من الداخل ، ومن الخارج وحيداً إلا من عدد قليل من المخلصين ، وكان محاطاً بعدد كبير من المتآمرين الذين يرتبطون بالدول الكبرى ، كما كانت الدول الاستعمارية له بالمرصاد لئلا ينجح في انقاذ الدولة المنهارة التي عمل جاهداً لنهضتها ، فهو الذي زاد عدد المدارس في عهده إلى عشرة أضعاف ، ووضع سياسة تعليم حديثة للمدارس الابتدائية والثانوية ، ووسع التعليم الزراعي والمهني وبدأ يقوي الجيش بالتعاون مع ضباط المان ، ومنع التبذير في مصروفات الدولة بعد ان بدأ بنفسه ، ولكن كل هذا لم يكن بقادر على منع النهاية الحتمية للدولة في طريقها إلى الانهيار .

وكانت الامبراطورية العثمانية قد بدأت منذ عشر سنوات تستعيد عافيتها شيئاً فشيئاً بعد الجراح التي أدمتها من جراء الحرب . فلاجئوا بوسنا وسيركاسيا قد استقروا في سوريا وفلسطين . وانشيء عدد من المدارس والمستشفيات في القسطنطينية وفي الأرياف النائية وأوجد المعاهد المهنية والإدارية كي تعد الأجيال الجديدة للوظائف العامة . وانشئت أول مدرسة طبية عثمانية انشأها عبد الحميد وجهزها بأمواله الخاصة(٤٢) .

لقد كان طموح عبد الحميد طوال حياته ، يهدف إلى تحرير بلاده من الامتيازات الأجنبية . وحقوق هذه الامتيازات التي كانت تتمتع بها الدول الغربية الكبرى[٤٣] .

ولكن تلك الدول حاولت قتله أكثر من مرة قبل نجاحها في تنظيم ودعم ثورة ١٩٠٨م .

وقد أدهشت شجاعته الموظفين القائمين على خدمته ، عندما حاول ضابط شاب ان يطعنه بخنجره يوم كان خارجاً من « التياترو » الخاص في يلدز . وفي السنة التالية ، أي في العام ١٩٠٥م ، جرت محاولة جديدة لقتله بواسطة سيارة محملة بالديناميت الذي انفجر أمام جامع الحميدية بينما كان السلطان يصلي[٤٤] .

وعندما نجحت ثورة الشبان الأتراك ، وتولوا مقاليد الأمور ، وانكشفوا على حقيقتهم أمام الشعب التركي ، قام عدد من الجنود بمحاولة الاطاحة بهم لمصلحة السلطان ، وقد رفض السلطان القيام بمحاولة العودة إلى الحكم من خلال التورة المضادة إما لانه لم يكن يثق بنجاحها أو لأنه كان كما قال لعزت – الذي عرض عليه الأمر – بصوت يكاد لا يسمع من فرط الإعياء والتأثر :

« لقد أصبحت شيخاً هرماً يا عزت .. ولكن طالما انا على قيد الحياة ، لا أقبل اطلاقاً بأن يقال عني ، أني كنت السبب في حرب أهلية . أما أنت يا عزت ، فإنك ما زلت شاباً ، والعالم مفتوح أمامك »[٤٥] .

انحطـاط الدولـة العثمانيــة :

شأن كل الدول الكبيرة المترامية الأطراف ، والامبراطوريات الواسعة ، بدأت مظاهر الضعف والوهن تسري في جسم الدولة العثمانية التي تتألف من عدد كبير من القوميات ، والطوائف ، في بلاد واسعة في أرجاء آسيا وأوروبا وأفريقيا .

وعندما قويت الدول الاوروبية ، وأخذت تتطلع إلى التوسع خارج حدودها ، كانت الدولة العثمانية أولى أهدافها ومجالاً للتوسع الاستعماري ، ولرغبة وطمع تلك الدول الاوروبية في السيطرة على أقاليم غنية ، ومواقع استراتيجية تؤمن لتلك الدول مصالح

سياسية وعسكرية واقتصادية واستراتيجية . من أهم تلك الدول التي كانت تتنافس على اقتسام الإمبراطورية العثمانية (بريطانيا ، وفرنسا وألمانيا وروسيا وإيطاليا) وغيرها من الدول .

وقد ظهرت في القرن الثامن عشر دعوات متعددت لاقتسام مقاطعات الدولة العثمانية بين الدول الأوروبية فصدر في باريس كتيبان ينطويان على اجترار لبعض الآراء التي ظهرت في القرن الثامن عشر حول انحطاط الإمبراطورية العثمانية وضرورة توزيع مقاطعاتها على الأمم الأوروبية التجارية ، الكتيب الأول عبارة عن منشور مقفل بتوقيع ج . ج صدر سنة ١٨٢١م بعنوان : « آراء حول أزمة الامبراطورية العثمانية الراهنة » . ويدعو المؤلف من جديد في هذا الكتاب إلى طرد الأتراك من أوروبا وتوزيع بعض المواقع الاستراتيجية في البحر الأبيض المتوسط على الدول الاستعمارية ، وتبعاً لذلك ينبغي على فرنسا ان تطالب بجزيرتي قبرص وكريت ، أما الكتيب الثاني فمنسوب إلى مؤلف يدعى ب . أ . دوفو (١٧٩٥ – ١٨٧٧م) . ان ما يقترحه هذا الكتيب الذي يحمل عنوان « حول تقسيم تركيا الأوروبية بين روسيا وانجلترا واليونان بواسطة فرنسا » كان بشكل خاص خلق « إمبراطورية يونانية » على انقاض السيطرة العثمانية[٤٦] .

وفي مطلع القرن التاسع عشر بدأت تطلعات الدول الأوروبية للتدخل في الإمبراطورية العثمانية تحت شعارات ، ومبررات مختلفة ، منها ما هو سياسي ، ومنها ما هو ديني ومنها ما هو انساني تحت شعار الاصلاح الداخلي ، ونشر الحرية والعدالة والتقدم والمحافظة على الأمن في الشرق ، وقد كان كل ذلك يتم بإسم المسألة الشرقية أو اقتسام تركة الرجل المريض .

وكانت الدول الأوروبية تقف بالاجماع ضد الدولة العثمانية من حيث المبدأ إلا أن تضارب مصالحها والطمع في الحصول على أكبر حصة من إرث الرجل المريض ، كانت تضطرها للمحافظة على الدولة العثمانية حتى يتم الاتفاق على اقتسامها وحتى يمنع بعضها البعض الآخر من الاستئثار بحصة أكبر مما ينبغي .

وبدأت الدول الاوروبية بالتنسيق فيما بينها تجاه المشاكل الناشه في الدولة العثمانية فكان التقارب الانجليزي – الروسي الذي انضمت اليه فرنسا بعد فترة قصيرة هو الذي

يوجه الدبلوماسية الاوروبية نحو حل المسألة اليونانية ، فبعد مفاوضات دقيقة تم التوقيع على بروتوكول سان بطرسبرغ في ١٢ آذار ١٨٢٥م . وقد قبل الموقعون على هذا البروتوكول مبدأ التدخل الاوروبي في الإمبراطورية العثمانية من أجل وضع حد « للحوادث » التي كانت تثير الاضطراب في المشرق [٤٧] .

وفي عام ١٨٢٧م وقعت الدول الاوروبية (ما عدا النمسا) معاهدة لندن التي كان الهدف منها حل الأزمة التركية اليونانية ولو بالقوة إذا ما دعت الحاجة [٤٨]

وحذرت الدول الأوروبية القوات العثمانية لوقف قمع انتفاضة الثورة ، التي قام والي مصر محمد على بدور فعال فيها ، ولكن السلطان رفض طلب الدول الاوروبية التي كان اسطولها المحتشد قرب (نافاران) يحاصر السفن التركية والمصرية في هذا المرفأ

«وقرر الحلفاء لكي يضعوا حداً لرفض السلطان إيقاف العمليات في اليونان ، توجيه ضربة حاسمة . فقد أمر الاميرال الفرنسي (دو رينيي) – بحجة ان طلقاً نارياً وجه إلى مركب أوروبي – بتدمير الأسطول المعادي دون أي إنذار مسبق . وفي خلال بضع ساعات كانت الهزيمة قد تمت ودمر الأسطول العثماني »[٤٩].

إن التدمير المتعمد والمنتظم للأسطول العثماني في نافاران كان يشير إلى عزم روسيا وحلفائها الانجلو – فرنسي على تحطيم مقاومة السلطان . ولكن هذا الانتصار جعل الباب العالي يتصلب في موقفه ، وفي نفس الوقت اذكى في أوروبا الآمال القديمة في تقسيم نهائي للامبراطورية العثمانية . وسارت دول أخرى على خطى محمد علي فنصحت ، – ولكن عبثاً – السلطان بإيقاف الحرب . كما ان بروسيا ، بالاشتراك مع النمسا التي ظلت على الحياد ، استعادت دورها كوسيط لدى القسطنطينية[٥٠] .

وعلى أثر هزيمة نافاران ارتفعت الأصوات المنادية بتقسيم الدولة العثمانية ، (فارتجلت فرنسا مشروعاً لتقسيم تركيا عرف منذ ذلك الحين باسم راسم خطوطه الرئيسية الوزير بولينياك) .

وكان عدد من الصحفيين قد اطلقوا مراراً فكرة التقسيم هذه . وكان أحد الصحفيين المدعو « ج. دو برادت » قد نشر في باريس كتاباً بعنوان « في النظام الاوروبي الدائم إزاء روسيا وقضايا الشرق » .

وفي السنة التالية صدر في باريس أيضاً كتاب بعنوان « تقسيم تركيا » يرد فيه مؤلفه « ج . ب ماروشيتي » على الكتاب الأول . فرغم أنه كان يقترح فيه إعلان استقلال اليونان ، فقد رفض اعادة إحياء الإمبراطورية البيزنطية القديمة . أما بقية المناطق العثمانية في أوروبا بالاضافة إلى القسطنطينية فيمكن أن تقتسم بين الدول الاوروبية المختلفة . وسيكون هذا التقسيم فرصة لاعادة النظر في خارطة أوروبا السياسية التي رسمها مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥م بصورة جذريــة .

وفي نفس سنة ١٨٢٨ أيضاً ، أصدر كاتب مجهول بتوقيع ج . ب . م في باريس دراسة حول « تقسيم تركيا » ، وكان هذا الكاتب على اقتناع بالانهيار الوشيك لهذه الإمبراطورية .

كانت كل هذه المشاريع التي تفتقت عن بعض المخيلات الخصبة ، في الحقيقة ذات فائدة كبيرة في تغذية تيار اعلامي داخل الرأي العام محبذ لوجهات نظر بعض الحكومات وبالفعل فإن مثل هذه المخططات التقسيمية كانت تدرس في عواصم أوروبية (كفيينا وباريس) وكانت كل حكومة تضيف إليها بعض النقاط التي تخدم مصالحها الذاتية . كان مترنيخ يقترح على حكومات بطرسبورغ وبرلين مخططاً سرياً معادياً لفرنسا في حين كان بولينياك يحمل حكومته على تبني مشروع رسمي لتقسيم تركيا مرفقاً بمراجعة اساسية لخريطة أوروبا السياسية « تحسباً للمستقبل في حال سقوط القسطنطينية » . وقد قدم هذا المشروع ، الذي وضعه بوالوكونت في شهر آب ١٨٢٩م ، إلى القيصر في شهر أيلول . كان هذا المشروع يدعو إلى انشاء دولة مسيحية في القسطنطينية لا تكون خاضعة بأي شكل من الأشكال للوصاية الروسية خاصة وانها تهدف بالضبط إلى منع الروس من التربع على انقاض العثمانيين ، وكان القيصر سيحصل على مقاطعات فلاشيا ومولدافيا في أوروبا وأرمينيا وتريبيزون في آسيا كتعويض عن هذا ، أما بروسيا التي كانت « عقدة المشروع » حسب تعبير بولينياك ، فكانت ستحصل على الساكس وهولندا . في حين أن انجلترا كانت ستستولى على المستعمرات الهولندية . أما ملك هولندا فكان سيجلس على عرش القسطنطينية وسيحكم جزءاً أوروبياً وآسيوياً من الإمبراطورية العثمانية المجزأة . وبالنسبة إلى النمسا

فكانت ستحصل على مقاطعات البوسنة وكرواتسيا وصربيا وهرزريغوفين التي طالما طمعت بها . أما فرنسا فكانت ستسترجع المقاطعات البلجيكية واللوكسمبورغية وحتى بعض الأجزاء من هولندا . وأخيراً سيمنح ملك ساكس السابق حكم دولة اصطناعية تضم الأراضي الواقعة على ضفة الرين اليسرى إلا أن روسيا رفضت هذا المشروع رفضاً مطلقاً وذلك منذ أن بدأت خطوطه الأولى في الظهور(٥١) .

محمد علي والي مصر يهدد الدولة العثمانية :

لم يكد يظهر نجم محمد علي والي مصر كزعيم قوي ناشىء ، حتى سارعت فرنسا بدعمه وتقديم الخبراء العسكريين والاقتصاديين على أمل ان تشكل مصر محمد علي الجديدة نواة الإمبراطورية العربية حليفة فرنسا (سيضمن هذا الحل في استمرار تأمين النفوذ الفرنسي في المشرق وهذا يعني انقلاباً في التحالفات الأوروبية وهذه هي المرة الأولى التي تحدد فيها مثل هذه السياسة المتوسطية بمثل هذا الوضوح . لقد كانت هذه السياسة ترتكز على المكانة الأساسية التي قد تدعى مصر إلى القيام بأعبائها بفضل موقعها الجغرافي وترعة السويس التي لم تكن مع ذلك قد شقت بعد . وكانت سياسة فرنسا تنظر إلى أهمية مصر من هاتين الزاويتين .

فالموقع الذي يفترض بأن يمتد تأثيره إلى أكثر المقاطعات بعداً عن مركز الإمبراطورية أو الأكثر تعرضاً إلى الانفصال . فهناك سورية من الشرق والدويلات البربرية من الغرب – علينا أن نعترف بأن هذا الموقع يساعد كثيراً على انشاء قوة حقيقية . ان صلات اللغة والعادات والأصل المشترك تشكل روابط دائمة قد تتيح دمج سكان سورية وبلاد البربر بسكان مصر .. وما على محمد علي لكي يحقق هذه المهمة إلا أن يسيطر على كل هذا الساحل الشاسع الذي تمتلكه القوى البربرية .

وأخيراً علينا هنا ان نفكر كثيراً في المصالح التجارية المهمة جداً . ذلك ان هناك شبهاً بين موقع السلطان وموقع محمد علي فكلاهما يمسكان بمفتاح طريق بحرية وتجارية كبيرة . فالسلطان محمود قد فتح البوسفور في وجه التجارة العالمية ومحمد علي ما زال يتمسك باغلاق الطريق التي يمكن ان تصل البحر الأبيض المتوسط ببحر

الهند .. ومن المهم جداً ان يكون الباشا قوياً بما فيه الكفاية حتى يستطيع ان يمنع سقوط هذا الممر في أيدي دولة كبرى لوحدها فاما أن يبقيها مغلقة وأما ان يفتحها أمام كل الأمم . لذلك عليه الا يتوانى عن حراسة وحماية السويس والمواقع التي تسيطر على مضيق باب المندب(٥٢) .

ولكن هذه السياسة الفرنسية كانت تصطدم بالسياسة البريطانية ذات المصالح الحيوية في مصر .

ان بريطانيا لا يمكن ان تتمنى لمصر ان تكون قوية ومستقلة عنها . ان وضع مصر الجغرافي وواقع كون التجارة مع الهند تشكل اساس عظمة بريطانيا قد جعلت ، بكل تأكيد هذه الدولة الكبيرة حريصة على ابقاء مصر مقاطعة ضعيفة وعاجزة(٥٣) .

ولكن محمد علي كان يطمع بسورية أكثر مما كان يود المغامرة في صحاري شمال افريقيا الشاسعة تحت لواء فرنسا . وتنبغي الاشارة أيضاً إلى أن الدبلوماسية الانجليزية قد أوحت له بهذه الفتوحات لتصرفه عن القيام بحملة ضد سورية(٥٤) .

أ) مجابهة محمد علي للدولة العثمانية :

اثمرت جهود الدول الأوروبية في تحريض محمد علي للعمل ضد السلطان واحتلال سورية إلى وقوع مجابهة بينهما أدت إلى انتصار جيوش محمد علي بقيادة ابنه إبراهيم باشا الذي أثبت انه كان قائداً عسكرياً فذاً ، أظهر كفاءة عسكرية نادرة سواء في حربه في اليونان أو في الجزيرة العربية ضد الوهابيين أم ضد جيوش الدولة العثمانية في سوريا . وقد أدى انتصار محمد علي الساحق على القوات العثمانية ، إلى تفتح أعين الدول الأوروبية على خطورة محمد علي الذي أصبح من الواضح ان بامكانه احتلال عاصمة الدولة العثمانية مما يؤدي إلى أعادة الحياة إلى الرجل المريض ، وبالتالي فشل جميع المخططات الاستعمارية الأوروبية باقتسام تركة هذا الرجل وكان أكثر المتيقظين لطموحات محمد علي ، انجلترا التي وجدت فيه الرجل الخطر على مصالحها بينما لم تكن تنظر إليه فرنسا بمثل هذا المنظار بالرغم من أن الدولتين كانتا تجنيان فائدة كبيرة من تجارة القطن ومقايضته بالذخيرة مع مصر ، هذه المصالح التجارية تفسر تعلق هاتين الدولتين بوجود محمد علي(٥٥) .

كان المراقبون السياسيون ينظرون إلى الوضع من منظار آخر مختلف تمام الإختلاف فقد كانوا على علم بمشاعر سيد مصر ومطامحه . فانجلترا تزوده باستمرار بالذخيرة ، وفي الوقت نفسه كان الكولوني Leith ، المسؤول عن تجنيد بعض كبار الضباط في البحرية المصرية ، يلقي صعوبات في تسفيرهم إلى مصر ذلك ان حكومة لندن كانت في حالة انتظار وترقب للحوادث . أما قنصل فرنسا Mimavlt ، فكان يتردد باستمرار على « بلاط » الاسكندرية و « يغالي » في التودد مخفياً قصده في الاطلاع على نوايا الوالي ، فقد كان يتوقع ان تجني التجارة الفرنسية فوائد جمة من امتداد السلطة المصرية إلى سورية وهذا ما كان يشجع عليه علناً(٥٦) .

وبعد ان اجتاح إبراهيم باشا قائد الجيش المصري سوريا ، واجتاز جبال طوروس وهزم من جديد القوات العثمانية في ٢٩ تموز ١٨٣٢م انفتحت أمامه طريق الاناضول والقسطنطينية ، مما جعل السلطان يجد في اقتراح يقضي باللجوء إلى أوروبا المسيحية .

وقد دب الهلع في قلب السلطان من الزحف المصري ومن الرأي العام العثماني الذي كان يحيى الزاحف الظافر معتبراً إياه منقذاً للإسلام فدفعه اليأس إلى طلب مساعدة القيصر العسكرية . فطلب أن تتدخل بعض وحدات البحرية القيصرية وكتائب برية كافية لحماية عاصمته . وبالطبع تحركات البلاطات الأوروبية الأخرى تلقائياً مهددة بتدخل مماثل . وكان ان قررت الذود عن الإمبراطورية العثمانية التي تتهددها قوتان على طرفي نقيض .

وأكدت فرنسا عزمها على ان لا تتخلى عن قضية الباب العالي أمام المطامع المصرية معتبرة ان كل خطر داخلي أو خارجي يهدد وحدة الإمبراطورية العثمانية يمسها بالذات .

واستبدلت انجلترا قنصلها العام في مصر الذي كان قد عين في منصبه في شهر كانون الثاني سنة ١٨٣٣ م فعين السيد كامبل في كانون الثاني قنصلاً . وتلقى التعليمات من حكومته في ٤ شباط . وقد أكد السيد بالمرستون في هذه التعليمات :
« ... ان حكومة جلالته تعلق أهمية كبرى على الحيلولة ليس فقط دون انحلال الإمبراطورية العثمانية ، بل أيضاً دون اجتزاء أي قسم منها ... » .

وقررت النمسا ان ترسل من جديد بروكش فون اوستن الى الاسكندرية ، وانحازت بشكل واضح إلى وجهة النظر الفرنسية – الانجليزية الجديدة (٥٧)

وهكذا أوقفت أوروبا الفاتح ، وكرست بذلك أولى علاقات حمايتها الدبلوماسية للباب العالي ، وبهذا تضاءلت مكانة السلطان وواليه ، وكانا معاً الخاسرين ، لقد أفسح وجود الجيش الروسي في العاصمة المجال أمام شتى الدسائس الدبلوماسية بين الدول المتنافسة . ولم يرجع هذا الضغط الروس ، إلا بتنازلات باهظة من قبل جميع الفرقاء المعنيين .

إن دراسة المفاوضات التي أدت إلى عقد معاهدة الدفاع المشترك في اونكيار اسكلسي في ٨ تموز ١٨٣٣م ، والبند السري المضاف إليها في ٢٦ تموز ، لا تدخل في نطاق تحليلنا هذا ، ولكن يتضح أن سورية والمقاطعات العربية في الإمبراطورية العثمانية دخلت منذئذ في دائرة مصالح الدول الاستعمارية والمتوسطية (٥٨) .

ونتيجة لذلك بدأت انجلترا تبدي قلقها من سيطرة محمد علي على دولة عربية واسعة تتحكم في الممرات البحرية والطرق البرية الاستراتيجية وهذا ينزل أكبر الاضرار في مصالحها .

وتشكل مناطق طموحه هذه خط الاتصال بين شرقي البحر المتوسط والهند وقادت هذه الخواطر القنصل الانجليزي إلى نتائج جازمة : « ان القوة السياسية الجديدة التي يشكلها محمد علي مضرة بمصالح انجلترا في الشرق الأدنى وخاصة إذا استقامت في مملكة منسجمة قوامها العروبة هذا الوضع يضطرنا إلى رفع طاقات قواتنا البحرية والزيادة من قدرها ، كما انه يعرقل نفوذنا واتصالاتنا ويجرنا إلى صراع لا يجدي مع دويلات اجنبية مجهولة في أوروبا نعاملها كما يحلو لنا ، بل مع قوة معترف بها وتدعمها دول أوروبية » .

وتلفت هذه الخواطر الانتباه إلى الرأي التالي : « ان تقسيم الإمبراطورية العثمانية ، في آسيا كما في أوروبا ، إلى دولتين يسيء إلى مصالح بريطانيا لأنه يقيم في هذه

المنطقة نفوذاً جديداً وناشطاً لا يقع تحت رقابتنا وقد يعاكسنا ، وليس له ، في مطلق الحالات ، أية ضرورة سياسية ثابتة »[٥٩] .

كان طموح محمد علي يزعج مشاريع انجلترا التوسعية الاستعمارية على الصعيدين السياسي والاقتصادي ، فكان لا بد من القضاء عليه . ذلك كان هدف بالمرستون البعيد[٦٠] .

وقد قامت بريطانيا باحتلال عدن عام ١٨٣٩م ، والواقع ان الخليج العربي يقع على امتداد هذه النقطة الاستراتيجية ، ويتحكم بطريق الهند ، وتنبع حساسية الحكومة الانجليزية تجاه أي تدخل يقوم به محمد علي في هذا القطاع الحساس من السياسة العامة المتعلقة بموقع الدولة العثمانية بين البحر المتوسط والهند .

وقد ناقش بالمرستون في ٩ تموز هذا الموضوع مع السفير الفرنسي ، ووضع قضية البصرة في اطار سلامة أراضي الإمبراطورية التي تتهددها التدخلات النشطة للعملاء والضباط المصريين ، وأكد الوزير الانجليزي انه طلب منذ سنتين من محمد علي عهداً بألا يصبو إلى توسيع أراضية في اتجاه الخليج العربي . ورد بالمرستون على نفي باشا مصر للأمر بالتقارير الصريحة التي أكد فيها المعتمدون الانجليز بأن احتلال الجيش المصري للبصرة قد حصل فعلاً وأن الضباط المصريين تقدموا إلى الإحساء والقطيف مهددين جزيرة البحرين « كي لا تصبح بؤرة ثورية ضدهم » . لذا لا يسع انجلترا ان تسلم بوجود هذا الخطر الداهم المستمر ، فهي الحامية لاستقلال الإمبراطورية العثمانية وسلامة أراضيها وتريد ان تضطلع بأمانة بالمسؤولية المنوطة بها[٦١] .

وكذلك بدأت الدول الأوروبية بواسطة قناصلها في بيروت في إثارة العداء ضد حكم محمد علي في سوريا .

وقد رفع كامبل بهذا الشأن تقريراً عاماً لـ « بالمرستون » تاريخ ١٩ تموز ١٨٣٧م ، وأثبت فيه شكاوي السلطة المصرية الرئيسية ضد تصرفات القناصل غير القانونية .

نستخلص منه ان قناصل بيروت قد تصرفوا مراراً بدافع العداء ضد السلطة المحلية فخولوا أنفسهم ، تعسفاً ، سلطة تنفيذ مطالب كثيرة غير عادلة ، بالقوة ، وخاصة فيما يتعلق ببعض الرعايا (من مسيحيين ويهود)[٦٢] .

منذ عام ١٨١٥م اهتم العلماء في ألمانيا بمختلف شعوب سوريا ، لم يكونوا في تلك الفترة يدعون المساهمة ، بأبحاث فريدة ، في التعرف على هذه البلاد ، بل ترجموا أحسن الكتب التي ظهرت باللغات الأوروبية الأخرى . هكذا خصت مجلة Arcniv For Alce And Meve Kirchemgeschichre – وهي من أفضل المجلات الدينية في تلك الآونة – خصت الموارنة والدروز والاسماعيليين والعلويين ، بدراسات وافية تناولت وضعهم الديني والسياسي والاجتماعي في أدق تفاصيله[٦٣] .

وأصبحت سياسة الدول الاوروبية تجاه استغلال الطوائف في بلاد الشام احدى أهم الوسائل لتنفيذ مخططاتها في المنطقة والتي لم تكف عن ذلك حتى الوقت الحاضر .

وقد أظهر عمل محمد علي في سوريا وفلسطين الأهمية الاستراتيجية لهذين البلدين بالنسبة إلى أوروبا ، وأدى إلى فتح البلاد أمام أوروبا وثقافتها ومبشريها واقتصادها . كانت هذه المنطقة محور الصراع التركي – المصري فجذبت اليها انتباه مبشري أوروبا وطموحهم . وابتدأت حملة صليبية مسيحية جديدة. تتفق في بواعثها ومصيرها الخاص مع متطلبات التوسع لدى الدول القوية[٦٤] .

ب) الدول الأوروبية تعيد محمد علي إلى مصر :

لم تستطع الدولة العثمانية رغم دعم الدول الأوروبية لها ، ورغم محاولة تحديث جيشها بواسطة ضباط روسيين ، أن تقف أمام محمد علي وان تعيده إلى حظيرة السلطان . خاصة بعد معركة نصيبين التي أنتصر فيها محمد علي والذي لم يستطع ان يضمن لهذا النصر ملكية سوريا وفلسطين كما لم يستطع تحقيق احلامه في الاستقلال بل على العكس فقد حصل السلطان ، بهزيمته ، على حماية غير مشروطة قدمتها له أوروبا التي قررت الحؤول دون تمزيق الإمبراطورية التركية أو تفسيخها ، فدخلت القضية الشرقية في مرحلة جديدة وعصيبة[٦٥] .

ووضعت هزيمة نصيبين (٢٤ حزيران « يونيه » ١٨٣٩م) ، التي تلاها فرار الاسطول ، الباب العالي على شفير اليأس . وكان رأي الحكومة يميل الى عقد اتفاق مباشر مع الوالي . وأخذت روسيا تدعم هذا الحل القائم على عقد اتفاق مباشر مع محمد علي . وعدم فسح المجال للدول المسيحية للتدخل في قضية يمكن ان تصيب نصيباً أكبر من النجاح إذا اتفق المسلمون عليها فيما بينهم[٦٦] .

وهذا ما كان يلقى معارضة واضحة من جميع الدول الأوروبية التي نادت إلى الوقوف ضد الاتفاق المباشر بين مصر وتركيا ، وقد تبنت فرنسا أيضاً هذه السياسة إذ أن عطفها على باشا مصر لم يكن يمنعها من النظر إلى المصلحة الأوروبية .

وفي فيينا قام مترنيخ ، بحذاقة ، بمعالجة النزاع الشرقي إنما على المستوى الأوروبي ، فقرر في ١٦ تموز ان يتدخل مباشرة لدى الباب العالي دون ان يضيع في المتاهات النظرية التي ملأت صفحات البريد الدبلوماسي الفرنسي – الانجليزي . وفي ضوء اتفاقه مع سائر البلاطات كلف ممثله بأن يعد مذكرة موجزة يجمع عليها تواقيع زملائه ممثلي « الدول الحليفة » الخمس . وقد فرضت هذه المذكرة الرسمية ، التي قدمت في ٢٧ تموز ، على الباب العالي عدم اتخاذ أي قرار بشأن القضية الشرقية ، تلك كانت أرادة الدول الكبرى :

« يسر السفراء الموقعين أدناه ان يعلموا وزير الباب العالي ، طبقاً للتعليمات التي تلقوها من حكوماتهم ، بأن اتفاق الدول الخمس الكبرى بشأن القضية الشرقية أمر أكيد ويرجون الباب العالي ألا يتخذ مطلقاً أي قرار نهائي بهذا الشأن دون مساهمتها وان يترقب تدابيرها العطوفه » .

كان وقع هذه المذكرة الرسمية المشتركة التي تفتقت عنها مخيلة مترنيخ الدبلوماسية ، ووقعها على شبة غفلة من جميع سفراء الدول الكبرى في القسطنطينية بما فيهم السفير الروسي ، مذهلاً على الأزمة الشرقية[٦٧] .

وفي رأي بالمرستون ان توسع مصر يشكل خطراً كبيراً على السياسة المتوسطية ، ألا تود فرنسا ان تجعل منها منطلقاً للسيطرة على أقاليم عثمانية أخرى ؟ نعم ان باشا مصر عجوز ولكن ابنه إبراهيم سيكون خلفه وهو يفوق أباه دهاءً ومقدرةً ، وقد زود

جيشه – وهنا بيت القصيد – بضباط فرنسيين . وأضاف بالمرستون بتهكم بارع وكأنه يريد ان يكشف سر تخوفاته :

« اننا نتصارح في كل شيء ، أليس كذلك ؟ ألا توافق فرنسا تماماً على نشوء قوة جديدة ومستقلة في مصر وسورية ، تكون من صنع يديها تقريباً وتصبح بطبيعة الحال حليفتها ؟ ألا ترى مدينة الجزائر التي استعمرتموها . وماذا يبقى بينكم وبين حليفتكم مصر ؟ لا شيء تقريباً ، تونس وطرابلس هاتان الدولتان الضعيفتان .. فيصبح كل شاطىء أفريقيا وقسم من شاطىء آسيا على المتوسط ، من مراكش حتى الاسكندرون بين أيديكم وتحت نفوذكم . هذا مالا يمكن ان يوافقنا »[٦٨] .

جـ) طـرد محمـد علي من سوريـا :

لم تستطع أوروبا الوقوف صامتة أمام رغبة محمد علي بالاستقلال عن السلطان وتأسيس دولة فتية في سوريا تعطل مصالحها ، لذلك قررت اخراجه من سوريا بالقوة ، وإعادة سوريا إلى السلطان الذي يسهل السيطرة عليه وتحقيق مصالح الدول الأوروبية من خلاله وهو ذلك الرجل الضعيف الذي لا يستطيع ان يتحدى إرادة تلك الدول كما فعل محمد علي ذلك الرجل القوي الطموح .

ولذلك دخلت المشكلة طوراً جديداً في التحالف الأوروبي الذي استعد لاخراج محمد علي من سوريا بالقوة العسكرية .

وفي الشرق تتابعت انتصارات أوروبا المتحالفة تتابعاً يكاد يكون صاعقاً ، إذ عاد ما كان يسمى بـ « الامبراطورية المصرية » ، قبل نهاية عام ١٨٤٠م إلى حجمه السابق كاقليم غير ذي شأن يحكمه ، تبعاً لإرادة أوروبا والسلطان ، باشا عجوز يخضع لأشد القيود ، والواقع ان تصفية انجازات محمد علي ، التي تمت منذ شهر آذار عام ١٨٤١م ، فسحت المجال للمصالحة والاجماع الأوروبيين اللذين كرستهما معاهدة المضائق[٦٩] .

وقد دخل الاسطول الانجليزي في آواخر آب ١٨٤١م المياه السورية مدعوماً ببعض القطع البحرية النمساوية بينما أعلن سليمان باشا النفير العام ، حتى تلك الآونة

لم يكن أهالي الجبل قد بدأوا بالرغم من جهود العملاء الانجليز ، لكن البلاد ثارت عند رؤية الأسطول الأوروبي ، ولم يكن فاسيلي القنصل الروسي في بيروت ، على ما يبدو ، على علم بهذه السياسة العليا الرامية إلى غزو البلاد ، فأعلم في ١٨ آب رئيسه القنصل ميديم بإقدام الكمودور تابيير على اقتحام مرفأ بيروت ، حيث باشر فوراً بعمليات عدائية اشاعت الذعر . ذعر قنصلا النمسا وبروسيا ولجأ إلى الجبل بينما كان الكومودور نابيير يقصف المدينة بالقنابل من وقت إلى آخر بغية حمل الأهالي على اعلان الثورة وفي الوقت نفسه كان السيد وود صهر القنصل الانجليزي يبذل قصارى جهده لإثارة الاضطرابات ، وحل محله بعد مدة أعضاء من الارساليات المسيحية(٧٠) .

وجرى توزيع المال والسلاح على أهالي جبل لبنان على يد عملاء اخصائيين ومبشرين بروتستانت وكاثوليك . وقد ذكر فاسيلي في رسالة إلى ميديم المؤرخة في ١٩ أيلول أنه أثناء اقامته في المعسكر الانجليزي وزعت آلاف البنادق على أهالي الجبل . لكن المسيحيين (الموارنة) وحدهم انضموا الى الحلفاء ، بينما بقي الدروز مخلصين للأمير بشير تمام الاخلاص . ولم يقدم أهالي الجبل المسلحون ، حتى ذلك الحين ، أية مساعدة للحلفاء ، فراح الضباط الانجليز ينعتون أهالي الجبل بالجبن ، وقد تعززت هذه المعلومات بشهادات أخرى شخصية ودامغة . فتحدث س . غوبات الذي أصبح فيما بعد أسقف الطائفة اللانكليكانية في القدس ، في سيرته الذاتية ، بتستر كبير ، عن المهمة « الثقافية » التي عهد بها إليه لدى الدروز وحتى لدى البطريرك الارثوذكسي المقيم في دمشق ، فذكر انه وصل من مالطا ، برفقة زميله الأمريكي سميث ، وجال في آب وأيلول في جبل لبنان فاتصل مع زعماء الدروز وعرض عليهم انشاء مدارس في جميع مناطقهم ، وحتى حماية الحكومة الانجليزية لهم ، كان غوبات يعتبر ممثل الكنيسة الانكليكانية ، وسرعان ما أنضم اليه نيقولايسون قادماً من القدس الذي عرض استعداده للاسهام في هذه المهمة بشرط اساسي اضافة إلى وعود غوبات وهو مطالبة الدروز بعدم التعامل مع المرسلين الامريكيين وحصر علاقاتهم بالمرسلين من الاكليروس الانكليكاني . ولكن هذا الخلاف الخطير في الرأي بين غوبات ونيقولايسون أفشل المهمة كلها . لقد ظهر التنافس الانجليزي —

الامريكي في الميدان التبشيري في لبنان بصورة حادة مثلما ظهر في شمال ما بين النهرين عند النساطرة ، أما المرسلون الامريكيون فقد أفادوا من وجود الضباط الانجليز ليوسعوا مشاريعهم المدرسية في دير القمر وفي قرى أخرى مجاورة ، وسهل مهمتهم المال الذي وزعه بسخاء جيش الاحتلال ، وقد شجع هؤلاء المبشرين المساعي الرامية إلى وضع « الأمة الدرزية » بأسرها تحت حماية انجلترا آملين بذلك ان يعتنق الدروز البروتستانتية(٧١) .

وقامت الجمعيات التبشيرية ، والأرساليات التابعة للدول الأوروبية المختلفة بجهود مهمة لخدمة المخططات الأوروبية ، وذلك بإثارة الطوائف ضد الحكم المصري كما قامت بأدوار خطيرة بالتعاون مع عملاء المخابرات لخدمة المصالح الأوروبية .

ووضع الأب اليسوعي ريلو نفسه في خدمة قضية النمسا والحلفاء لدى الموارنة ، وكانت علاقاته مع الضباط الانجليز والعملاء الأتراك حديث الجميع ، بالرغم من ان رئيسه العام الأب روثكان نصحه في ١٢ أيلول بالتزام الحذر الشديد . وظن انه يخدم في نفس الوقت قضية رهبانيته وقضية الحلفاء فراح يوزع السلاح على الموارنة متوخياً من ذلك ان يحصل من القسطنطينية على اذن لبناء دير في بيروت . وعرف المصريون بنشاطاته السياسية والعسكرية فأعلنوا عن جائزة لمن يأتي به حياً أو ميتاً . ألم يؤكد قنصل النمسا آنذاك للأب ريكادونا ، رئيس الارسالية بأنه لولا مساعدة الأب ريلو الفعالة لما استطاع السلطان ولا الحلفاء ان يربحوا المعركة ضد الجيش المصري ؟ اعتقد هؤلاء الجبليون اللبنانيون بتحريض من هذا اليسوعي وتشجيعه ، بأنهم يتطوعون في حرب مقدسة ضد إدارة إبراهيم باشا ، فهل استحق ثناءً من الباب لموقفه هذا ؟ ذلك ما أكده الأب روثان الرئيس العام لليسوعيين ، لرئيس اقليم باريس في ١٢ حزيران ١٨٤١م . غير أن السلطات الفرنسية لم تغفر له أبداً هذه الخيانة(٧٢) .

وبينما كانت حكومات أوروبا تناقش مصير محمد علي ، تسارعت الأحداث في سوريا ، فقد نزلت قوات الحلفاء إلى البر ، وأقامت معسكراً حصيناً بين بيروت وجونية على مصب نهر الكلب . ومن هناك وزع في غضون بضعة أيام ١٢٠٠٠ بندقية فأدى ذلك إلى تمرد حوالي ١٤٠٠٠ من سكان الجبال . لقد فقد الأمير بشير كل

أمل بعد سقوط بيروت وبدأ محادثاته مع الانجليز ليعلن خضوعه . ولكنه لم يحضر في الوقت المحدد إلى معسكر الحلفاء فخلع . وفي ١١ تشرين الأول وضع نفسه رهن الاعتقال في صيدا . وخير بين النفي إلى انجلترا أو إلى مالطة ففضل جزيرة البحر المتوسط ونزل فيها مع حاشيته في أول تشرين الثاني . وفي ١٠ تشرين الأول مني المصريون بهزيمة فادحة في قلعة ميدان . فتراجعوا إلى لبنان ثم إلى دمشق حيث تأهب إبراهيم باشا لتنظيم المقاومة لكن الحلفاء قصفوا عكا فسقطت فوراً (في ٤ تشرين الثاني) . وكان للخيانة دور في هذا الانتصار الصاعق وخاصة خيانة المهندس الايطالي ديلكازيتو المسؤول عن تحصينات المدينة الذي انضم إلى الأعداء وزودهم بالخطط الدفاعية ، ومن هناك وجه نار مدافع الأسطول الانجليزي الذي التجأ إليه . وفر أيضاً مهندس آخر ، الانجليزي بريتيل ، الذي قضى عشر سنوات في خدمة الباشا ، ودخل في خدمة الفاتحين ، والواقع ان سقوط عكا أنهى وجود مصر في سورية إذ أن ذلك فصل هذا الأقليم عن مصر ، وتلقى بالمرستون تهاني جميع الأحزاب الانجليزية ، وحتى تهاني ألد اعدائه .

لم يعد أسطول الحلفاء يبعد سوى بضع ساعات من الاسكندرية وفي ٢١ تشرين الأول دخل مياه المدينة ، فحاول الكومودور نابيير ان يعطي الوالي فرصة لانقاذ ما تبقى من قواته وضمن له حكم مصر وراثياً على ان يجلو عن سوريا ويعيد الأسطول العثماني . وبدت الحجة الدافعة التي تسلح بها الضابط الانجليزي ناجعة : « إن سموه الذي لديه الآن فرصة تأسيس أسرة حاكمة ، قد يصبح مجرد باشا »[٧٣] .

لقد حلت الهزيمة بمحمد علي ، ولم تستطع فرنسا بدبلوماسيتها ان تفعل شيئاً تجاهه واغتبط الأوروبيون لهذه النتيجة التعيسة وأطلقوا العنان لعواطفهم الحاقدة وقامت صحافة أوروبا تنعت محمد علي بمختلف النعوت مطالبة بالقضاء على (المغتصب المصري) .

وفي ٢٠ كانون الثاني ١٨٤١م قام ممثلوا الدول الأوروبية في (التحالف الرباعي) بضغط من مترنيخ بتسليم مذكرة إلى السلطان العثماني عن طريق المندوب العثماني في لندن تدعوه فيها إلى منح محمد علي « حسب وعده » حكم ولاية مصر وراثياً ،

ولم يستطع الباب العالي إلا أن ينزل عند إرادة أوروبا ، وفي ٤ شباط إلتأم في القسطنطينية مؤتمر محدود بحضور بعض الوزراء العثمانيين وممثلي الدول الأربع الحليفة ، تم خلاله وضع فرمان بتولية محمد علي نشر في ١٣ شباط . وجه هذا الفرمان إلى الوالي شخصياً ومنحه حكم مصر وراثياً مع إدارة شؤون السودان (ويشمل أقاليم نوبيا ، ودارفو وكردونان وشنار) .

وتضمن هذا الفرمان بنوداً تحد كثيراً من سلطة الوالي بل تستهين بكرامته ، ويبدو أن القوم توقعوا ان يرفض هذا الفرمان . فقد كتب كوميف سمارك ، ممثل بروسيا إلى ملكه فريدريك غليوم الرابع بعد ذلك بقليل ، أي في ١٧ شباط ، بأنه كان يود ألا يتوتر الجو إلى هذه الدرجة ، بحيث « يترك مجالاً أوسع للتفاهم إذا ما رفض محمد علي الفرمان ، دون ان يؤدي ذلك إلى كشف عن عجز الباب العالي » لكن ألم يكن هذا العجز مقصوداً ؟ فالفرمان حرر من قبل لجنة مشتركة بإيحاء من الدول الحليفة وتكفي قراءة مقدمته لاستشفاف مراميه :

« نزولاً عند نصائح البلاطات الحليفة الموقرة ، ولما كان قبولي بمبدأ حق الوراثة الذي نحن بصدده ينهي القضية المعلقة ويساهم في المحافظة على السلام العام ، قررت أن أمنح محمد علي من جديد حكم مصر مع حق الوراثة ، وذلك عندما ينصاع في الواقع على النحو الذي فهمه المجلس ... ولكن يجب القول : ان تجربة الماضي برهنت على أنه من الضروري أن يأمن الباب العالي جانب مصر أمناً تاماً حاضراً ومستقبلاً وهو لا يبلغ هذا الهدف إلا بربط الوراثة بشروط قوية وواجبات ضرورية . واقتناعاً بأن الدول الحليفة الموقرة التي عطفت على القضية بإهتمام مستعدة لتأكيد موقفها من جديد ، أسرعت إلى سماع نصائحهم وتنفيذها »[٧٤] .

وهكذا نفذت الدول الأوروبية مؤامرتها وحققت أهدافها بتقويض القوة المصرية التي كانت تتطلع إلى اقامة دولة عربية قوية في بلاد الشام بل كان من الممكن ان تعيد احياء الدولة العثمانية المنهارة ، لتقف أمام مطامع الدول الأوروبية المستعمرة .

مراجـــع

الدولة العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر

١ — ٢٥ جون هاسلب : السلطان الأحمر (عبد الحميد) تعريب فيليب عطا الله — دار الروائع الجديدة — بيروت ١٩٧٤م .

(١) ص ٧٧ (٢) ص ٧٨ (٣) ص ٨٠ (٤) ص ٨١ (٥) ص ٨٥ (٦) ص ٨٥-٨٦ (٧) ص ٨٦ (٨) ص ٨٧ (٩) ص ٩٦-٩٧ (١٠) ص ٩٢ (١١) ص ٩٧ (١٢) ص ٩٧-٩٨ (١٣) ص ٩٨ (١٤) ص ٧٩ (١٥) ص ١٠٢ (١٦) ص ٨٣-٨٤ (١٧) ص ٦٢-٦٣ (١٨) ص ١١٠ (١٩) ص ١١٣ (٢٠) ص.١١٤ (٢١) ص ١١٥ (٢٢) ص ١٢٤ (٢٣) ص ١٢٥-١٢٦ (٢٤) ص ١٢٩ (٢٥) ص ١٢٨

٢٦— السلطان عبد الحميد : مذكراتي السياسية ، ص ٢٧ .

٢٧—٤٥ جون هاسلب : المصدر السابق .

(٢٧) ص ١٤٠-١٤١ (٢٨) ص ١٥١ (٢٩) ص ١٥١-١٥٢ (٣٠) ص ١٥٤ (٣١) ص ١٦٤ (٣٢) ص ١٧٧-١٧٨ (٣٣) ص ١٧٩-١٨٠ (٣٤) ص ٢٠١ (٣٥) ص ٢٤٣ (٣٦) ص ٢٤٣ (٣٧) ص ٢٤٦ (٣٨) ص ٢٤٩ (٣٩) ص ٢٤١-٢٤٣ (٤٠) ص ٢٤٤ (٤١) ص ٢٤٤ (٤٢) ص ٢٢٦ (٤٣) ص ٢٦١ (٤٤) ص ٢٩٥ (٤٥) ص ٣٠٢

٤٦–٧٤ جوريف حجار : أوروبا ومصير الشرق العربي – حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية – ترجمة بطرس الحلاق – د. ماجد نعمة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت – ١٩٧٦ ، (٤٦) ص ٣٠ (٤٧) ص ٢٤ (٤٨) ص ٣٢ (٤٩) ص ٣٢ (٥٠) ص ٣٧ (٥١) ص ٣٨–٣٩ (٥٢) ص ٤٤–٤٥ (٥٣) ص ٣٠ (٥٤) ص ٥٦ (٥٥) ص ٦٦ (٥٦) ص ٦٢ (٥٧) ص ٦٩–٧٠ (٥٨) ص ٧٤ (٥٩) ص ٩٣ (٦٠) ص ١٨٤ (٦١) ص ١٧٠ (٦٢) ص ١١٩ (٦٣) ص ١٢٣ (٦٤) ص ١٤٥ (٦٥) ص ١٥٧ (٦٦) ص ١٦٦ (٦٧) ص ١٦٧ (٦٨) ص ١٨٨–١٨٩ (٦٩) ص ٢٠٠ (٧٠) ص ٢٠٣–٢٠٤ (٧١) ص ٢٠٥–٢٠٦ (٧٢) ص ٢٠٦ (٧٣) ص ٢٠٧–٢٠٨ (٧٤) ص ٢١١ .

الفصـــل الثالـــث

تآمر الدول الاستعمارية على الدولة العثمانية

١- التنافس الأوربي على فلسطين .
٢- سفراء الدول الاستعمارية يحاربون السلطان عبد الحميد .

« لا بد من تحويل سوريا إلى محمية بريطانية . ولو فكرنا في موضوع إعاده توطين اليهود في فلسطين ، لوجدنا أن هذه الفكرة أرخص وأضمن وسيلة » .

اللورد شافتســبري
١٨٤٠م

تآمر الدول الاستعمارية على الدولة العثمانية

التنافس الأوروبي على فلسطين :

بدأ التنافس بين الد ول الأوروبية على اقتسام الرجل المريض عندما أوشكت الدولة العثمانية على السقوط . وشهد المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر محاولات يائسة للمحافظة على الإمبراطورية المنهارة ليتسنى للدول الأوروبية الحصول على حصة تتلاءم مع تطلعاتها .

فعقدت الأحلاف والاتفاقيات بين تلك الدول المتنافسة حتى لا تستأثر واحدة منها بحصة الأسد من أملاك الدولة العثمانية .

وكان التنافس على أشد ما يكون بين بريطانيا وفرنسا وروسيا والمانيا وحتى أمريكا التي بدأت تتطلع للانطلاق خارج حدودها والاستحواذ على مصالح لها في بلاد الشرق العربي والإسلامي .

وقد كان مجيء محمد علي الذي بنى دولة قوية في مصر ، من أهم الأسباب التي جعلت الدول الاوروبية تزداد خوفاً من اعادة احياء الدولة العثمانية بقائد فذ فتى تدعمه فرنسا ، خاصة بعد ان سيطر بسهولة على سورية ، وهزمت جيوشه الجيوش التركية في حلب ، وأصبح الطريق إلى الاستانة مفتوحـاً .

وفي الحقيقة كان تنافس الدول الغربية ، على السيطرة على ممتلكات الدولة العثمانية مبكراً ، إذ بدأ ذلك مع بداية عصر الاستعمار الاوروبي ، وبداية ضعف الإمبراطورية العثمانية .

لقد بدأت هذه المشكلة في الواقع منذ أواخر القرن السادس عشر حيث بدأ معها صراع طويل بين القوتين الاستعماريتين ، بريطانيا وفرنسا ، بالدرجة الأولى ، وانضمت اليه فيما بعد ، روسيا القيصرية فألمانيا من أجل الاستحواذ على أكبر مساحات ممكنة من أراضي الإمبراطورية العثمانية حين تصل هذه إلى نقطة الانهيار الكلي . وقد كان طبيعياً لدرجة كافية كما يقول لانديسي ان يكون الشرق الأدنى من بين المناطق التي كانت موضع اعنف منافسة ، نظراً لموقعه الاستراتيجي على الطريق إلى الهند والشرق الأقصى ، ولقربه من أوروبا مما يسهل تصدير المنتجات المصنعة والرساميل ، وإستيراد المواد الخام[1] .

وابتدأ نشاط الدول الاستعمارية في الدولة العثمانية يوم بدأت تفرض هذه الدول على السلطان منحها امتيازات تستطيع من خلالها حماية رعاياها من الطوائف التي أصبحت بمرور الزمن تتمتع بالحماية الأجنبية ولم تعد خاضعة لقوانين الدولة العثمانية وحماية السلطان .

وكانت السلطات العثمانية قد منحت فرنسا الامتيازات سنة ١٧٣٥م ، وكلا من بريطانيا وهولندا والنمسا وروسيا وألمانيا والولايات المتحدة سنة ١٨٣٠م .

وفي سنة ١٨٣٨م ، افتتحت بريطانيا قنصلية لها في القدس لرعاية مصالحها في فلسطين ، ومن ضمنها (تقديم الحماية إلى اليهود هناك عامة) ، وهو ما أصبح عملاً رئيسياً للقنصلية لفترة طويلة .

وهكذا تصرفت قنصليات الدول الأوروبية الأخرى في القدس التي كانت تتنافس في إيجاد من تحميه مما أسفر ، في نهاية الأمر ، عن ازدياد عدد اليهود في القدس الذين تمتعوا بالحماية الأجنبية فبلغ مع منتصف الخمسينيات من القرن الماضي نحو ٥٠٠٠ نسمة تحت حماية النمسا ، و ١٠٠٠ تحت حماية بريطانيا ، و ١٠٠٠ تحت حماية ألمانيا وروسيا وهولندا والولايات المتحدة الامريكية[2] .

وكلما ازدادت الدولة العثمانية ضعفاً كان يزداد تبعاً لذلك ، تنافس الدول الأوروبية فيما بينها على الحصول على مكتسبات أكبر في الدولة العثمانية .

وفي الربع الثاني من القرن التاسع عشر اشتد التنافس بين الدول الامبريالية الأوروبية على توسيع نفوذها في أراضي الإمبراطورية العثمانية وحماية مصالحها فيها وتركز الكثير من نشاطها التوسعي على سوريا (بما فيها فلسطين) ومصر على سبيل المثال ، وتأسست القنصلية الانجليزية في القدس عام ١٨٣٨م ، وقبل مرور عقد من الزمن على هذا التاريخ كانت كل الدول الأوروبية الهامة (المانيا - فرنسا - النمسا - اسبانيا) مضافاً إليها الولايات المتحدة الامريكية قد انشأت قنصليتها في القدس(٣) .

لقد كان الصراع على اشده بين بريطانيا وفرنسا من أجل الاستيلاء على منطقة الشرق الأوسط . وكان عملاء فرنسا يراقبون نشاطات الموفدين البريطاني والبعثات البريطانية المختلفة إلى فلسطين . فقد رفع أحد أولئك العملاء وهو (جول دي برتو) إلى وزارة الخارجية الفرنسية تقريراً في تشرين الثاني ١٨٤٠م قال فيه :

« إن اذلال محمد علي باجباره على العودة إلى قواعده لم يكن آخر أهداف الحكومة البريطانية في هذا الجزء من الشرق ، وقد اتضح على وجه لا يقبل الشك ان لها هنا غاية أخرى ما عاد عملاؤها يحيطونها بسياج من الكتمان وبدأوا يكشفون عنها في ساعات النجوى ، وهذه الغاية هي بعث مملكة اسرائيل ، ومنذ أربعة أشهر وصلت إلى هنا بعثة بريطانية يرأسها الدكتور « كايت » مؤلف كتاب عن « تحقيق النبؤات » ... وكان المفهوم في البداية ان هذه البعثة مرسلة من الكنيسة الاسكتلندية ولكن علمت فيما بعد ان الحكومة البريطانية أوفدتها لجمع المعلومات عن أحوال اليهود في فلسطين وامكان إعادة يهود جميع أوروبا إلى الأرض الفلسطينية . وعملاء بريطانيا هنا يقولون أنهم قد حرروا الجبل فتحررت سوريا في الوقت ذاته لأن الجبل هو سوريا وليس في استطاعة أي دولة ان تتمركز مطمئنة على الساحل إذا كان الجبليون في حالة حرب معها . وبعد تحرير الجبل بات على بريطانيا ، أن تجمع في فلسطين الثمانية ملايين يهودي المنتشرين في أنحاء أوروبا . وعندئذ تكون قد استكملت الوسائل لتركيز نفوذها على اطلال النفوذ الذي كانت تتمتع به فرنسا في هذه البلاد(٤) .

لقد كان لاحتلال محمد علي لسوريا – كما ذكرنا – رد فعل صاعق على الدول الغربية مجتمعة ، بما فيها فرنسا التي كانت تدعمه على أمل تحقيق أطماعها من خلاله ، ولكن لما رأت الدول الأوروبية قوة محمد علي التي أصبحت تهدد الدولة العثمانية ذاتها وخوفها من وقوع هذه الدولة تحت سيطرة قيادة فتية من الممكن ان تعيد إليها الحياة وتهدد أوروبا من جديد ، لذلك تداعت الدول الغربية للعمل على وقف محمد علي عند حده وبدأت كل منها تتطلع إلى تأمين السيطرة على فلسطين التي تقع على أهم الطرق الاستراتيجية بين أوروبا وآسيا .

في عام ١٨٤٠م تدارست الدول الأوروبية الاستعمارية المتصارعة على وراثة الإمبراطورية العثمانية المحتضرة ، الموقف من سوريا التي كانت تحت الحكم المصري . وفي ١٧ أغسطس ١٨٤٠م كتبت جريدة تايمز اللندنية تحت عنوان «سوريا وبعث اليهود» ان اقتراح توطين اليهود في بلاد أجدادهم تحت حماية الدول الخمس لم يعد بعد الآن محل جدل بل أصبح موضع دراسة جادة .

وقد كتب السياسي البريطاني الشهير شافتسبري في رسالته إلى وزير خارجية بريطانيا العظمى بالمرستون بتاريخ ٢٥ سبتمبر ١٨٤٠م يقول : « أنه لا بد من تحويل سوريا الى محمية بريطانية ويتطلب هذا رأسمالاً وقوة بشرية » أما الرأسمال فهو بطبيعته يتوجه من تلقاء نفسه إلى أي بلد يتوفر فيه الأمان على المال والحياة وفي الختام يقول «شافتسبري» ولو فكرنا جيداً في موضوع اعادة توطين اليهود في فلسطين لوجدنا ان هذه أرخص وأضمن وسيلة لتوفير كافة الامكانيات في هذه المنطقة غير المكتظة بالسكان (٥) .

وتحركت كذلك فرنسا لتأمين مصالحها فجرت إتصالات فرنسية بريطانية ، ففي ١٣ كانون الثاني عام ١٨٤١م طلب السيد غيزو إلى سفيرنا (السفير الفرنسي) في لندن الكونت دي سانت أولير ان يلفت نظر بالمرستون إلى ان الطرق التجارية الممتدة بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر من جهة وبين البحر الأبيض المتوسط والخليج العربي من جهة أخرى والتي تتمتع بحرية عملية وبنوع من الـــ (حياد الايجابي) (كما ورد في النص) ذات فائدة كبرى بالنسبة لأوروبا وما دام الأمر

كذلك فإن هذا الوضع يمكن ان يكون موضع تعاقد صريح يتضمن الاستعمال الحر لهذه الطرق لجميع الأمم الأوروبية دون فضل أو إمتياز لأي منها ، وكان الوزير البريطاني مرواغاً في جوابه وكان سلبياً ولم يكن قط مشجعاً « ان بريطانيا العظمى لم تكن آنذاك لتترك طريق المواصلات هذه بين أوروبا وآسيا حرة »(٦) .

ولقد أزدادت حدة التنافس والصراع بين الدول الأوروبية ، بعد فتح قناة السويس التي أصبحت الشريان الحيوي للطرق البحرية بين أوروبا وآسيا والذي يصل بين الدول الأوروبية ، خاصة بريطانيا ومستعمراتها في الهند وآسيا .

ففي الربع الأخير من القرن التاسع عشر خصيوصاً بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩م اشتد الصراع الامبريالي على الامبراطورية العثماينة . وكان الصراع على أشده بين بريطانيا وفرنسا في الشرق الأدنى(٧) .

بل ان أحداث آواخر القرن الثامن عشر وكل القرن التاسع عشر وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى من القرن العشرين ، تشهد الصراع الفرنسي البريطاني ، الألماني ، الروسي حول السيطرة على الشرق الأوسط من أجل السيطرة على طرق التجارة المؤدية إلى الشرق الأقصى كأساس للوصول إلى مرتبة الدولة الأولى في أوروبا ، دون أن يكون لذلك أية علاقة بالحضارة أو الثقافة أو الدين ، ثم أضف إلى ذلك عامل النفط الذي أكتشف في إيران وشمال العراق في أوائل القرن الحالي ، ثم عزز ذلك اكتشاف منابع النفط الهائلة في مختلف بلدان الشرق الأوسط وما تبع ذلك من صراع حول السيطرة على هذه المنطقة(٨) .

وفي نهاية القرن الثامن عشر بدأت الدول الأوروبية تتخلى تدريجياً عن سياسة المحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية ، كلما اتيح لها فرصة اقتطاع قسم من تلك الممتلكات ، وابتدأ عهد جديد هو عهد السيطرة ، والاقتسام بدلاً من المحافظة على الدولة العثمانية بكامل ممتلكاتها .

كانت بريطانيا وفرنسا قد نبذتا في نهاية القرن التاسع عشر سياستهما التقليدية ازاء الدولة العثمانية التي كانت ترمي إلى المحافظة على سلامة الدولة العثمانية ، وتماسك

ممتلكاتها ، فقد احتلت بريطانيا جزيرة قبرص سنة ١٨٧٨م ، وأخذت ترنو ببصرها لمد نفوذها إلى المناطق التي تتحكم في طرق مواصلاتها الامبراطورية سواء في الحوض الشرقي للبحر المتوسط أو البحر الأحمر أو الخليج العربي . وكان لفرنسا ادعاءات في بلاد الشرق العربي وبخاصة في لبنان ، وتعد نفسها حامية للأقلية الكاثوليكية في بلاد الشام وللأماكن المقدسة الكاثوليكية في فلسطين ، وتعارضت على هذا النحو مصالح الدولتين الاستعماريتين(٩) .

ولكن الكفة بدأت تميل لصالح بريطانيا التي بدأت تستولي على مناطق مهمة في البلاد العربيـــــة .

فإن هذه المنطقة العربية الأفريقية كانت مجالاً رئيسياً للتنافس بين الفرنسيين والبريطانيين في سبيل السيطرة على طريق الشرق الأقصى وانتهى هذا التنافس بفوز الدبلوماسية البريطانية لأنها كانت أشد اصراراً وأكثر حزماً(١٠) .

ولقد كانت ألمانيا من أهم الدول الأوروبية التي دخلت ميدان التنافس الاستعماري مع الدول الأوروبية ، والتي كانت سبباً في دفع بريطانيا وفرنسا لسرعة السيطرة على بعض ممتلكات الدولة العثمانية التي أصبحت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ذات نفوذ وحظوة عند السلطان ، خاصة بعد حصولها على امتياز مد خط حديد برلين .

إن خوض ألمانيا ميدان الاستعمار اعتباراً من سنة ١٨٨٤م كمنافس قوي للدول الاستعمارية التقليدية وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا ، خصوصاً في أفريقيا والعالم العربي ، كان بمثابة الناقوس الذي نبه الدول الأوروبية الاستعمارية القديمة إلى ما يحيق بها من أخطار من وراء ألمانيا وغيرها من القوى الأوروبية الوطنية الصاعدة في ذلك الوقت . وقد أدت هذه العوامل إلى تلاحق الأحداث الدولية وتطورها تطوراً سريعاً . فسارعت الدول الأوروبية في نهاية القرن التاسع عشر إلى الإنخراط في تكتلات دولية قائمة أو خلق تكتلات دولية جديدة تستطيع بها مواجهة الأحداث غير المنتظرة(١١) .

وكان من مظاهر التنافس والصراع بين الدول الأوروبية حركة الاحلاف التي تمت بالشكل التالـي :

- انسحاب روسيا من العصبة حنقاً على ألمانيا بسبب مؤتمر برلين ١٨٧٨م وعلى النمسا بسبب مسألـة البلقـان .
- تكوين التحالف الثنائي سنة ١٨٧٩م بين ألمانيا والنمسا ثم انضمام إيطاليا اليهما سنة ١٨٨٢م ، بسبب مسألة تونس ، وبذا تشكل التحالف الثلاثي .
- عقد معاهدة الصداقة بين فرنسا وروسيا سنة ١٨٩٤م بسبب عدائهما المشترك لألمانيا ، توقيع الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤م بين انجلترا وفرنسا لعدائهما المشترك لألمانيا .
- توقيع المعاهدة الروسية الانجليزية سنة ١٩٠٧م لتحديد مناطق نفوذهما في إيران وحمايتها .
- تكوين الوفاق الثلاثي بين روسيا وانجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٧م ليواجه التحالف الثلاثي .
- انسحاب إيطاليا من التحالف الثلاثي عند بداية الحرب العالمية الأولى وانضمامها لدول الوفاق الثلاثي[١٢] .

وقد انعكس هذا التنافس بين ألمانيا والدول الأوروبية على مناطق النفوذ في الدولة العثمانية ، وانعكس كذلك على التنافس على استغلال اليهود ، والحركة الصهيونية التي ستكون أداة المنتصر ، وقاعدته الاستعمارية في فلسطين في المستقبل .

ويمكن القول أيضاً بأن الانشقاق بين صهيوني بريطانيا وصهيوني ألمانيا ليس إلا وجهاً من وجوه التنافس الدولي للسيطرة على مناطق النفوذ في العالم ، فقد أصبح من مصلحة المانيا المتحالفة مع الدولة العثمانية والمستغلة لخيراتها ، تشجيع الصهيونية لاستعمار فلسطين واستغلالها للمهاجرين اليهود فيما إذا سقطت الدولة العثمانية ، وذلك بأسلوب منظم بواسطة السيطرة الاقتصادية والبشرية ، بينما كانت الدوائر الاستعمارية في بريطانيا تشجع الصهيونية للاستيطان في ممتلكات الإمبراطورية البريطانية في شرقي أفريقيا[١٣] .

وكانت حملة نابليون إلى مصر قد أثارت غضب بريطانيا ، مما أدى إلى عقد اتفاق من نوع جديد بين إمام مسقط وشركة الهند الشرقية (عقدت في ١٢ تشرين الأول ١٧٩٨م) . ووافق عليها في ٢٦ نيسان سنة ١٨٠٠م حاكم الجزر الهندية العام . ان هذه الوثيقة المثيرة هدفت تحت ضغط البريطانيين إلى ابعاد الفرنسيين عن أراضي الإمام[١٤] .

وفي هذه الفترة ، كانت كل من انجلترا وفرنسا وروسيا في غيظ بسبب منح السلطان العثماني المانيا امتياز الخط الحديدي نظراً لما يسببه ذلك من تزايد النفوذ الألماني ، وانتكاسة للنفوذ الثلاثي في الدولة العثمانية ، فدأبت هذه الدول وفي مقدمتها انجلترا على استغلال العناصر التي ترى أن من صالحها انهيار الدولة العثمانية مثل شبان « تركيا الفتاة » ، « يهود الدونمة » وغيرهم من الجماعات ، وإن كانت الحركة الصهيونية تحولت في فترة من فترات نشاطها السياسي من التعاون مع الانجليز إلى التعاون مع ألمانيا لتوافق المصالح المشتركة بينها[١٥] .

وسيأتي فيما بعد تفصيل عن النشاط الأوروبي داخل الدولة العثمانية بواسطة النشاط التبشيري واستغلال الطوائف والقوميات ، والمدارس التبشيرية ، التي كانت تعمل في خدمة الاستعمار . ومن أهم مظاهر التنافس بين الدول الاستعمارية هو المحاولات والجهود التي بذلتها تلك الدول من أجل بسط حمايتها على الطوائف التي تتوافق مع مذهبها الديني . فالدولة الكاثوليكية ، عملت على كسب الكاثوليك ، والبروتستانت عملت على حماية البروتستانت ، وهكذا استعمل الدين والمذهب وسيلة لتحقيق أغراض استعمارية غير دينية .

احتدم الصراع بين الدول الاستعمارية على تثبيت نفوذها في الشرقين الأوسط والأدنى قبل شق قناة السويس وبعده . ويقول أدوارد روبنسون في تصويره لحدة الصراع والتناطح بين الدول الاستعمارية في المنطقة في الفترة من ١٧٩٧م إلى ١٨٦٣م كانت فرنسا قد انتزعت منذ فترة طويلة الاعتراف بها كحامية للكاثوليك وكان بوسع روسيا ان تجد لها حلفاء أوفياء من بين أنصار الكنيسة اليونانية . فمن هم الحلفاء الذين كان يمكن لبريطانيا أن تجدهم في هذه المنطقة أو تلك الإمبراطورية التركية ؟

كانت بريطانيا تسعى لكسب تأييد اليهود الشرقيين (متخذة في ذلك الوقت قراراً بالوصاية عليهم) ولاقناع اليهود الأوروبيين بضرورة الهجرة إلى فلسطين تحت الرعاية البريطانية .

في ٢٥ يناير ١٨٥٣م أدلى الحاكم العام السابق لجنوب استراليا العقيد جورج هاولر ، وهو بالطبع من خبراء الحكم الاستعماري أدلى في البرلمان بتصريح قال فيه : « ان العناية الإلهية قد وضعت مصر وسوريا في طريق بريطانيا إلى أهم مناطق تجارتها الخارجية الاستعمارية كالهند ، والصين ، والمحيط الهندي ، واستراليا وأن مشيئة الله تفرض على بريطانيا العمل بحماس على خلق الظروف المناسبة في هذين البلدين ، ولابد ليد بريطانيا ان تمتد لتعيد خلق سوريا عن طريق الشعب الوحيد الجدير بهذه الرسالة ، ذلك الشعب الذي يمكن استغلال طاقته الدائمة والفعالة ، عن طريق الآباء الحقيقيين لهذه الأرض أبناء إسرائيل »[١٦] .

لم يكن التنافس مقصوراً بين الدول الاستعمارية في القارة الأوروبية وروسيا بل تعدى ذلك إلى خارج تلك الدول عندما بدأت أمريكا تدخل ميدان التنافس والصراع خارج حدودها ، وأصبحت تتطلع إلى مكاسب استعمارية ، شأنها شأن الدول الأوروبية .

أن المطامع الاستعمارية المغلفة بأطر انسانية ودينية لم تقتصر على بلدان أوروبا الاستعمارية ، وإنما امتدت إلى القارة الامريكية ، وإن كانت هذه القارة ما تزال متأثرة بسياسة مبدأ مونرو الانعزالي . ففي عام ١٨٧٠م أنشأت جمعية استكشاف فلسطين الامريكية ، على غرار صندوق الاستكشاف البريطاني[١٧] .

وكانت أمريكا تشارك الدول الأوروبية الأخرى في التآمر على الدولة العثمانية وتساهم في إثارة الفتن القومية ، والطائفية ، كإحدى الوسائل الهامة لتفجير الدولة العثمانية ، والسيطرة على ممتلكاتها .

وكانت انجلترا وأمريكا أيضاً تساعدان على إثارة هذه الفتن . ويتجلى ذلك في إحداث الفتن الأرمنية عام ١٨٩٠م وما يليها ، حين كانت انجلترا ترسل إليهم الذخائر والأسلحة وتحضهم على الاسترسال في التمرد والعصيان . وقد أكدت الصحف

العربية « الأهرام والمنار » والصحف الأجنبية « نيويورك هيرالد » هذا التدخل ، كما أكد القسيس « سايروس هملن » في جريدة « نصير الاستقلال الكنيسي » بتاريخ ٢٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٣م صحة ذلك ، وذكر ان المراسلين الامريكيين كانوا يشاركون في إثارة الفتن الأرمنية لاضعاف الدولة العثمانية حتى يتيسر للولايات المتحدة الأمريكية أن تعاقب الحكومة العثمانية عقاباً عاجلاً(١٨) .

وهكذا أطل القرن العشرين ، والتنافس بين الدول الغربية الاستعمارية على أشده ، للسيطرة على البلاد الخاضعة للدولة العثمانية التي كانت محط أنظار الدول الأوروبية لما لها من أهمية اقتصادية واستراتيجية ، وقد أدى ذلك في نهاية الأمر إلى الاتفاق الجماعي بين تلك الدول على ضرورة اقتسام ممتلكات الدولة العثمانية والسيطرة بصورة خاصة على فلسطين ، وتنفيذ المشروع الاستعماري الامبريالي المتمثل في اقامة دولة يهودية تكون رأس جسر ، واداة ، وقاعدة استعمارية كما تجلى ذلك في تقرير بنرمان ١٩٠٧م .

ففي عام ١٩٠٥م عقد مؤتمر لندن بصورة رسمية وسرية بعد سقوط حكومة المحافظين التي كان يرأسها « أرثر بلفور » وقد استمرت جلسات المؤتمر حتى عام ١٩٠٧م ، وكان قد دعا إليه حزب المحافظين وقدمت توصيات إلى حكومة الأحرار برئاسة « سير هنري كامبل بنرمان » وكان هدف المحافظين إقناع رئيس الوزراء الجديد بالعمل لتشكيل جبهة استعمارية من الدول الأوروبية وهي : انجلترا ، فرنسا ، إيطاليا ، اسبانيا ، البرتغال ، بلجيكا ، وهولندا ، وذلك لمواجهة التوسع الاستعماري الألماني ولتحقيق بعض الأهداف التوسعية في أفريقيا وآسيا .

وبالفعل فقد تأسست لجنة عليا مختصة في الشؤون الاستعمارية مؤلفة من أعضاء الدول المشتركة ، وقد اجتمعت في لندن عام ١٩٠٧م وكانت تضم جماعة من كبار علماء التاريخ والاجتماع والاقتصاد والزراعة والجغرافيا والبترول . وانتهى تقرير المؤتمر عام ١٩٠٧م إلى ضرورة توطيد الاستعمار في المناطق التي تسيطر عليها الامبراطوريات المشتركة في المؤتمر فعلى سبيل المثال لا الحصر توطيد سيطرة بريطانيا في أفريقيا والهند والشرق الأقصى ، وإيطاليا في ليبيا وأسبانيا في المغرب وجزر

المحيط الأطلسي ، وانتهى المؤتمر أيضاً إلى قرارات تقضي بضرورة التوسع في مناطق أخرى آسيوية وأفريقية[١٩] .

سفراء الدول الاستعمارية يحاربون السلطان عبد الحميد :

لم يكن سفراء الدول الاستعمارية في الدولة العثمانية يقومون بأعمالهم الدبلوماسية كما تقضي الأعراف الدبلوماسية المعروفة ، والمعمول بها في الدول الأخرى .

لقد كانوا يعلمون أنهم مندوبون ساميون يقومون بمهمتهم في دولة توشك على الإنهيار ، ويعاملون السلطان وحكومته معاملة عليائية خاصة عندما أصبح من المعروف ان الدولة في طريقها إلى الإنهيار .

وكان كل سفير ، أو قنصل يسعى جاهداً إلى كسب الانصار ، وبسط الحماية على الطوائف الدينية والحصول على الإمتيازات التي تؤهله للتدخل في شؤون الدولة الداخلية ، على أمل ان تحصل دولته في المستقبل على أكبر غنيمة من إرث الرجل المريض الذي يشرف على الموت .

وفي الوقت الذي كان اليهود يعيشون في بحبوحة من العيش في ظل الدولة العثمانية ، كان اليهود الآخرين يقاسون في روسيا القيصرية وغيرها من الدول الأخرى من جراء نشر الأفكار اللاسامية التي تدعو إلى اضطهاد اليهود ، وذبحهم ومصادرة أملاكهم ، وتهجيرهم من بلادهم ، وذلك كله كان يحدث ضمن مخطط مرسوم من الدول الاستعمارية التي كانت تتخذ من ذلك وسيلة لتنفيذ المشروع الصهيوني في فلسطين . بالاضافة إلى أسباب داخلية ، دينية واقتصادية .

وأكثر تلك النظريات فجاجة هي النظرة العنصرية التي قوامها ان اليهود عنصر شرير يدبر بإستمرار لإفساد البشرية والسيطرة عليها مستغلاً المال والجنس ، يسيطر في الخفاء حتى يتمكن فيسيطر في العلن . وتستند تلك النظرة إلى ما يسمى « بروتوكولات حكماء صهيون » وتستمد الكثير من الحجج من مستنقع النازية . وهذه النظرية

تتناقض تماماً مع قيم الحضارة العربية التي قامت وأزدهرت تحت شعار « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » والتي رفضت بصفة عامة المفاهيم العنصرية . إن العرب لم يروا في اليهودية « عنصراً » وإنما رأوا فيها ديناً من الأديان السماوية لمن يعتنقه ضمانات وفرها الإسلام . وقبل ظهور الإسلام اعتنق فريق كبير من عرب اليمن شريعة موسى ، وكانوا وغيرهم من العرب اليهود ، تكذيباً صارخاً لدعوى العرقية الصهيونية التي تزعم ان اليهود جميعاً ينحدرون من الأسباط الإثنى عشر . وحين طرد الإمبراطور الروماني طيطس اليهود من بيت المقدس لجأ عدد كبير منهم إلى مصر وإلى الجزيرة العربية ثم عاد اليهود إلى القدس بعد ذلك بحوالي ستة قرون حين حررها العرب من حكم بيزنطة . وحين أحتل الصليبيون المدينة المقدسة ، أعملوا التذبيح في المسلمين والمسيحيين وطردوا منها اليهود . ولما حررها صلاح الدين عاد أهلها من اليهود إليها خلف جيش البطل العربي الكبير[*] . وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا في العصور الوسطى تحاصر اليهود في أحياء لا يخرجون منها تسمى « جيتو » وتفرض عليهم صنوفاً من الاضطهاد كان الفكر اليهودي يزدهر في بلاد العرب . وتنمو الفلسفة اليهودية مقتفية أثر الفلسفة الإسلامية ، على منهج المتكلمين أولاً ثم متأثرة بفلاسفة الإسلام الكبار . وأكبر الأسماء في تاريخ الفلسفة اليهودية حتى العصر الحديث كانت بلا أدنى شك إسم موسى بن ميمون تلميذ ابن رشد ، وطبيب صلاح الدين ، ويوسف بن سعيد الفيومي المشهور عند اليهود باسم سعديا . وكانت المدارس الدينية في الأقطار العربية وفي مقدمتها مدرسة « سورا » في العراق منارات الفكر اليهودي ، وكان معلموها يؤلفون بالعربية وبالعبرية على حد سواء . وأخيراً حين قرر ملوك اسبانيا والبرتغال طرد اليهود من شبه الجزيرة الأيبيرية بعد أن طردوا العرب المدجنين والمستنصرين ، لجأت غالبية اليهود إلى الأقطار العربية في شمال افريقيا حيث كان التسامح الإسلامي ، في الوقت الذي كانت محاكم التفتيش فيه ترهب كل أوروبا[٢٠] .

ولم يكن من قبيل الصدفة ان يتوافق نشر الأفكار السامية والعنصرية ضد اليهود ،

(*) صلاح الدين الايوبي بطلاً مسلماً وهو كردي وليس عربياً إلا اذا كان قصد اسماعيل صبري عبد الله الذي اخذنا هذه الفقرة منه « ان كل من تكلم العربية فهو عربي » .

مع نشر الأفكار الصهيونية . ولعل من أشهر تلك الأحداث إثارة ضد اليهود هي (فرية الدم) نقل الفرية التي كان يروجها المستعمرون لإثارة المسيحيين والمسلمين ضدهم ، ليحاربوهم ويضطهدوهم ومن ثم يخرجونهم من أوطانهم ، فنخلق مشكلة يهودية لا يكون حلها إلا بالمشروع الصهيوني الذي بدأت ملامحه الاستعمارية تتضح عاماً بعد عـــام .

وتعتبر حادثة دمشق من أهم الحوادث التي استغلها المستعمرون في هذا السبيل . وحادثة دمشق التي حصلت عام ١٨٤٠م « هي الحادثة التي أتهم فيها بعض اليهود في المدينة بخطف راهب وقتله ، لإستعمال دمه في طقوس دينية يهودية فرية الدم هذه ، التي كان اليهود يتهمون بموجبها بقتل أبناء الديانات الأخرى ، خاصة المسيحيين منهم لإستعمال دمهم في طقوس دينية ، كانت منتشرة بشكل خاص في أوروبا خلال القرون الوسطى حيث استغلت كمبرر لاضطهاد اليهود وإيقاع الأذى بهم في أماكن عديدة) تمكن مونطفيوري من مقابلة السلطان ، والحصول منه على فرمان يكفل حماية اليهود وحرية معتقداتهم الدينية في كافة أنحاء الامبراطورية العثمانية . وتم ذلك بعد ان « فحصت » على حد ما جاء في الفرمان ، كتب اليهود الدينية ، فوجدت خالية مما يبرر تلك الفرية وبعد ان اتضح ان التهمة التي وجهت إلى اليهود في دمشق ، كانت مكيدة دبرها المبشرون المسيحيون الفرنسيون في المدينة[٢١] .

ولقد ازداد مع منتصف القرن التاسع عشر إهتمام دول الغرب بفلسطين ، خصوصاً بعد ان عاد اليها الحكم العثماني ، سنة ١٨٤٠م ، بمساعدة بعض الدول الغربية وبعد ان طرد منها محمد علي حاكم مصر ، الذي كان قد إحتلها من قبل . وتمثل هذا الاهتمام المتزايد في بناء عدد لا بأس به من الكنائس والأديرة ، خلال السنوات ١٨٣٣ – ١٩١٤م ، تملكها طوائف مسيحية متعددة ، في أماكن مختلفة من فلسطين وافتتاح عدد من القنصليات الأجنبية في البلاد ، خصوصاً في القدس . ففي سنة ١٨٣٨م افتتحت قنصلية بريطانية في المدينة ، للإهتمام بمصالح بريطانيا في فلسطين ومن ضمنها « تقديم الحماية لليهود (هناك) عامة » وهو ما أصبح عملاً رئيسياً للقنصلية خلال وقت طويل – ويتضح من وثائق القنصلية ان هدفها من « تقديم الحماية لليهود » كان ذريعة ، تستطيع بريطانيا بموجبها إيجاد من تحميه في فلسطين

لتتمكن من التدخل في شؤون البلاد الداخلية ، وتقوية مركزها - أسوة بفرنسا ، مثلا حامية الكاثوليك - حتى أننا نرى القنصل البريطاني يقترح على الحكومة العثمانية الموافقة على ان يقوم اليهود بتقديم مظالمهم إلى السلطات بواسطة القنصلية إلا أن طلبه قد رفض . ولكن القنصلية تمكنت بعد ذلك ، على أية حال ، من إيجاد رعايا لبريطانيا في فلسطين ، من خلال الاستجابة بسهولة ، إلى طلبات منح الحماية ، التي كان يتقدم بها بعض اليهود من حين لآخر ، خصوصاً أولئك الذين كانوا قد فقدوا لسبب ما حماية دولتهم الأصلية(٢٢) .

وكان نشاط بريطانيا ملحوظاً في هذا المجال ، وذلك لوضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ ، ذلك المشروع الذي ما كان له ان ينجح إذا لم يكن لبريطانيا سيطرة وحماية على اليهود المهاجرين إلى فلسطين ، لتتمكن من تكثيف تواجدهم ومن ثم السيطرة عليهم ، حتى تنهار الإمبراطورية العثمانية فتنتقل مرحلة أخرى من مراحل تنفيذ المشروع الصهيوني .

ففي خلال الأزمة التي وقعت بين سلطان الدولة العثمانية وبين محمد علي والي مصر من ١٨٣٩م حتى ١٨٤١م ، أخذ اللورد بالمرستون وزير الخارجية البريطانية وقتذاك يرسل تباعاً مذكرات إلى لورد بونسنبي السفير البريطاني في الاستانة ، يطلب فيها من السفير ان يقترح على سلطان الدولة العثمانية السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين واستيطانها ، لأن اليهود قوم ذو نفوذ وقوة وثراء وسوف تستفيد الإمبراطورية العثمانية من الثروات الضخمة التي سوف يحملها اليهود معهم إلى فلسطين وأن اليهود يشكلون حاجزاً بشرياً « في وجه محمد علي أو خليفته بمنعهما من تنفيذ رغبات شريرة يفكران فيها مستقبلاً » فإذا أصدر السلطان مرسوماً يبيح لليهود الهجرة إلى فلسطين فإن مثل هذا المرسوم يشيع جواً ودياً نحو السلطان في الأوساط اليهودية في أوروبا وسيكون له أصدقاء نافعون في دول كثيرة الأمر الذي يعود بأطيب النتائج على قضية السلطان في نزاعه مع محمد علي ، والحق ان رسائل بالمرستون إلى السفير البريطاني في الاستانة بخصوص توطين اليهود في فلسطين ، قد تتابعت في سنتي ١٨٤٠ - ١٨٤١م وتبنى قضية يهود الدولة العثمانية رسمياً ، وأسس اثناء انهماكه في

النزاع مع محمد علي سنة ١٨٣٩م أول قنصلية بريطانية في القدس يشغلها نائب القنصل لحماية يهودها وأضفاء رعاية خاصة عليهم وانتهى به تحمسه لقضية اليهود إلى أنه أعلن في مذكرة مؤرخة في ٢٨ فبراير ١٨٤١م ان بريطانيا مسؤولة عن تحقيق مشروع اسكان اليهود في فلسطين(٢٣) .

ان مجمل نشاطات مونطفيوري لم تسفر عن تحسن يذكر في أوضاع اليهود في فلسطين غير ان الفشل لم يكن من نصيب مشاريعه كلها . ففي زيارته الرابعة لفلسطين سنة ١٨٥٥م عرج على اسطمبول حيث قابل السلطان هناك للمرة الثانية وحصل منه على فرمان آخر سمح له بموجبة بشراء مساحة من الأرض في القدس خارج سور المدينة خصصت لإقامة مستشفى عليها . ولكن مونطفيوري عدل خططه بعد ذلك بناء على نصيحة وجهاء اليهود في القدس الذين اقترحوا اقامة مساكن شعبية على تلك الأرض ، بدلاً من اقامة مستشفى ، نظراً لإزدحام الحي الذي يسكنه اليهود داخل السور فبوشر ببناء تلك المساكن سنة ١٨٥٩م . ولما حاولت السلطات العثمانية ايقاف أعمال البناء ، لأنها تخالف تعليمات الفرمان الذي منحه السلطان لمونطفيوري تدخل القنصل البريطاني في القدس طالباً العون من حكومته التي أوعزت إلى سفيرها في اسطمبول بمعالجة المشكلة ، فصدر على أثر ذلك أمر يسمح باستمرار البناء . وبعمله هذا وضع مونطفيوري ومن حيث لا يدري ، الأسس لأول حي سكني يهودي في فلسطين — وفي القدس بالذات (وعرف فيما بعد باسم حي « يمين موشي ») — أصبح نواة للجزء اليهودي من المدينة الذي شيد خارج سورها . وكان تدخل القنصل البريطاني في الأمر فاتحة لتدخلات عديدة مماثلة في المستقبل واشارة للدور الذي قدر لبريطانيا ان تلعبه في دعم الكيان الصهيوني في فلسطين وحمايته ، خلال حكم الانتداب البريطاني . وجاءت اقامة ذلك الحي بمثابة وضع حجر الأساس لأحياء مماثلة ، حيث قام يهود القدس حتى سنة ١٨٩٢م بانشاء ثمانية أحياء سكن أخرى في الناحية نفسها من المدينة — أقيم جزء منها بمساعدة صندوق مالي (مزكيرت موشي — ذكرى موشي) الذي أسس تخليداً لذكرى مونطفيوري وترأسه ميخل بينس(٢٤) .

وكلما كانت الدولة العثمانية تزداد ضعفاً كانت الدول الاستعمارية تزداد نهماً في

الحصول على الإمتيازات التي تخولها مزيداً من التدخل في شئون الدولة العثمانية الداخلية .

جرى توسيع نظام الحماية حتى أصبح الكثيرون من اليهود والمسيحيين سكان الإمبراطورية العثمانية بمثابة مواطنين للدول الأجنبية التي تتولى حمايتهم بواسطة قناصلها المنتشرين في كافة أنحاء الإمبراطورية ، بعد ان فقدت السلطات العثمانية الإدارية والتشريعية ، صلاحياتها تجاههم ، التي حولت إلى قناصل الدول الأجنبية ، وأصبحت بحد ذاتها احدى الوسائل لتدخل تلك الدول في الشئون العثمانية الداخلية . وكانت السلطات قد منحت امتيازات الحماية ، ١٧٣٥م لفرنسا وسنة ١٨٣٠م لكل من بريطانيا وهولندا والنمسا وروسيا والمانيا والولايات المتحدة[٢٥] .

وهكذا تصرفت القنصلية الألمانية في القدس ، التي افتتحت سنة ١٨٤٢م ، فمنحت الحماية الألمانية لكل من طلبها ، من خلال التغاضي عن صحة المستندات التي قدمت لتأييد طلب منح الحماية ، التي منحت لكثيرين من اليهود الذين لم يكونوا فعلاً من أصل ألماني . وحذت دول أوروبية أخرى بعد ذلك حذو بريطانيا وألمانيا . وأسفر هذا النشاط ، في نهاية الأمر عن ازدياد عدد اليهود الذين تمتعوا بالحماية الأجنبية بحيث بلغ مع منتصف الخمسينيات نحو ٥٠٠٠ نسمة أي ما يقارب نصف عدد اليهود في فلسطين آنذاك – كان منهم نحو ٣٠٠٠ نسمة تحت الحماية النمساوية ، و ١٠٠٠ نسمة تحت حماية بريطانيا و ١٠٠٠ نسمة تحت حماية ألمانيا وروسيا وهولندا والولايات المتحدة . ومن ناحية ثانية وسعت هذه القنصليات نشاطها ، مع مرور الزمن وأقامت فروعاً لها في أماكن مختلفة في فلسطين ، خارج القدس ، وقد أسدت هذه القنصليات وفروعها المختلفة خدمات قيمة لليهود في فلسطين ، وساعدتهم على تعميق جذورهم فيها ، وذلك من خلال منعها السلطات العثمانية ، أحياناً ، حتى من تطبيق القوانين المعمول بها عليهم ، حتى صعب تصور وجود أي كيان لليهود هناك دون حماية القناصل الأجانب . وكان نشاط القناصل ملموساً ، بشكل خاص في مساعدة اليهود ، على شراء الأراضي في فلسطين والاستيطان فيها[٢٦] .

ولقد كان قناصل الدول الأجنبية يوجهون إهتمامهم لليهود في الدولة العثمانية بحجة المحافظة على حقوقهم بينما كانوا يقومون في البلاد الأخرى بتوجيه الإضطهاد لهم وتحريض الشعوب ضدهم ليهاجروا إلى فلسطين ، ولينفذوا بهؤلاء المهجَّرين الضحايا المشروع الصهيوني الاستعماري الذي لم يكن يخطر على بال اليهود بأي شكل من الأشكال .

بعد عام ١٨٤٠م وجه اليهود الغربيون – من بريطانيين وفرنسيين وألمان ونمساويين وأمريكيين – آهتمامهم نحو حقوق اليهود في الامبراطورية العثمانية ومختلف الأقاليم التابعة لها والحائزة على قسط من الاستقلال الذاتي . إن هذا الإهتمام والتورط كان « نتيجة طبيعية للمكانة الخاصة التي أخذت الدول الأوروبية تحتلها في الشئون العثمانية » . ولكن بريطانيا هي التي بدأت على نحو منظم ببسط رداء حمايتها فوق الطائفة اليهودية في فلسطين ، ومن جملة الذين نالوا الحماية أولئك المستوطنون اليهود الروس بعد ان اقدمت السلطات الروسية بين ١٨٤٧ – ١٨٤٩م على « الموافقة بتسليمهم للحماية البريطانية » . ولقد جاء قرار بالمرستون عام ١٨٣٩م بحماية اليهود عموماً في فلسطين نتيجة لنفوذ وتأثير اللورد شافتسبري(٢٧) .

وأدى تطوير النفوذ الغربي في المنطقة إلى تغيير لا يستهان به في أوضاع الطائفة اليهودية مثلما استخرج استجابات جديدة . ففي المقام الأول ، كانت زيادة النفوذ الغربي تعني ارتفاعاً لعدد السكان اليهود . إذ بلغ عددهم ١٠٦٠٠ نسمة عام ١٨٥٦م . وارتفع هذا الرقم عام ١٨٧٦م ، في غضون عشرين سنة ، إلى ١٣٩٢٠ . ان هذه الزيادة السكانية ، كما يلاحظ بن هالبرن ، لا يمكن نسبتها إلى تحسن الأوضاع الاقتصادية أو غير ذلك من العوامل العامة التي أفادت البلاد ككل ، بل إلى الحقيقة التالية : « منذ عام ١٨٤٠م فصاعداً كان القناصل الأوروبيون يقيمون في القدس ولقد عملوا سوية مع سفراء الدول الكبرى في الاستانة إلى توفير حمايتهم للحجاج والمستوطنين اليهود من غير الرعايا العثمانيين الذين وفدوا إلى الأراضي المقدسة »(٢٨) .

ولقد كانت الدول الاستعمارية تحرص أشد الحرص على ان تكون واجهة النشاط

الصهيوني من قبل بعض اليهود الصهاينة ليكون ذلك غطاء لها أمام اليهود الآخرين وأمام الرأي العام .

وسعى الرواد الأوائل من يهود ألمانيا في عام ١٨٦٠م إلى الهجرة إلى فلسطين ، وقد تزعم هذه الحركة رجل يهودي يدعى « هوفمان » من بلدة ورتنبرغ بألمانيا ، وكانت دعوته ذات مظهر ديني ، فأسس جمعية دينية عرفت بأسم « تامبل » أو « جمعية محبي القدس الشريف » . وقبل ان تبدأ الجمعية نشاطها المنظم أرسلت كلا من رئيسها « هوفمان » مع يهودي آخر هو « هاردج » وذلك في عام ١٨٦٨م ، وطلبا من السلطان عبد العزيز ترخيصاً بتأسيس مستعمرة يهودية ألمانية في الأراضي المقدسة يقطنها المهاجرون اليهود . وبالفعل فقد تم لهم الاذن فيما طلباه ، فتوجه « هوفمان » و « هاردج » إلى حيفا ومناطق أخرى في سوريا للاطلاع على الأمكانيات المتوفرة والتخطيط للاستيطان اليهودي الألماني .

وفي عام ١٨٦٩م بدأت قوافل « ورتنبرغ » تطأ أرض فلسطين حيث استقرت في حيفا ، وقام « هوفمان » بابتياع أراضي في يافا والقدس وأسكن فيها المهاجرين الألمان الذين اسسوا قرية « صارونة » التي تبعد عن يافا ثلاثة أرباع الساعة . وقد اصابت الفاقة والعوز قسماً كبيراً من المهاجرين لاسيما في حيفا فأنشأت لهم قرية ويلهلمة (حميدية) وذلك عام ١٩٠٠م[٢٩] .

وكان لامدادات الأليانس الاسرائيلي العالمي أثر واضح في تدعيم عمليات الهجرة والاستيطان بعد تأسيسه عام ١٨٦٠م بفرنسا بواسطة ستة أشخاص من اليهود الفرنسيين البارزين ، وهدفه تحرير اليهود من الجهل والتشتت والدفاع عن مصالحهم حيثما وجدوا . وكان الأليانس يولي أهمية كبرى لتعليم اللغة الفرنسية إلى جانب العبرية ، ولذلك بدأ بإرسال المندوبين إلى فلسطين لدراسة أوضاعها والبحث عن سبل لاستملاك الأراضي لتكون بمثابة نواة لمستعمرات يهودية تعد لإستقبال المهاجرين اليهود . وقد نجح رئيس الأليانس « أودلف كريميه » — النائب الاسرائيلي في مجلس النواب الفرنسي — عام ١٨٦٨م في الحصول على ميثاق من السلطان العثماني عبد العزيز يمنح الأليانس أرضاً تبلغ مساحتها ٢٦٠٠ دونم بالقرب من يافا ، بموجب

عقد إيجار مدته ١٩ عاماً لإنشاء مدرسة زراعية ، وقد تم بناء المدرسة عام ١٨٧٠م بالتعاون مع البارون « ادمونـد روتشيلد » وعرفت باسم مدرسة « شارل نتر » ممول عملية الشراء والبناء وهو يهودي فرنسي ، وعرفت أيضاً بإسم «مكفة اسرائيل » أي « أمـل اسرائيل »(٣٠) .

ولقد كان موقف عرب فلسطين من هذا النشاط المبكر للاستعمار الصهيوني ، هو موقف التصدي والمقاومة فقد أثارت هجرة اليهود إلى فلسطين تخوف عرب فلسطين من الاستيطان اليهودي ، فقد وردت أول اشارة مبكرة لذلك من القدس في رسالة نشرتها مجلة الجوائب اللبنانية في عددها ٨/٣٥٦ عام ١٨٦٨م ، ذكر فيها الكاتب عن قدوم أحد اعضاء الجمعية الاسرائيلية في باريس (الاليانس) إلى القدس وقال فيها « ان مراد الجمعية ان تشتري حقولاً ومزارع في الأراضي المقدسة ليتعلم أولاد اليهود الزراعة والحراثة » ويلفت الكاتب نظر الدولة العليا ان تنظر في أمرنا وتتدارك أحوالنا ، وإلا فإن اليهود لا يلبثون ان يجلونا من هذه الأرض كما أجليناهم من جزيرة العرب » .

ومنذ أن تأسست مستعمرة « بتـاح تكفـا » والتي تعني الأمل في عام ١٨٧٨م ، احتج رؤوف باشا حاكم القدس التركي إلى القنصلين الألماني والروسي لانتشار فكرة أحلام العودة إلى فلسطين بين اليهود وأوضح الحاكم ان ما يفعله ضد هذه المستوطات إنما هو لإزالة هذا الحلم وتشجيع عرب فلسطين فقاموا باحتلال الأراضي التي استولى عليها اليهود ، وتكرر الهجوم من العرب مع زيادة الهجرة إلى فلسطين(٣١) .

وبالرغم من إعلان الموقف العثماني وإصدار قوانين ١٨٨٢م الخاصة بالهجرة اليهودية إلى الدولة العثمانية ، فقد استمر اليهود في محاولاتهم لإقناع السلطان عبد الحميد الثاني ، وتوجه كثير منهم إلى القسطنطينية ليغيروا قانون الهجرة ، وكان في مقدمة من ذهب لهذه الغاية « لورنس أوليفانت » الذي طلب وساطة السفير الامريكي . ولكن هذه الجهود لم تثن السلطات العثمانية عن التمسك بقانون منع اليهود من الإقامة بفلسطين . ونتيجة لإزدياد شكوك السلطان بالتحرك الصهيوني أفهم المبعوث اليهودي « أوليفانت » ، بأن اليهود يستطيعون العيش بسلام في أية جهة من

المملكة إلا في فلسطين ، وإن الدولة العثمانية ترحب بالمضطهدين ولكنها لا ترحب بإقامة مملكة لليهود في فلسطين يكون اساسها الدين . والحقيقة ان « أوليفانت » صدم من موقف السلطان العثماني وراح ينشر الدعايات ضده ، فما كان من السلطان إلا أن طرده من استانبول ومنعه من دخولها ، فأخذ المبعوث الصهيوني يكرر محاولته ثانية ووسط « استراوس » وزير امريكا المفوض في استانبول — الذي اجتمع بالسلطان لاقناعه بالهجرة اليهودية إلى فلسطين ولكن السلطان افهمه صراحة ان لا أمل ببقاء اليهود في فلسطين[٣٢] .

وعندما كانت الحكومة القيصرية تقوم بتحريض الجمهور على القيام بالمذابح ضد اليهود في ١٨٨٢م وما بعدها ، كانت الحكومة نفسها تسمح للصهاينة بتشكيل الجمعيات للدعوة للصهيونية ، وتهجير اليهود خارج روسيا ليتوجهوا إلى فلسطين . وكانت تلك الدعوة بتوجيه وتشجيع من جميع الدول الاستعمارية بالاضافة إلى روسيا القيصرية . وكانت (جمعية أحباء صهيون) من أوائل الجمعيات التي شكلت في روسيا للقيام بهذه المهمة .

وقد كان لجمعية « أحباء صهيون » هذه دور بارز في تنظيم الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وبين عامي ١٨٨٢ و ١٨٨٤م تأسست مستوطنات زراعية عديدة كان لها الفضل الأول في تأسيسها وقامت بنشاط ملحوظ لدى السلطات العثمانية ، ففي عام ١٨٨٢م تقدمت من القنصل العثماني في أوديسا للحصول على إذن بالهجرة إلى فلسطين والاستيطان فيها ، ولكن الحكومة التركية أوعزت إلى القنصل في نيسان (أبريل) عام ١٨٨٢م برفض هذا الطلب ، واشعار جميع اليهود الراغبين في الهجرة إلى الدولة العثمانية بأنه لن يسمح لهم بالاستقرار في فلسطين ، على أنه لا يعني ذلك السماح لهم بالهجرة إلى المناطق العثمانية الأخرى والاستقرار فيها كيفما شاؤوا ، بل عليهم ان يصبحوا رعايا عثمانيين وان يقبلوا تطبيق القوانين المعمول بها في الامبراطورية[٣٣] .

وقد كانت الدولة العثمانية ، وخاصة السلطان عبد الحميد الثاني نفسه ، على اطلاع بتلك الخطط الاستعمارية . ولقد كانت الشكوك التركية في الهجرة والاستيطان

اليهودي قديمة ، كما شرح ذلك القنصل البريطاني في القدس بلش في رسالته إلى السفير أوكنر في الاستانة في ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٧م ، وهو يوضح تطور الموقف العثماني من التدفق اليهودي ، وأضاف : « أنه حين اضطهد اليهود في روسيا سنة ١٨٨١ - ١٨٨٢م لم يكن للسكان اليهود في فلسطين أية أهمية ... ولكن منذ ١٨٨٢م بدأ تيار الهجرة يتدفق ... ومرت خمس سنوات قبل ان تتحقق الحكومة التركية من ان هناك خطراً ينجم عن استيطان اليهود الأجانب بأعداد كبيرة داخل أقليمها ، وفي عام ١٨٨٧م فقد صدرت الأوامر الاولى من أجل الهجرة ... وظلت هذه الأوامر تتكرر دوماً بتعديل طفيف وكانت الأوامر الاولى التي وجهت إلى حكام القدس ويافا تسمح لليهود بالدخول إلى البلاد فقط كحجاج أو زوار وكل يهودي يصل إلى يافا عليه ان يدفع ٥٠ ليرة تركية كتعهد بأن يغادر فلسطين خلال ٣١ يوماً [٣٤] .

وإستمر تهجير اليهود إلى فلسطين يزداد بإزدياد المذابح التي تقع عليهم وبإزدياد النشاط الاستعماري وقناصل الدول الاستعمارية التي تعمل في هذا الاتجاه . وكانت وفود المهاجرين تفد إلى الأرض المقدسة دون أي سند ، اللهم إلا نظام الامتيازات الأجنبية الذي كان سائداً في الإمبراطورية العثمانية والذي كان يبيح للدول الأجنبية التدخل باسم « حماية رعاياها » لتوفر لهم في ممتلكات « الدولة العلية » وضعاً يفضل وضع المواطن الأصلي في كثير من الأمور[٣٥] .

وفي الاستانة حث هرتزل الوزير المفوض اليهودي الامريكي ، على مواصلة جهوده مع الحكومة العثمانية للحصول على بعض الإمتيازات الخاصة باليهود وبالفعل فقد حصل على بعض الإمتيازات منها : حرية سفر المبشرين وتنقلاتهم في آسيا الصغرى وعدم التمييز في المعاملة بين الامريكيين المسيحيين والامريكيين اليهود أي السماح لليهود الامريكيين بالسفر إلى سوريا وفلسطين .

فلقد أبرق « فاروق بك » وزير تركيا المفوض في واشنطن إلى السلطان « عبد الحميد » يقول له : « لقد اتممت مباحثاتي مع وزارة الخارجية الامريكية واتفقنا على علم السماح للمبشرين واليهود بدخول سوريا وفلسطين » . فما كان من السلطان إلا

أن أعلم الوزير الامريكي بهذه الاتفاقية ، فأستفسر « ستراوس » من وزارة الخارجية الامريكية عن مدى صحة برقية فاروق بك إلى السلطان ، فنفت وزارته هذا التقرير وهذا الزعم ، فأطلع السلطان على رد وزارة الخارجية الأمريكية وطلب منه عزل « فاروق بك » إلا أن السلطان عبد الحميد ابتسم « لستراوس » وقال له : « ان فاروقاً عزيزاً علي كأحد ابنائي ويدين لي بتربيته ... وانصرف ستراوس يائساً وضاعت الإمتيازات والانتصارات » وكان هذا الموقف الذي اتخذه السلطان يعني موافقته على ما جاء في تقرير « فاروق بك » بغض النظر عن صحته ولعل السلطان هو الذي أوحى لفاروق بك إرسال ذلك التقرير كي تتملص حكومته من تلك الأمتيازات مما أدى إلى توتر العلاقات الأمريكية العثمانية ومغادرة « ستراوس » الاستانة في عام ١٨٩٩(٣٦) .

وكان نشاط الامريكان في هذا المجال ملحوظاً أيضاً . إذ لم تكن أمريكا أقل تطلعاً إلى تنفيذ المشروع الصهيوني من دول أوروبا الاستعمارية .

وقد قام الأب سيلا ميول بجهود كبيرة في هذا الميدان وكان الأب سيلاميول قد أرسل للعمل في القنصلية الأمريكية في القدس عام ١٨٨٢م . وتولى إلى جانب منصبه الديني وظيفة مراقب وخبير في شئون المنطقة . وقد عمل ما يقارب ثلاثين عاماً في القنصلية الأمريكية في القدس ، وتعرف عن كثب على أهداف الهجرة اليهودية والحركة الصهيونية . ونظراً لخبرته وكفاءته في الميدان السياسي أصبح عام ١٨٩١م قنصلاً في القدس مكان القنصل السابق « هيلمين » .

ويذكر « سلاميول » ان جميع القيود التي وضعها الأتراك على الهجرة اليهودية لم تثمر ولم تصد التيار الجارف ، وبلغ عدد المهاجرين اليهود الذين كانوا يستقرون في البلاد كل عام نحو سبعة آلاف وهذا العدد هو العدد الصحيح الذي توصلت إليه تحرياتي مع الدوائر اليهودية . أما الحكومة التركية فتقدر العدد بأربعة آلاف فقط لأنها تبني تقديراتها على عدد المهاجرين الذين يأتون عن طريق يافا فقط مع ان اليهود الآن تعلموا أساليب التهريب . فهم يتسللون من بيروت ومن غيرها حتى يتفادوا مراقبة السلطات . ولعبت السياسة البريطانية والأمريكية دوراً فعالاً في انجاح عملية التهريب وشراء الأراضي بأساليب ملتوية . وكان « ستراوس » وزير أمريكا المفوض في استنبول منذ

عام ١٨٨١م – وهو يهودي ومن بعده الوزير المفوض سلمون هيرش وهو يهودي أيضاً – قد توسط لدى « سعيد باشا » أحد كبار المسؤولين في الحكومة العثمانية بالسماح لليهود بتمديد زيارتهم للأراضي المقدسة من شهر إلى ثلاثة أشهر ، وهو الذي اتجه إلى يافا للتدخل لدى السلطات العثمانية المحلية لاطلاق سراح ٤٠٠ مهاجر يهودي كانوا في السجن بعد اتهامهم بالدخول خلسة إلى فلسطين بطريقة غير قانونية[٣٧] .

ولقد وجدت الدول الاستعمارية مع الأسف من الموظفين الأتراك من يعاونونها على تنفيذ مخططاتها ، نظير ما يتقاضونه من رشوة ، وما يقدم لهم من هدايا .

والجدير بالذكر انه خلافاً للموقف العثماني الرسمي الممثل بالسلطان وحكومته . فإن الإدارة العثمانية المحلية في فلسطين كانت تتحايل على القانون وتتعاون مع القناصل الأجانب والمهاجرين اليهود لتسهيل دحولهم إلى فلسطين دون تسجيل اسمائهم على اللائحة الخاصة بالزوار ، وهكذا استمرت الهجرة اليهودية عن طريق رشوة الموظفين العثمانيين ومعونة قناصل الدول الأجنبية ، لاسيما القناصل الروس والألمان والانجليز والامريكيين ، خاصة وان الولايات المتحدة الامريكية كانت قد حددت هجرة اليهود إليها أيضاً عام ١٨٨٢م [٣٨] .

وظل العمل بنظام الحماية الذي تمتعت به الدول الاستعمارية إلى ما بعد سقوط السلطان عبد الحميد الثاني بل وإزداد تدخل تلك الدول في شئون الدولة العثمانية بعد استيلاء الاتحاديين على الحكم .

ولكن بعد ان انكشف موقف الصهاينة اليهود ، وبعد إن شعر الحكام الجدد إلى أي مدى تورطوا في نعاونهم مع الصهاينة والماسونيين المرتبطين بالاستعمار الغربي ، عمدوا إلى تغيير موقفهم من اليهود إبان الحرب أيضاً فقد الغت تركيا امتيازات الحماية التي كان المواطنين الأجانب ومن ضمنهم المهاجرين اليهود يتمتعون بها واعتبرت تركيا يهود روسيا مواطني دولة معادية كانت في حالة حرب مع تركيا فأضطر حوالي ٣٠ ألف يهودي إلى النزوح من فلسطين وبذلك وصل عدد السكان اليهود فيها في نهاية الحرب إلى نحو ٥٦ ألف نسمة بدلاً من ٨٥ ألف عند بدايتها[٣٩] .

بل ونال اليهود أيضاً في فلسطين نصيبهم من سياسة الاضطهاد والتي انتهجها جمال باشا في سوريا الكبرى فقامت السلطات العثمانية بحظر النشاط الصهيوني في البلد ، وأمرت بحل كل المنظمات الصهيونية العاملة فيه وقام جمال باشا بنفي عدد من الزعماء الصهيونيين البارزين من فلسطين وكان من بينهم دافيد بن غوريون واسحق بن زفي وغيرهم . كما اشتدت الاجراءات القمعية ضد اليهود في آواخر عام ١٩١٧م عندما اكتشفت السلطات العثمانية شبكة تجسس (نيلي) وتعمل بين يهود فلسطين لصالح بريطانيا ونتيجة لذلك فرض الأتراك حصاراً حول بعض المستوطنات اليهودية ونكلت بسكانها واعتقلت اعداداً كبيرة منهم وأعدمت بعض قادة شبكة التجسس (نيلي) وزاد من حدة الإجراءات التي أتخذت ضد سكان المستوطنات اليهود الاضطراب الذي ساد في صفوف القوات التركية مع بدء الهجوم البريطاني من سيناء على جنوب فلسطين[٤٠] .

ولكن ذلك كله لم يكن له أي تأثير يذكر على مجرى الأحداث ، بعد ان تأكدت هزيمة تركيا وحليفتها ألمانيا ، وأصبح انتصار الحلفاء ، ومن ثم وضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ مسألة وقت وهذا ما حصل بالفعل .

مراجـــع
تآمر الدول الاستعمارية على الدولة العثمانية

١- بديعـــة أميـــن : المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية ، ص ١٤٦ ، دار الطليعة ، بيروت ط. ١٩٧٤ .

٢- سميـــر جريـــس : القدس / المخططات الصهيونيـة/ الاحتلال والتهويد ، ص ١٨ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ١٩٨١ .

٣- د. صادق جلال العظم : الصهيونية والصراع الطبقي ، ص ٥٩ ، دار العودة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٥ .

٤- بديعـــة أميـــن : المصدر السابق ص ١٥٠ .

٥- يـــوري ايفانـــوف : الصهيونية .. حذار ، ص ٣١-٣٢ ، ترجمة ماهر عسل ، الهيئة العامة للتأليف والنشر ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

٦- بييـــر روســـي : مفاتيح الحرب (الاسرار الكامنة وراء حرب حزيران سنة ١٩٦٧) ترجمة يوسف مزاحم ، ص ٦٧ ، دار العروبة ، بيروت ، ١٩٧٣ .

٧- د. أميـــل تومـــا : جذور القضية الفلسطينية – منظمة التحرير الفلسطينية (دراسات فلسطينية – ٩٢) ، ص ١٤ ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٧٣ .

٨- خالد الحسن : فلسطين وأوروبا ص ٣٥ ، دار الكلمة للنشر ، ط ١ ، ١٩٨١ .

٩- د. حسن صبرى الخولي : سياسة الاستعمار والصهيونية – تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين ، المجلد الأول ص ١٠٧ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٣ .

١٠- بيير ديستريا : من السويس إلى العقبة – ترجمة يوسف مزاحم – ص ٤٣ ، دار العروبة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٧٤ .

١١- د. حسن صبري الخولي : المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

١٢- د. حسن صبري الخولي : المصدر السابق ، ص ١٠٦ – ١٠٧.

١٣- حسان علي حلاق : موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية (١٨٩٧ – ١٩٠٩) ص ٢١٣-٢١٤ ، الدار الجامعية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٠ .

١٤- بول بالطا وكلودين ريللو : سياسة فرنسا في البلاد العربية ، ص ١٩ ، ترجمة كامل فاعور – نخلة فريفر ، دار القدس ، بيروت .

١٥- حسان علي حلاق : المصدر السابق ، ص ٢٨٧ .

١٦- يوري ايفانوف : المصدر السابق ، ص ٣٢ – ٣٣ .

١٧- بديعة أمين : المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

١٨- حسان علي حلاق : المصدر السابق ، ص ٢٨٢ .

١٩- حسان علي حلاق : المصدر السابق ، ص ٢٢٧

٢٠- د. إسماعيل صبري عبد الله : في مواجهة اسرائيل ، ص ١٣/١٤/١٥ ، دار الوحدة للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٠ .

٢١- صبري جريس : تاريخ الصهيونية - الجزء الأول (١٨٦٢-١٩١٧)، ص ٦٦ ، م.ت.ف. مركز الابحاث ، بيروت ١٩٨١ .

٢٢- صبري جريس : المصدر السابق ، ص ٦٢-٦٣ .

٢٣- د. حسن صبري الخولي : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين - المجلد الأول ، ص ١٣-١٤ ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٧٣ .

٢٤- صبري جريس : المصدر السابق ، ص ٦٦-٦٧ .

٢٥- صبري جريس : المصدر السابق ، ص ٦٢ .

٢٦- صبري جريس : المصدر السابق ، ص ٦٣-٦٤ .

٢٧- ريتشارد . ب. ستيفنز : الصهيونية كمرحلة من مراحل الامبريالية الغربية ، ص ٤٣ ، تهويد فلسطين - إعداد وتحرير د. إبراهيم أبو لغد ، ترجمة د. أسعد رزوق . م.ت.ف. مركز الابحاث ، بيروت ١٩٧٢ .

٢٨- ريتشارد . ب. ستيفنز : المصدر السابق ، ص ٤٣ .

٢٩- حسان علي حلاق : موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧-١٩٠٩ ، ص ٨٤-٨٥ ، الدار الجامعية ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٠ .

٣٠- حسان علي حلاق : المصدر السابق ، ص ٨٥ .

٣١- د. إسماعيل أحمد ياغي : موقف عرب فلسطين من الهجرة اليهودية والصهيونية (١٨٨٢ - ١٩١٤) ، ص ٤ ، بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين) .

٣٢- حسان علي حلاق : المصدر السابق ، ص ٩٥-٩٦ .

٣٣- حسان علي حلاق : المصدر السابق ، ص ٩٥ .

٣٤- د. خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه (١٩٠٨-١٩١٨) ، ص ٢٣ ، م.ت.ف مركز الابحاث ، بيروت ١٩٧٣ .

٣٥- د. إسماعيل صبري عبد الله : المصدر السابق ، ص ٢٤-٢٥ .

٣٦- حسان علي حلاق : المصدر السابق ، ص ١٥٧-١٥٨ .

٣٧- حسان علي حلاق : المصدر السابق ، ص ٩٨-٩٩ .

٣٨- حسان علي حلاق : المصدر السابق ، ص ٩٦ .

٣٩- د. إسماعيل أحمد ياغي : المصدر السابق ، ص ١٨ .

٤٠- د. إسماعيل أحمد ياغي : المصدر السابق ، ص ١٨ .

الفصـــل الرابـــع

تفجيـر الدولـة العثمانيـة بالحركـات القوميـة

١- القوميـــة التركيـــة :
- دور الماسونية ويهود الدونمة في نشاط تركيا الفتاة .
- الثـورة ضد السلطـــان .
- دور البترول في إسقاط السلطان .

٢- القوميـــة العربيـــة .

« إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا عليَّ بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين . ورغم اصرارهم فلم أقبل بصورة قطعيه هذا التكليف » .

السلطان عبد الحميد

« أتعرف يا جمال :

نحن لم نعرف السلطان عبد الحميد فأصبحنا آلة بيد الصهيونية !! » .

أنور باشا*

★أشهر القادة الثلاثة الذين قادوا الانقلاب ضد السلطان عام ١٩٠٨م .

الحركات القومية في الدولة العثمانية

مقـــــدمة :

لم يكن غائباً عن مخططات المستعمرين الغربيين محاولات القوميات المختلفة في الدولة العثمانية للتحرر والتقدم ، ومجاراة الشعوب المتقدمة في التعليم والنمو والترقي ، خاصة بعد ان قطعت الشعوب الاوروبية شوطاً بعيداً في هذا المضمار .

ولقد كان هناك عدد كبير من الشخصيات العثمانية التي تنتمي إلى عدة قوميات ، ممن تلقوا تعليمهم في الدول الاوروبية أو في المدارس والمعاهد والكليات التابعة لها أو لإرسالياتها التبشيرية . وأخذ هؤلاء يحملون الفكر الغربي التحرري ، ويسعون جاهدين لنشر افكارهم بين شعوبهم لمطالبة الحكومة العثمانية بإتخاذ خطوات تقدمية نحو الحرية والديمقراطية .

وكانت الدول الاستعمارية تقيم أوثق العلاقات الفكرية والثقافية ، بل وأكثر من ذلك تقيم نوعاً من العلاقات السياسية مع كثير من تلك الشخصيات وذلك لاستغلالهم ضمن المخطط الاستعماري لتلك الدول .

ففي الوقت الذي كانت تنشط فيه الحركات القومية من تركية وعربية وبلغارية ، وغير ذلك ، لتحقيق آمال شعوبها في التقدم ، كان للاستعمار هدف آخر وهو استغلال تلك الحركات القومية لتفجير الدولة العثمانية من الداخل ، ومن ثم توزيع ممتلكاتها بين تلك الدول الاستعمارية المتنافسة ، وهذا ما حصل بالفعل .

كانت الدولة العثمانية تتألف من خليط متعدد من الشعوب والقوميات يحكمها العثمانيون الأتراك بمشاركة عدد من الموظفين والمستشارين الذين ينتمون إلى عدد من القوميات المختلفة .

وكانت العقيدة الحاكمة في تلك الدولة هي الإسلام الذي انضوى تحت لوائه جميع الشعوب الإسلامية التي أعتبرت ان السلطان العثماني هو خليفة المسلمين وقائدهم ، بينما كانت الشعوب غير الإسلامية تعتبر نفسها تحت حكم أجنبي يجب التخلص منه .

وفي القرن التاسع عشر بدأ الفساد ينتشر في جسم الدولة ، وذلك لأسباب عديدة أهمها وصول سلاطين وحكومات إلى السلطة ، لم يكونوا يهتمون بأحوال رعاياهم بمقدار ما يهتمون بملاذهم ، وأهوائهم ومصالحهم . وترتب على ذلك انتشار الجهل والتخلف والفساد والرشوة في أنحاء الدولة ، في الوقت الذي قطعت فيه الشعوب الأوروبية شوطاً بعيداً في ميدان التقدم العلمي والاقتصادي والعسكري .

ونتيجة لتلك الأوضاع ، بدأ كثير من الشعوب في الدولة العثمانية تتطلع إلى أوروبا معجبة بما وصلت إليه من تقدم والذي فسر بأنه نتيجة طبيعية للأخذ بأساليب الحياة العلمانية في الغرب .

وبدأ الجيل الجديد في الدولة العثمانية يتطلع إلى الغرب ومدارسه وكلياته ، والتي قبلت عدداً كبيراً من الطلبة العثمانيين من قوميات مختلفة وتلقوا تعليماً عصرياً أوروبياً ، يختلف اختلافاً جوهرياً عن التعليم الذي كان زملاؤهم يتلقونه في مدارس الدولة العثمانية .

أما الجيل الذي كان قد تلقى ثقافته في عواصم أوروبا أو في بعض الكليات العصرية في تركيا فقد نشأ على الاستهانة بقيم الدين واليأس من مستقبله وكراهية رجاله واحتقارهم وعلى تقديس الحضارة الغربية ، فقد في هذا الجيل العقل النابغ المتعمق الذي يقدر على نقد فلسفة الحياة الغربية ومعرفة جوانب الضعف فيها وجوانب الافراط والتطرف ومعرفة ما يصلح لتركيا الزعيمة للعالم الإسلامي اقتباسه والافادة منه وما لا

يصلح ولا يتفق مع طبيعتها وتاريخها ومكانتها في العالم ومركزها في الشرق الإسلامي ، وأكثرهم من نوع العسكريين والمعلمين وهم لم تكن ثقافتهم واسعة ولا عميقة ولا حرة أو الذين انتهت بهم تجارب حياتهم الخاصة وما لقوا من العلماء (المحافظين) من تثبيط أو عدم تشجيع وما جربوه فيهم من جمود وضيق تفكير وما رأوه في الجيل المسلم القديم وزعمائه من النفاق يقولون ما لا يفعلون وينهون عن شيء ويأتونه أو ما شاهدوه في البلاد من تأخر وضعف انتهى بهم كل ذلك إلى الثورة على كل قديم وعلى كل موجود وإلى التصميم على تغريب تركيا[١] .

ومن الطبيعي ان هؤلاء الذين تلقوا تعليمهم في الغرب أو في مدارسه التبشيرية التابعة للدول الاستعمارية ، في الشرق ، ان ينقلوا افكارهم إلى بني جلدتهم وإلى زملائهم ، ويعملوا جاهدين للتأثير في المجتمع المغلق المتخلف الذي يعيشون فيه .

وقد التقت – كما قلنا سابقاً – مصالح الدول الاستعمارية في هذا التحرك مع تطلعات أولئك الشباب الذين كانوا في غالبيتهم مخلصين في العمل على تحرير الدولة العثمانية من التخلف الذي ينتشر في ربوعها .

وهكذا بدأت تنمو بذور الحركات القومية في تركيا وباقي اقاليم الدولة العثمانية بما فيها البلاد العربية .

ولقد شهد كثير من الاوروبيون ان السلطان عبد الحميد الثاني كان يختلف عن اسلافه بكثير من الصفات التي تؤهله لإصلاح الدولة العثمانية . فقد ترك عبد الحميد في البداية انطباعاً جيداً في بلاده وفي الخارج ، وظل عدة سنوات لا يلقي من شعوبه أية معارضة لحكمه ، كما ان المراقبين الأجانب اجمعوا تقريباً على الثناء على السلطان الجديد . فقد كتب دزرائيلي إلى سالسبوري « إن السلطان الجديد ، تنعقد عليه الآمال حقاً ، فهل يصبح كسليمان العظيم ؟ » بل حتى في العقد الأخير من القرن التاسع عشر كان بمقدور كاتبة ان تقول عنه « إن جِـدّه النادر واقتصاده الفريد ، وأهدافه العتيدة ، وشجاعته المعنوية ، قد اكسبته احترام رعاياه وتقدير الأجانب الذين يزورون عاصمته »[٢]

وقد كان للفئات ، والجماعات غير الإسلامية اليد الطولى في بداية النشاط القومي ، بل وكان بعضهم يعمل متواطئاً مع جهات أجنبية ، خاصة عندما بدأوا في العمل لتشكيل جمعيات قومية سرية سياسية وعسكرية .

ومن تلك الجمعيات وأهمها جمعية الاتحاد والترقي التي تؤكد المعلومات انها بدأت غير تركية وغير إسلامية فلجنة الاتحاد والترقي التي اسستها جماعة صغيرة من الأتراك المنفيين في باريس وجنيف كان معظم قادتها من أصل يهودي أو ألباني[٣].

١- القوميــة التركيــة

دور الماسونية ويهود الدونمة في نشاط تركيا الفتاه :

فمنذ انشائها لم يظهر بين قادتها وزعمائها عضو واحد من أصل تركي خالص فأنور باشا مثلاً هو ابن رجل بولندي ، وكان جاويد من الطائفة اليهودية المعروفة بالدونمة وقارصوه من اليهود الاسبان القاطنين في سلانيك ، وكان طلعت باشا بلغارياً من أصل غجري اعتنق الإسلام ظاهراً ، أما أحمد رضا – أحد زعمائهم في تلك الفترة – فقد كان نصفه شركسياً والنصف الآخر مجرياً . كما ان اليهوديين « نسيم روسو » و « نسيم مازلياح » كانا من العناصر المؤسسة والفعالة في حركة « تركيا الفتاة » . كما أكدت الأحداث المعاصرة عظم نفوذ اليهود وكثرتهم الغالبة في هذه الحركة[٤] .

ويعتبر ايمانويل قاراصو من أهم الشخصيات التي لعبت دوراً هاماً في حركة تركيا الفتاة أيضاً وهو يهودي اسباني الأصل ، كان من اوائل المشتركين في حركة تركيا الفتاة وقد وصفته المصادر الانجليزية بأنه من قادة الاتحاد والترقي . ولعب دوراً هاماً في احتلال ايطاليا لليبيا نظير مبلغ من المال دفعته إليه إيطاليا . وأضطر نتيجة لخيانته للدولة العثمانية أن يهرب إلى إيطاليا ويحصل على حق المواطنة الإيطالية واستقر في

تريستا حيث مات عام ١٩٣٤م . وكان اثناء وجوده في الدولة العثمانية الاستاذ الأعظم لمحفل مقدونيا ريزولتا الماسوني[٥] .

وينسب إليه بعض الفضل في انه عني بفكرة استدعاء اعضاء تركيا الفتاة للاجتماع في المحافل الماسونية (أنظر رثاء عن قراصو نشر في صحيفة التايمس اللندنية في ٨ حزيران « يونية » ١٩٣٤م) . كما كان نيكولايدس لعدة سنوات محرراً لصحيفة (Lo, Orient) الأسبوعية المؤيدة لعبد الحميد والتي كانت تصدر في بروكسل وكان يبدو مقتنعاً ان الماسونية كانت في طريقها لاضعاف إسلامية الأتراك) أما قراصو الذي أصبح فيما بعد بارزاً في جمعية الاتحاد والترقي ، فكان أحد اعضاء الوفد الذي نقل إلى عبد الحميد نبأ خلعه سنة ١٩٠٩م وكان عضواً في البرلمان التركي ، وكان في البرلمان ، شأن بقية الأعضاء اليهود حريصاً على أن يكون تركياً بالدرجة الأولى وقبل كل شيء وهذا موقف تقليدي لليهود الأتراك . ويبدو انه ملأ جيوبه خلال هذه الفترة[٦] .

وفي عام ١٨٨٩م شكل جماعة من طلبة المدرسة الطبية العسكرية الإمبراطورية في استانبول منظمة سرية هدفها الواضح عزل عبد الحميد الثاني ، وكان وراء هذا التشكيل السري رجل ماسوني في ألبانيا اسمه « إبراهيم تيمو » أو أدهم كما كان يسمى احياناً ، وقد اتفق مع عدد من الطلاب على الاشتراك في تلك المنظمة وكان في مقدمتهم : اسحق سكوتي ، وشركس محمد رشيد ، وعبد الله جودت ، وكرديان ، وقد باشرت اعمالها منذ عام ١٨٩١م في جنيف أولاً ثم نقلوها إلى باريس ، وكانوا يعملون على نشر دعوتهم سراً ، واتخذوا لذلك طريق الجيش لبث أفكارهم . وقد أصدر كل من اسحق سكوتي وعبد الله جودت مجلة « عثمانلي » في جنيف لمحاربة السلطان عبد الحميد وتأليب الرأي العام عليه ، وذلك لكسب مؤيدين لتنظيمهم وقد عرف هذا التنظيم بأسم « الاتحاد والترقي » وهو فرع لحزب « تركيا الفتاة » . ونظراً للمخططات المعارضة لحكم السلطان دأب أعضاء الجمعية على عقد اجتماعاتهم السرية في المحافل الماسونية وعقدوا اجتماعاتهم الأولى في المحفل الماسوني الايطالي ، وفتحت السفارات الأجنبية أبوابها لكل مخطط عصيان على السلطان

وكانت انجلترا وفرنسا سابقتين إلى ايواء اللاجئين من معارضي الحكم الحميدي ، وتركتهم يعملون في عواصمها علناً لاسقاط السلطان(٧) .

ويؤكد أرنست أ. رامزور وهو بروفسور امريكي عمل في منصب كبير في وزارة الخارجية بالولايات المتحدة الامريكية هذه الحقيقة بقوله :

« في سنة ١٨٨٩م شكل جماعة من طلبة المدرسة الطبية العسكرية الامبراطورية في استانبول ، منظمة ثورية هدفها الواضح عزل عبد الحميد الثاني ، سلطان الامبراطورية العثمانية والخليفة أو الرئيس الروحي للإسلام(٨) .

لذلك فإن الخطوات الأولى لتنظيم اللجان العسكرية التي قدر لها التأثير في الثورة قامت خارج العاصمة ، وربما قام بها رئيس أول ركن اسمه مصطفى كمال وهو الذي صار فيما بعد مؤسس الجمهورية التركية الحاضرة . لقد تخرج مصطفى كمال من كلية الأركان في كانون الثاني (يناير) ١٩٠٥م ، والظاهر أنه كان ثورياً فعالاً منذ ان كان طالباً فلقد القي عليه القبض في نفس اليوم الذي تخرّج فيه ، ثم أطلق سراحه مع انذار شديد بوجوب الكف عن تصرفاته الصبيانية . وعُين في دمشق حيث وجد عدداً من الرفقاء الناقمين ، فكوّن معهم في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٠٦م جمعية سرية تدعى الوطن . وكان من زملائه في هذا العمل رئيس أول ركن آخر اسمه مفيد أوزداش وآخر اسمه سليمان بك ، وطبيب اسمه حاجي مصطفى بك ولعل هذا الأخير هو المنشيء الفعلي للجمعية ، غير ان مصطفى كمال أو اتاتورك كما صار يدعى فيما بعد هو بالتأكيد عضو مؤسس(٩).

ثم بدأت الجمعية تمتد من دمشق وتأسست لها فيما يظهر فروع في أماكن متعددة أخرى كيافا والقدس ، وكان اعضاؤها من ضباط الجيش الخامس الذي كان مقره سوريا ، ثم سرعان ما تقرر ان هذه المنطقة لا توفر مجالاً كافياً لنشاطهم ، فاختاروا سالونيك باعتبارها ميداناً اجدى للعمليات(١٠) .

لقد تم الامتزاج الفعلي بين الجماعتين في ٢٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٠٧م ولعل كلمة امتزاج غير مضبوطة ، لأن الجمعية لخصت في الوثيقة التالية :

إن « جمعية عثمانلي ترقي واتحاد » التي مركزها باريس و « جمعية عثمانلي

حريت » التي مركزها في سلانيك ، قد اتحدتا باسم « عثمانلي ترقي واتحاد جمعيتي »[١١] .

فعبد الحميد الذي طغى على تفكيره حلم الجامعة الإسلامية ، لم يعرف شيئاً عن القومية الجديدة التي برزت إلى الوجود في ضواحي مدينة سالونيك . ففي هذا المرفأ المزدهر والواقع على بحر ايجة حيث كان المسلمون الأتراك قلة ، توثقت العلاقات بين ضباط الجيش الثالث الشبان الذين أرسلوا للقضاء على العصيان المسيحي ، وبين المحافل الماسونية التي كانت مزدهرة في تلك المدينة التي كان ثلث سكانها من أصل يهودي .. [١٢] .

ولا شك ان المحافل الماسونية كانت من أهم الجمعيات التي ساعدت المعارضين للسلطان في تحركاتهم وتنظيماتهم وذلك لان تلك الجمعيات كانت تملك خبرة واسعة في العمل السري ، كما كانت في الوقت نفسه تعمل كإحدى أجهزة الاستخبارات التي تخدم الدول الأوروبية الاستعمارية المرتبطة بها .

وقد كان اليهود الصهيونيون التابعون للدول الاستعمارية ، والذين كانوا يعملون ضمن مخططات تلك الدول للاطاحة بالسلطان عبد الحميد ، من أهم العناصر التي شاركت الجمعيات الماسونية والحركات القومية التركية المعارضة للسلطان .

هذا ولعبت المحافل الماسونية مع يهود « الدونمة » دوراً مؤثراً في التخطيط لخلع السلطان ، وكانت بمثابة العقل المدبر ، كما كانت الدول الأجنبية بمثابة الممول لأنه كان لها نفوذ كبير في أوساط الباب العالي وبين الأتراك الشبان . وكانت الماسونية قد بدأت في الانتشار في أراضي الدولة العثمانية منذ وقت بعيد . ويقول الأب « لويس شيخو » عن موقف تركيا من الماسونية : « كانت تركيا بين أوائل الدول التي ناهضت الماسونية منذ عام ١٧٤٨م ، وان بين قوانينها ما يحظر على العثمانيين الجمعيات السرية »[١٣] .

وقد استطاع النافذون من اليهود اقناع عدد كبير من البرجوازيين المسيحيين بالدخول في المحافل الماسونية للقضاء على الدولة العثمانية ، ولجأ المسيحيون بدورهم إلى

الوجهاء المسلمين للإشتراك معهم في هذه المحافل على ان المسلمين في بيروت لم يتجاوبوا كثيراً مع هذه الاتجاهات . بدليل انه لم ينضم إلى الماسونية سوى عدد قليل منهم . وكانت بيروت قد شهدت افتتاح فروع للماسونية في أراضيها لاسيما محافل الشرق الفرنسي والاسكتلندي في عامي ١٨٦٨ – ١٨٦٩ م(١٤) .

فإلى أي مدى التقت مصلحة اليهود مع مصلحة تركيا الفتاة ، سواء عن قصد أو غير قصد – للاطاحة بنظام حكم عبد الحميد ؟ .. رسائل السفارة البريطانية في الاستانة إلى الخارجية بعد تغير نظام الحكم تؤكد حقائق كثيرة تؤكد الدور الذي لعبه اليهود وجماعة الدونمة في مجالس تركيا الفتاة في سالونيك . ويقول لوثر في رسالته إلى غراي في ٢٩ آيار (مايو) ١٩١٠م : « ان عمانويل قراصو ، المحامي الماسوني اليهودي من سالونيك ، كان قد أسس محفلاً فيها له صلة بالماسونية الإيطالية ، ويبدو أنه قد اقنع جماعة تركيا الفتاة من الضباط والمدنيين بتبني الماسونية على أمل ممارسة نفوذ يهودي غير محسوس على الحكم الجديد في تركيا ، رغم انه إدعى ظاهرياً انه يهدف إلى خديعة جواسيس عبد الحميد فقط ، فقدم لهم مَحْفَلَهُ ملجأ ، وبالتقائهم في بيت أجنبي تمتعوا بالحصانة الفائقة ضد أساليب التحقيق ... وهكذا اتاحت سرية المحافل لجماعة تركيا الفتاة إمكانية تشكيل تنظيمهم للقضاء على نظام حكم السلطان عبد الحميد .

والحقائق الأخرى التي يشرحها لوثر ، وكان مارلنغ قد أشار إليها في رسالته السابقة في ٢٧ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٠٩م ، تبدو غريبة .. ان وحي الحركة في سالونيك يبدو يهودياً بصفة رئيسية .. فكلمات : حرية – مساواة – اخاء (شعار الأتراك الاتحاديين) هي ابتكار الماسون الطليان ، واللونان الأحمر والأبيض متماثلان .

وينقل لوثر ما شاع بأن قراصو ، النائب اليهودي في سالونيك ، ورئيس أحد المحافل الرئيسية هناك ، قد أظهر حماساً عنيفاً في تأييد التقدم نحو العاصمة لخلع السلطان ، وأن الفرق الأربع المتجهة إلى العاصمة من سالونيك ، التي بدأ فيها تمرد أو ما يسمى (حركة رد الفعل) كان يقودها أحد الدونمة الماسونيين من سالونيك ، هو الكولونيل رمزي بيك الذي عين رئيساً لمعاوني السلطان محمد الخامس ، وان قراصو

أحد أعضاء الوفد الذي أبلغ عبد الحميد بقرار خلعه في ٢٤ نيسان (أبريل) ١٩٠٩م[١٥] .

يسميهم لوثر (اليهود المستترون) . وتشير جريدة التايمز في عدد ١٢/٥/١٩١٠م ص ٥ ، في مقال عن الدونمة ، إلى أن هذه الجماعة من أتباع شبتاي زيفي ، وهو يهودي من ازمير ، كان قد أدعى في سنة ١٦٦٦م ، أنه المسيح المنتظر وكسب كثيراً من الأنصار .. وخيره السلطان بين أمرين : إما القتل ، أو إعتناق الإسلام ، فأختار الثاني وتبعه آلاف من أتباعه ، بعضهم أعلن أنه ليس شبتاي الحقيقي ، بل الروح الحارسة هي التي أقدمت على هذه الخطوة ، وآخرون تمسكوا بأنه كان يمثل فقط دوراً من أحل أن يحقق هدفه العظيم ، ارتداد كل المسلمين . وبعد أن اكتشف الاتراك أنه لا يزال يرتل المزامير مع بعض اليهود ، أبعد إلى البانيا حيث توفي بها سنة ١٦٧٦م . وظلت عقيدة (الشاباتية) موجودة لدى فرق سالونيك فقد اتبعوا طريقه في اعتناق الإسلام ظاهرياً ، ويظن أنهم يمارسون شعائر يهودية معينة سراً . وتصف (النشرة العربية) الجيل الحالي من الدونمة (انهم طائفة ماكرة متعصبة مجردة من المبادىء الخلقية ، مزعجة متكتمة للغاية مع مقدرة تجارية ، ومالية عالية ...) .

كان عدد اليهود في سالونيك ٨٠,٠٠٠ ، والدونمة ٢٠,٠٠٠ (من أصل ١٤٠,٠٠٠ هم عدد سكان سالونيك[١٦] .

وبالرغم من هذا التحرك الاتحادي ، فإن الجمعيات التي تأسست داخل الدولة العثمانية لم تستطع أن توسع نشاطها بسبب صرامة النظام الحميدي ، واتقان عمل الجاسوسية . ولكن بعد عام ١٩٠٥م وجدت جمعية الاتحاد والترقي مجالاً واسعاً لعملها في الولايات الثلاث : مناستر ، قوصوه ، سالونيك . بسبب المراقبة الدولية التي كانت موجودة فيها . برعاية انجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا وإيطاليا . وكانت كل ولاية من هذه الولايات تخضع لمراقبة دولة أو اثنتين من هذه الدول الخمس . الاسالونيك تبعاً لأهميتها عين لها هيئة عليا للمراقبة الدولية حتى لا يتيسر للدولة العثمانية مراقبة التحركات المناهضة للسلطان . وإن كان هناك مفتش عثماني عام إلا ان وجود الدول الخمس كان يشل من تحركاته .

ويذكر القائد التركي جواد رفعت اتلخان – المعاصر للسلطان عبد الحميد – أن الهدف من ثورة ١٩٠٨م هو ان الصهيونيين يريدون تجريد السلطان عبد الحميد من سلطنته وثروته وأملاكه انتقاماً منه ولعدم افساح المجال له للقيام ضدهم ثانية . والمرتدون كانوا منحصرين في سالونيك يريدون إزالة عبد الحميد من طريقهم لتصفية الجو لهم ... وجمعية الاتحاد والترقي كانت بحاجة إلى المال ...[١٧] .

وقد كانت الجمعيات الماسونية تصدر تعليماتها إلى اعضائها بمحاربة السلطان متعاونة في ذلك مع الصهاينة وقد وضح العلاقة بين الصهيونية والماسونية يوسف الحاج (الحائز على درجة استاذية في الماسونية : انه كان هناك ماسونيون أيدوا هذه البروتوكولات (الارشادات) .. وقد وقع على تلك الارشادات الممثلون الصهيونيون من درجة ٣٣ وهي أعلى درجات المطلعين فما رأي الأحرار ؟[١٨] .

كان للسفير البريطاني في استانبول (السير جيرار ولوثر) مستشار سياسي كاثوليكي ايرلندي الأصل اسمه (جيرالد فيتسمويس) وكتب فيتسمورس أول تقرير له إلى الخارجية البريطانية متهماً ضباط تركيا الفتاة بأنهم عصابة يقف وراءها اليهود والصهيونية العالمية بتحالف مع الماسونية التي كان انتشارها قد بدأ في الشرق وكان المعروف عن فيتسمورس أنه كان متعاطف مع الأرمن منذ المذبحة الأولى في عهد عبد الحميد سنة ١٩٠٥م وأنه يكره الأتراك والأكراد[١٩] .

ولقد استطاع عدد كبير من اليهود – من عملاء الدول الاستعمارية – التسرب إلى صفوف الحركات القومية التركية ، خاصة لجنة الاتحاد والترقي ، أو تركيا الفتاة وكانوا الأدوات التي تحركها الدول الاستعمارية لتوجيه الحركات القومية المناهضة للسلطان بما يحقق مصالح تلك الدول في تحطيم الدولة العثمانية ومن ثم تقسيمها وابتلاع ممتلكاتها .

إن لجنة الاتحاد والترقي يبدو في تشكيلها الداخلي تحالفاً يهودياً تركياً مزدوجاً . فالأتراك يمدونها بالمادة العسكرية الفاخرة ، ويمدها اليهود بالعقل المدبر وبالتدبير بالمال وبالنفوذ الصحفي القوي في أوروبا وكما يتضح من الكتابات الصهيونية منذ الثورة .

إن اليهود الذين يبدون الآن في موقف الملهم والمسيطر على الجهاز الداخلي للدولة يعملون على السيطرة الاقتصادية والصناعية على تركيا الفتاة ومصممين على ألا يبدأ أي مشروع هام بالعراق دون اسهامهم فيه ، بل دون سيطرتهم عليه ولكي يصل اليهود إلى مكان النفوذ في مراكز النفوذ في تركيا الفتاة ، فإنهم يشجعون الاتجاهات القومية التركية . وهذان العنصران يشكلان تزاوجاً قومياً مميزاً ينبغي على كل من يهتمون بالعراق أن يأخذوه بعين الاعتبار [٢٠] .

الثورة ضد السلطان:

وأخيراً استطاعت تلك الجمعيات القومية التركية بتأييد من الماسونية ، والصهيونية ، والدول الاستعمارية ان تكسب تشكيلات سياسية من الشباب والسياسيين ، والوطنيين الأتراك ، وأن تقيم تشكيلات عسكرية سرية داخل الجيش العثماني الذي كانت أحواله التنظيمية والمعيشية في غاية السوء والتردي .

واستطاعت جمعية الاتحاد والترقي أن تنظم في سالونيك عدداً من ضباط الجيش يدعمهم تنظيم سياسي من الشبان الأتراك ، وأن تقوم بثورة عسكرية ضد السلطان .

في اليوم الرابع والعشرين من شهر تموز (يوليو) سنة ١٩٠٨م منح عبد الحميد الدستور لرعاياه ، وسط موجة الذعر التي أثارها انفجار الثورة العسكرية فجأة .

كانت هذه الثورة من تدبير جمعية (الاتحاد والترقي) وهي منظمة سرية أنشأها الشبان الأتراك (تركية الفتاة) في سالونيك ، وهدفها القضاء على استبداد السلطان [٢١] .

ونشأ عن الحركة الآنفة الذكر قيام الانقلاب العثماني في عام ١٩٠٨م فاستغله اليهود والاستعمار لمصلحتهم . فما ان تم ذلك الإنقلاب حتى قامت في الدولة العثمانية حركات انفصالية ، وأخرى ضد المركزية أضعفت سلطة استانبول العاصمة على أراضي الامبراطورية . غير التركية . ثم نشبت عدة قلاقل وإضطرابات في داخل

الإمبراطورية مهدت للأجانب سبل زيادة تدخلهم في شؤون الدولة وحصولهم على إمتيازات جديدة[22] .

وقد أجبرت تلك الثورة التي اشتركت فيها جمعية تركيا الفتاة السلطان عبد الحميد : « على اعلان الدستور وإجراء انتخابات للهيئة التشريعية » المبعوثان وقد نص الدستور العثماني على اطلاق بعض الحريات ، وحق إصدار الصحف ، ووجوب إجراء انتخابات للمجلس التشريعي[23] .

وبعد قيام ثورة تركية الفتاة في العام ١٩٠٨م عين الصهيونيون ممثلاً عن المنظمة الصهيونية في القسطنطينية حيث أصدرت صحيفة يدعمها الصهيونيون .

ونظرت جمعية الاتحاد والترقي في عهد تركية الفتاة بعطف أكثر بعض الوقت إلى الصهيونيين كمصدر للحصول على العون المالي للخزانة التركية المفلسة . وعليه وعلى الرغم من الاعتراضات العربية الشديدة خففت القيود المفروضة على الهجرة وشراء الأراضي في وجه اليهود في العام ١٩١٣م[24] .

فقد كان الانقلاب في الدرجة الأولى ، حركة قومية اصلاحية عربية – تركية غير أن اليهود أسهموا فيها وغذوها كوسيلة للتخلص من عبد الحميد لوضع حكم عنصري يقصي المستشارين العرب ويسهل على السلطات الجديدة منح اليهود ما يطلبون من امتيازات[25] .

وإنه لمن العدل والانصاف ان نشير إلى ان هذه الثورة ضد السلطان قد كانت ثمناً دفعه السلطان بسبب مواقفه من الحركة الصهيونية التي رفض مخططاتها ، ووقف حجر عثرة في سبيل قبول المهاجرين اليهود إلى فلسطين أو شراء الأراضي فيها .

يمكن القول ان ثورة ١٩٠٨م وحادثة خلع السلطان ١٩٠٩م لعبتا الدور الأول والفعال في انتعاش الأماني الصهيونية لإقامة مملكة اسرائيل في فلسطين ، وقد أثبتت الأحداث بعد ذلك تزايد الهجرة اليهودية إلى الأراضي المقدسة ، وفي الوقت الذي انشق بعض الاتحاديين عن حركتهم معارضين هذه الهجرة ، أعلن فيه العرب الموالون

للاتحاديين معارضتهم أيضاً للسياسة التي تتبعها جمعية الاتحاد والترقي ولنشاط الحركة الصهيونية في أراضيهم[٢٦] .

إن السلطان كان معارضاً شديداً للهجرة اليهودية إلى الأراضي المقدسة ، وما تعذر على الحركة الصهيونية القيام به في عهده ، لم يتعذر عليها تحقيقه بعد ثورة ١٩٠٨ – ١٩٠٩م ، حيث أظهر الحكم الجديد تأييداً رسمياً للنشاط الصهيوني في فلسطين مما أدى إلى مضاعفة الاحتجاجات وردود الفعل العربية للهجرة اليهودية[٢٧] .

وبعد ان استولت الحركات القومية التركية على الحكم واستتب لها الأمر بدأت تكشف عن وجهها الذي اتسم بصفات واضحة أهمها :

١– وجود عدد كبير من اليهود الموالين للاستعمار الأوروبي .
٢– بدأت تمارس أسلوباً في الحكم لا يقل استبداداً عن أسلوب السلطان عبد الحميد الثاني بل يفوقه .
٣– بدأت تعمل على إبعاد العناصر غير التركية من القوميات الأخرى عن مراكز السلطة ، خاصة القوميين العرب الذين شاركوها في ثورتهم ضد السلطان .
٤– تأييدهم الواضح للصهيونية ومخططاتها ، خاصة في السماح بهجرة اليهود إلى فلسطين ، والتغاضي عن بيع الأراضي الحكومية لهم .

وفي هذه الفترة ، لجأت لجنة الاتحاد والترقي إلى استبداد لا يقل مطلقاً عن استبداد السلاطين ، كما ان الظلم والقتل إزداد في عهد الاتحاديين ، والفارق الوحيد هو ان تنفيذ الاعدام كان يجري بطريقة تتناسب والروح الحديثة[٢٨] .

وحتى نكون موضوعيين في تقييم الحركة القومية التركية ، لا يجوز ان نغفل الدور الوطني للشبان الأتراك واخوانهم من الشبان العرب المؤيدين لهم ، الذين لم يكونوا مطلعين على ما هو مخبأ لحركتهم من توجيه أجنبي بواسطة الماسونية واليهود المرتبطين بالاستعمار . ولم يكن هؤلاء يؤيدون الحركة الصهيونية .

ومن الضروري أن نشير هنا إلى الخلافات الشديدة التي حدثت بين أعضاء

الاتحاد والترقي ففئة منهم - وهي صاحبة النفوذ القوي - شجعت الحركة الصهيونية ومشاريعها في فلسطين وفئة أخرى حاربت النشاط الصهيوني واعتبرت نفسها مغبونة ومغرراً بها ورأت أن الحركة الصهيونية واليهود استغلوا أعضاء تركيا الفتاة لتنفيذ مآربهم(٢٩) .

لا شك ان موقف الاتحاديين هذا المؤيد للصهيونيين نابع من الروابط القوية بينهم من خلال الحركة الماسونية التي جمعت بينهما قبل استلام الاتحاديين الحكم ، ولقد هاجم الرأي العام في الاستانة علناً في المساجد والصحافة ودوائر الحكومة الاتحاديين والصهيونيين والماسونيين(٣٠) .

وخاصة بعدما ظهر قادتهم (أنور ، طلعت ، جمال) » هذا الخليط العجيب الذي أنيط به مساعدة الأمة التركية في ولادتها العسيرة للديمقراطية . لذا ، ليس من المدهش أبداً ان نرى السفراء يظهرون تشككهم بصورة طبيعية وهم العارفون بأن يـد (المحفل الأكبر) الماسوني ، هي التي كانت وراء هؤلاء الأشخاص تحركهم كما يحركون الدمي !! وقد زاد تشككهم عندما سمعوا هتاف الجماهير المكتظة في الحارج تشق عنان السماء تحية للباديشاه الذي أقبل عليها(٣١) .

ونظراً لتأييد الاتحاديين لأطماع اليهود في فلسطين ، فقد جرى نقل الموظفين الأتراك المعارضين للهجرة اليهودية من فلسطين إلى أماكن أخرى مثلما حدث مع علي أكرم بك الذي أثبت أثناء تولية المسؤولية كل حرص لوقف الهجرة اليهودية ، وإذا بالاتحاديين بعد ثورة تموز (يوليو) ١٩٠٨م يصدرون قراراً بنقله من فلسطين إلى بيروت لأن الحقبة القصيرة الممتدة خلال عشرين شهراً من حكمه كانت الفترة الوحيدة بعد عام ١٩٠٠م التي تطبق فيها تعليمات الباب العالي على أكمل وجه . وقد ذكر المطلعون من أهل فلسطين ان عدد المهاجرين إلى يافا قد زاد في العهد الدستوري مما كان عليه في العهد الحميدي(٣٢) .

ومن الأهمية بمكان القول ، ان الاتحاديين حرصوا على سجن السلطان في سالونيك لأنه المركز اليهودي - الدونمي الماسوني - الاتحادي - الدولي - حيث نقل إلى هناك وكان يرافقه بعض حريمه وحاشية صغيرة في ٢٧ نيسان (أبريل) عام

١٩٠٩م . وسجن في فيلا « الاتيني » وهي تخص أحد أصحاب البنوك اليهود الأغنياء في جمعية الاتحاد والترقي . ووضع شقيق رمزي بيه الماسوني حارساً عليه ، وانه بعد الحلع هللت الصحف اليهودية في سالونيك للتخلص من « مضطهــد إسرائيــل » على حد قول لوثر في رسالته إلى غراي بتاريخ ٢٩ آيار (مايو) ١٩١٠ (٣٣) .

ولقد حاول زعماء الشبان الأتراك أكثر من مرة اسقاط السلطان عبد الحميد الثاني ، بالتآمر مع اليهود الصهاينة ، بدعم من الاستعمار الغربي ، وذلك لما يبيته أولئك من تنفيذ المشروع الصهيوني الاستعمارية في فلسطين ، والذي كان السلطان عبد الحميد الثاني يقف عثرة في سبيل تنفيــذه .

هذا ما يرويه تقرير مخابرات انجليزي آخر يقول : (وردت المعلومات التالية من مصدر يهودي موثوق به في كوبنهاجن : قضى طلعت باشا بعض الوقت في برلين لبحث المسألة الصهيونية وقد طلب من قراصو أفندي عضو مجلس النواب التركي «يبلو من الأسم أنه تركي يهودي » المجيء إلى برلين وفوضه في معالجة المسألة الصهيونية مع تأكيدات بقبول الحكومتين الألمانية والتركية السياسة التي يوصي بها .

وفي الأسبوع الماضي جمع قراصو مؤتمراً من ٢٤ زعيماً يهودياً ألفوا لجنة من عشرين شخصاً تضم الدكتور ناتان والدكتور جيمس سايمون والأستاذ لود جبثتاين والأستاذ أبو بنهايمر لابداء الرأي . وقد أوصت اللجنة بإقامة شركة مصرح بها من جانب البرلمان على الطراز البريطاني من جميع اليهود في تركيا . ولهذه الشركة التي يكون مقرها استانبول (السلطة على منح الحكم الذاتي للمناطق التي يسكنها اليهود ليس فقط في فلسطين وإنما في أي مكان آخر من الامبراطورية التركية ، ويكون لهذه المناطق السلطات الكاملة على الضرائب والشرطة والمؤسسات البلدية) .

وقد وافق طلعت باشا على المشروع ووعد بإدراجه في شروط الصلح والمعتقد ان هذا الإقتراح سوف يكون له تأثير كبير على اليهود في أوروبا ، لأن تركيا تتعهد فيه بشيء تملك تنفيذه من الآن ، لأن فلسطين كانت تحكم من الحكم التركي . في

حين أن ما تعد به بريطانيا قد يمكن تحقيقه فقط إذا انتهت الحرب بدخول سوريا وفلسطين تحت حكمنا .

نشر الأستاذ عميد الإمام في جريدة الجمهورية في ١٩٦٦/٢/٢٥م تعليقاً على هذا الكلام إن اسم هذا النائب التركي هو عمانوئيل قراصو ، وهو زعيم يهود سالونيك وبالإضافة إلى الدور الذي لعبه في الاتصالات بين الصهيونيين والعثمانيين ، كان أحد ثلاثة انتدبهم مجلس النواب التركي [٣٤] .

ولقد كشف بعض زعماء الإنقلاب عن اعترافه بأنه وقع خديعة الحركة الصهيونية والتآمر الاستعماري .

فهذا أنور باشا الرجل الذي قام بالدور الرئيسي في الأنقلاب على الخلافة سنة ١٩٠٨م ، والذي تسبب في تدهور الدولة العثمانية ، يقول في حديث له مع « جمال باشا » إذ كانا يحللان أسباب الأندحار الذي أصاب الدولة التركية : « **اتعرف يا جمال ما هو ذنبنا ؟ وبعد تحسر عميق قال : نحن لم نعرف السلطان عبد الحميد فأصبحنا آلة بيد الصهيونية** » [٣٥] .

وتبرز في هذا الصدد وثيقة في غاية من الأهمية وهي الرسالة التي أرسلها السلطان عبد الحميد الثاني إلى الشيخ « محمود أبو الشامات » في دمشق ، وشرح له فيها أسباب ثورة عام ١٩٠٨م ، وأسباب خلعه في عام ١٩٠٩م ، وأكد له بأنه لم يتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما ، سوى انني – بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد والترقي المعروفة باسم « جون تورك » وتهديدهم – اضطررت على ترك الخلافة – ويستطرد في رسالته قائلاً : إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا علي بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة « فلسطين » ورغم اصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف .

وأخيراً وعدوا بتقديم (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة انجليزية ذهباً فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً ، وأجبتهم بهذا الجواب القطعي : « إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً – فضلاً عن ١٥٠ مليون ليرة انجليزية ذهباً – فلن أقبل بتكليفكم هذا

بوجه قطعي .. وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي ، وأبلغوني انهم سيبعدونني إلى سالونيك ، فقبلت بهذا التكليف[٣٦] .

ولقد كان السلطان عبد الحميد على علم بما يبيته الصهاينة ، والمستعمرون لفلسطين ، فعمل كل ما في وسعه لإنقاذها ، واتخذ اجراءات إدارية معروفة لمنع سقوطها بيد الصهاينة ، وأهم تلك الاجراءات ربط سنجق القدس مباشرة بالباب العالي . وقد قام بجهود مماثلة لحماية سيناء والعريش التي كانت احدى المحطات الاولى للصهاينة للقفز إلى فلسطين ومما يؤكد ذلك الجهد الذي بذله السلطان عبد الحميد من أجل انتزاع سيناء من حكومة الخديوي عباس حلمي (١٨٩٢-١٩١٤م) بهدف الحفاظ على سيناء بعيدة عن متناول الصهيونية ، لأن محاولة استيطان اليهود في العريش كانت بمثابة نقطة وثوب إلى فلسطين[٣٧] .

ولعله من المفيد أن ننقل ما كتبه البرفسور الأمريكي أرنست أ. رامزور عن تركيا الفتاة ، وما قيل عن علاقتها بالماسونية ، والدول الاستعمارية ، وأود أن أشير إلى أن الدكتور رامزور يعتقد بأن الماسونيين في بعض الحالات كان حماسهم في إدعاء الفضل بأعمال لم يقوموا بها يعادل حماس الكتاب من أعداء الماسونية ، في نسبة تلك الأعمال لهم ، فالنشرة الماسونية الفرنسية (لاكاسيا) مثلاً تبدو مقتنعة بأهمية الماسونية لحركة تركيا الفتاة ، وسرعان ما أخذ خصومها بهذا كدليل على الطبيعة الشيطانية للماسونية عموماً ، وبعلاقتها بثورة تركيا الفتاة على الأخص[٣٨] .

ويورد شواهد كثيرة على علاقة الضباط الأتراك بالمحافل الماسونية حينما يقول :
«أما فيما يتعلق بأعضاء تركيا الفتاة في أوروبا ، فيبدوا ان عدداً منهم ارتبط بالمحافل الماسونية لما كانوا في المنفى .

إلا أنه لا يمكننا تعيين عدد الذين فعلوا ذلك ، بل يمكن القول بالتأكيد أن اثنين على الأقل من أبرز قوادها ، لم ينضما قط للماسونية وهم أحمد رضا والدكتور سلانيكلي ناظم[٣٩] .

ويصف الشخصيات التركية التي لعبت دوراً هاماً في النشاط ضد السلطان أمثال

أحمد رضا وصباح الدين :

إن أحمد رضا باعتباره مؤيداً طيباً للفلسفة الوضعية ، لم يكن مسلماً صالحاً[٤٠] .

كما أثار نفور الناس من صباح الدين عطفه المزعوم على الكثلكة[٤١] .

كما يورد رامزور آراء بعض المحللين عن علاقة الثورة التركية بالماسونية فيقول :

ويؤكد لنا دارس آخر للحالة ، انه في حوالي سنة ١٩٠٠م قرر الشرق الأعظم الفرنسي إزاحة السلطان عبد الحميد ، وبدأ يجتذب لهذا الغرض حركة تركيا الفتاة منذ بداية تكوينها . ثم ان محللاً آخر يلاحظ « يمكن القول بكل تأكيد أن الثورة التركية كلها تقريباً ، من عمل مؤامرة يهودية ماسونية »[٤٢] .

ويؤكد رامزور إن الماسونية لقيت في تركيا رواجاً ، لبعض الوقت على أثر ثورة سنة ١٩٠٨م[٤٣]

كما يورد من مصادر مختلفة ان مصطفى كمال (آتاتورك) كان مرتبطاً بالحركة الماسونية ، ولكن مصادر أخرى تزعم ان اتاتورك لم يكن يعرف ذلك .

ويورد رامزور في كتابه تركيا الفتاة ص ٢٠٠ عن تلك المصادر قولها : لقد أدخل مصطفى كمال أخاً في محفل فيدانا ، (الماسوني) فوجد نفسه في محيط لم يحبه لأن المحفل كان جزءاً من منظمة فوضويـة عالمية ، وكان مليئاً برجال لا قومية لهم يتكلمون عن شرور روسية ، حيث كان اليهود مضطهدين . وعن مباهج فيينا ، حيث سمح لهم بالحصول على المال . لقد كانوا اناساً مرضى ولصوصاً مفعمين بالأسرار ، والكلام الغامض ، وقد كان مصطفى كمال (آتاتورك) : يحس أنه علق في حبائل منظمات مالية عالمية ، وتخريبية عالمية وسرية . ولكن دون أن يعلم بالضبط ماهيتهم . انه لم يهتم قط بالأهداف العالمية أو باضطرابات اليهود ، وكان اهتمامه أقل بالطقوس الماسونية ، التي كان يتحدث عنها بسخرية . غير « أن الدكتور أرنست أكد للكاتب في رسالة شخصية ان آتاتورك رأى أنه من الجدير بالتأكيد على هذه الصلة التي قامت في سنة ١٩٠٩م وحتى رجل معروف باطلاعه عن الشرق الأدنى مثل سيتون واطس حمل على القول (إن الأدمغة الحقيقية في الحركة كانت يهودية أو

يهودية – مسلمة ، وقد جاءت مساعداتها المالية من اللونمة الأغنياء ، ومن يهود سالونيك ، ومن الرأسماليين – العالميين ، أو شبه العالميين – في فيينا وبودابست ، وبرلين ، وربما في باريس ولندن أيضاً)[٤٤] .

ولقد أورد البرفسور رامزور ما يفيد بتواطؤ الدول الاستعمارية مع الحركة الانقلابية ضد السلطان والتي كانت سالونيك مركز التآمر ضده فيقول :

ربما كانت سالونيك آنذاك أكثر المدن تقدماً في الامبراطورية العثمانية لأن الاوروبيين في سكانها المنوعين ، أكثر من العثمانيين ، وكان نصف سكانها تقريباً من اليهود السفارديين الذين لقوا منذ زمن بعيد في تركيا الإسلامية تسامحاً دينياً لم توفره لهم اسبانيا المسيحية ، وفي القرن السابع عشر أسلم عدد منهم مع رئيسهم شبتاي سيوي ، الذي إعتبر نفسه مسيح أزمير ، ثم صاروا يدعون منذ ذلك الحين باللونمة[٤٥] .

كما يورد عن تعاون الدول الأجنبية مع الحركات المناهضة للسلطان فيقول : كانت الصحف ترسل إلى تركيا بواسطة دوائر البريد الأجنبية ، ويتوزعها الأعضاء فيما بينهم ومن أمهات الصحف التي نشرت بالتركية « مشورت » (باريس) و « ميـزان » (القاهرة) و « عثمانلي » (جنيف) . وقد قدر الاستاذ ساطع الحصري عدد الصحف التي صدرت بالتركية في هذه الفترة خارج الإمبراطورية العثمانية بنحو مائة كان نحو ثلثها في القاهرة[٤٦] .

ولقد كان نشاط أتاتورك في ترتيب الانقلاب ضد السلطان معروف عند عدد كبير من الضباط ، وهناك رواية أوردها رامزور في كتابه المذكور « إن ضابطاً انجليزياً كان محبوباً جداً لدى الأتراك ، ولم يعلم شيئاً عن المؤامرة حتى شهرين قبل الثورة حين أشار إليه ضابط تركي بأن الأمور ستحل قريباً بـ (اضراب يقوم به الجيش)[٤٧] .

ومما يشير إلى أن انجلترا كانت على معرفة بما كان يجري ، بل ومن المعروف انها كانت تدعم وتشجع تلك الحركات الانقلابية شأنها شأن ألمانيا التي أورد عنها رامزور قولاً عن أمبراطور ألمانيـا :

« إن أحد التعليقات التي اشتهر إمبراطور ألمانيا بتدوينها على هوامش الكتب اقتبست كدليل على ان الثورة كانت من إيحاء ألمانيا .

(إن الثورة لم يقم بها « أعضاء تركيا الفتاة » من باريس أو لندن بل قام بها الجيش وحده ، والحقيقة انه لم يقم بها إلا من يسمون (الضباط الألمان) أي الذين تعلموا في ألمانيا . انها ثورة عسكرية صرفة . إن لهؤلاء الضباط سيطرة على الأمور وهم من محبي ألمانيا على الإطـــلاق)[٤٨] .

ويقول رامزور وفي تموز (يوليه) سنة ١٩٠٨م اندهش العالم لسماعه بأن الجيش الثالث التركي الذي كان مقره في مكدونية ، قد ثار على حكم عبد الحميد الطاغية . وإن السلطان أجبر على إعادة دستور سنة ١٨٧٦م . ثم تتابعت الأخبار إن هذه الثورة التي لم يسفك فيها دم ، ادارتها جمعية سرية تدعى (جمعية الاتحاد والترقي) ، فاستنتج معظم المراقبين إن النجاح أخيراً قد توج العمل الصبور الذي كان يقوم به منذ سنوات أحمد رضا ورفقاؤه ، خاصة وأن رضا عاد بعدئذ إلى القسطنطينية ليصبح أول رئيس لمجلس النواب التركي الجديد[٤٩] .

وأحمد رضا هذا هو الذي سبق أن أورد عنه رامزور أنه لم يكن مسلماً صالحاً .

ولقد أكد السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته ما أكده التاريخ فيما بعد ، من ارتباط الحركات المناهضة للحكم بالدول الاستعمارية ، وبالحركة الماسونية التي لم تكن تعدو ان تكون إحدى أجهزة استخبارات الدول الاستعمارية الأوروبية .

ويذكر السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته : ان العمل الوحيد الذي استطاع الماسونيون القيام به في الدولة العثمانية ، هو نشر الشقاق والتمرد في البلد وبين صفوف الجيش دون أن يعلموا انهم يعملون لحساب انجلترا التي تدعى نشر الأفكار المتحررة في امبراطوريتنا . وأشد ما يؤلمني ان يتعاون هؤلاء الضالون الأتراك مع اليونانيين والبلغاريين في سبيل إزاحة المستبد عن الحكم . رب انهم مساكين ضعاف العقول لا يفقهون[٥٠] .

إلا أن السلطان عبد الحميد الثاني استطاع في عام ١٨٩٤م ، من إغلاق جميع

المحافل الماسونية ، ما عدا محافل سيلانيك ، لارتباطاتها اللدولية مع دول ومحافل أوروبا مثل : انجلترا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، وألمانيا ، والنمسا(٥١) .

وكما يقول السلطان في مذكراته ص ٩٦ عن علاقة اللدول الكبرى بتلك المؤامرات ولكن الشيء الذي يقودنا إلى الهاوية ، أكثر من غيره ، هو مؤامرات اللدول الكبرى ، لقد صرفنا الملايين للقضاء على هذه المؤامرات ، كان الأجدر بها ، ان تصرف على مشاريع حيوية نستفيد منها(٥٢) .

ويقـول في ص ١٧٧ :

علينا ان نعترف – وبكل أسف – بأن الإنجليز استطاعوا بدعايتهم المسمومة ان يبثوا بذور القومية والعصبية في بلادنا ، وقد تحرك القوميون في الجزيرة العربية وفي ألبانيا ، وظهرت في سوريا بوادر تحرك مماثل(٥٣) .

وكان السلطان عبد الحميد يتابع نشاط وتحركات الجمعيات المناهضة لحكمه وقد قال في مذكراته عنهم :

« سيستطيعون في وقت قليل جداً ان يجمعوا في أيديهم وسائل القوة في المكان الذي يستقرون فيه ، وفي هذه الحالة (نكون قد وقعنا قراراً بالموت على إخواننا في الدين » – ويقصد المسلمين – وقد أفاد أعضاء جمعية الاتحاد والترقي التي اسقطت عبد الحميد من انتسابهم للماسونية من حمايتها لهم ، فقد ضمت الجمعيات الماسونية عدداً كبيراً من الأجانب وهؤلاء كانوا يتمتعون بامتيازات من الحكومة تجعلهم قادرين على حماية أعضاء الجمعية ومساعدتهم في نقل مطبوعاتهم ومنشوراتهم من مكان إلى مكان واخفائها وفتح منازلهم لاجتماعات أعضاء الاتحاد والترقي .

وإن الجمعية الاسرائيلية بمصر أكدت ان من أهم واجباتهم إدخال المطبوعات التي تهاجم السلطان عبد الحميد إلى داخل حدود الدولة العثمانية بأي شكل من الأشكال ، وهي المطبوعات التي كان يحررها أعضاء تركيا الفتاة(٥٤) .

ويشير السلطان إلى تحركاتهم قبل الانقلاب فيقول من ص ٣ إلى ص ٧ :

كانوا قبل هذا أيضاً قد نهضوا لتهريب أخي السلطان مراد من القصر ، وهو بملابس النساء وظهر ان الذين تصدوا لهذا العمل الفاشل بعض الشخصيات الماسونية ، مثل مدحت باشا . وانجلترا كانت دائبة على تسيير الفتن عن طريق الماسونية . الواقع ان مدحت باشا لم يكن مخطئاً من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، وإنما يرتكب الخطأ بين حين وآخر .. كانت فيه ميزة رجل الدولة . كان يبرع في أداء بعض الأعمال ، فقد تم إختياره في منصب الوالي ، وبيض وجه الدولة في الأماكن التي عين فيها ، صدرت منه ، وهو في المراكز العالية في الدولة – بعض الأعمال المحظورة إلا أنه أمكن الإفادة منه ومن خبرته – ولم أكن أتصور انه عميل للإنجليز ، وإلا لما كنت استدعيته وأعينه والياً على سوريا ثم أرسلته بعد ذلك إلى إزمير .

لم أستطع أن أفهم كيف سادت رغبة اسقاطي من فوق عرشي ، وتنصيب أخي مراد مرة أخرى . هل لأن أخي السلطان مراد كان مثله ماسونياً ، أم لأن التفكير أفضى به إلى انه من السهل عليه ان يضغط على أخي مراد ويجعله ينفذ كل شيء ، حتى الآن لا أستطيع تقدير هذا .

لا بد للتاريخ يوماً ان يفصح عن ماهية الذين سمو أنفسهم (الأتراك الشبان) . أو (تركيا الفتاة) وعن ماسونيتهم . استطعت أن أعرف من تحقيقاتي أن كلهم تقريباً من الماسون وأنهم منتسبون إلى المحفل الماسوني الإنجليزي ، وكانوا يتلقون معونة مادية من هذا المحفل ، ولا بد للتاريخ ان يفصح عن هذه المعونات وهل كانت معونات انسانية أم سياسية .

إنهم لم يهدموا عبد الحميد . ها هم قد هدموا الدولة العثمانية .

أنظر إلى تجل أكثر غرابة : العثمانيون الجدد وتركيا الفتاة كانوا يؤازرون جميعهم الدول الكبرى التي ترغب في تمزيق أوصال الدولة العثمانية وتفتيتها .

وولدت في أمريكا دولة فتية قوية وكانت اسبانيا قد أخرجت اليهود من مستعمراتها . وانتظم يهود العالم ، وسعوا – عن طريق المحافل الماسونية – في سبيل (الأرض الموعودة) . وجاؤا إليّ بعد فترة وطلبوا مني أرضاً لتوطين اليهود في فلسطين

مقابل أموال طائلة ، وبالطبع رفضت .

وقعت في يدي خطة أعدها في وزارة الخارجية الانجليزية كل من مهرج اسمه جمال الدين الأفغاني وإنجليزي يدعى بلند ، قالا فيها باقصاء الخلافة عن الأتراك ، واقترحا على الإنجليزي إعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة على المسلمين .

كنت أعرف جمال الدين الأفغاني عن قرب . كان في مصر ، وكان رجلاً خطراً إقترح علي ذات مرة – وهو يدعي المهدية – ان يثير جميع مسلمي آسيا الوسطى . وكنت أعرف أنه غير قادر على هذا ، وكان رجل الإنجليز ، ومن المحتمل جداً ان يكون الإنجليز قد أعدوا هذا الرجل لإختباري . رفضت فوراً ، فأتحد مع بلند .

استدعيته إلى استانبول عن طريق أبي الهدى الصيادي الحلبي ، الذي كان يلقي الاحترام في كل البلاد العربية . قام بالتوسط في هذا كل من منيف باشا ، حلمي الأفغاني القديم ، وعبد الحق حامد.. جاء إلى استانبول ولم اسمح له مرة أخرى بالخروج منها .

ولهذا السبب سلكت انجلترا طريقين : التقارب معنا في السياسة . واستخدام المحافل الماسونية وسيلة للاستيلاء على الحكم من داخلنا لصالحهم هم .

وكما استغل الانجليز غفلة اعضاء تركيا الفتاة ، عن طريق المحافل الماسونية . أيضاً سيطر الألمان على تشكيل تركيا الفتاة في سالونيك وسيطر الانجليز على تشكيل تركيا الفتاة في مناستر » .

دور البترول في اسقاط السلطان

لقد كان وراء ذلك التآخي الاستعماري الرغبة في استثمار البترول الذي بدأوا يبحثون عنه في كل مكان ، ولم يكن ما يبحثون عنه أواني مكسورة أو تماثيل ، وإنما كان البترول .

كنت أعرف من قبل أنه من أجل العثور على البترول . إن الانفاق ذاته لا يسير كما أريد .

رفضت الاقتراح ، ولم اكتف بهذا ، بل اغلقت رسمياً الآبار التي فتحوها بالموصل وبغداد . تأثر الأنجليز أبلغ التأثر بهذا ، وغضبوا وتركوا الآبار كما هي ، ولكنهم بدأوا يأخذون على عاتقهم التحرش بمسألة الخلافة ، متخذين من جمال الدين الأفغاني وسيلة لمآربهم .

جاء مع الإمبراطور الألماني إلى بلادنا بعض العلماء ، من بينهم من كان يشتغل بالحفريات . تماماً مثل الإنجليز . وكانوا أيضاً يريدون البحث عن الآثار القديمة حول الموصل . سمحت لهم ، وحيث أني سمعت أنهم شموا رائحة البترول الذي كانت تنقب عنه البعثات الإنجليزية فإني أرسلت أحد مرافقي بإسم مستعار ونبهت عليه بمتابعة الأمر من مكان الحفائر . مضى على هذا وقت قصير جداً — وكان الإمبراطور ما يزال ضيفاً ببلادنا وإذا بي أتلقى تقريراً من صلاح الدين أفندي يقول : إن البعثة الألمانية تفعل ما فعله الإنجليزي تماماً ، تنقب وتفتح الآبار .

أعترف بإني ابتأست لهذا الخداع إذا لو كان الإمبراطور الألماني قد جاء لاقتراح البحث عن البترول لاعطيته الموافقة على أساس وجود بعض الشروط إذ ان هذا يهم بلادي أيضاً أما أن يكون الأمر إرسال جواسيس يبحثون عن البترول بحجة البحث عن الآثار القديمة ، فإنه يفصح بوضوح عن نظرة الألمان للعثمانيين .

لكننا أيضاً شممنا رائحة البترول بعد الإنجليز والألمان . ولذلك طلبت من اليابان وفداً متخصصاً في التنقيب عن البترول ووافقت اليابان على طلبي .

لا أعرف بقية هذا الموضوع لأنني أبعدت عن العرش بعد قليل .

كنت أحس أنا أيضاً بأيدي هؤلاء الأجانب ، ليست فوق كبدي ، وإنما في داخله انهم يشترون صدوري العظام ووزرائي ويستخدمونهم ضد بلادي . كيف يحدث هذا وهم الذين أنفقت عليهم من خزانات الدولة ولا استطيع معرفة ما يعملونه وما يدبرون ويعدون ؟ .

وقامت تجارب الغواصة في استانبول من مالي الخاص ، وفي تلك الأيام لم تكن حتى انجلترا تملك سفينة تسير تحت البحر ، وإن كانوا قد تركوا هذا العمل بعدي فلا بد وإنهم لن يسجلوا هذا الذنب علي .

ليتنا كنا استطعنا إبعاد الجيش عن السياسة . لم تمض أربعون عاماً على انكسار الانكشارية حتى أسقط جيش حسين عوني باشا عمي عبد العزيز خان من على العرش .

انقسم الجيش الجديد على نفسه بدعوى الموالاة للأسرة المالكة والمعاداة لها وفقدنا حرب ٩٣ . ان نفس هذا الجيش هو الذي اسقط أخي مراداً من على العرش وكذلك اسقطني أنا . وكذلك الأسباب التي فقدنا من جرائها حرب ٩٣ هي نفس الأسباب التي جعلتنا نفقد حرب البلقان »[٥٥] .

بالرغم من مظاهر الفرح التي عمت كثيراً من المدن العثمانية نتيجة سقوط السلطان ، إلا أن هناك الكثيرين الذين كان سقوطه مصدر حزن لهم بإعتباره خليفة ونظراً لمحاولاته الكثيرة وجهوده الكبيرة في رفع مكانة الدولة العثمانية وإصلاحها وتقويتها ، لتقف أمام مؤامرات الدول الكبرى التي كانت عازمة على تقسيم الدولة العثمانية ، والإستيلاء على ممتلكاتها ، وتهويد أهم جزء منها وهي فلسطين .

والجدير بالذكر ان بعض كبار زعماء المسيحيين السياسيين والروحيين في لبنان لم يرحبوا كثيراً بعزل السلطان عبد الحميد الثاني ، بل ان « **البطريك الماروني اليــاس الحويك** » **أوضح قائلاً «لقد عاش لبنان ، وعاشت طائفتنا المارونية بألف خير وطمأنينة ، في عهد السلطان عبد الحميد الثاني . ولا نعرف ماذا تخبيء لنا الأيام من بعده »**[٥٦] .

ولم تدم فرصة العثمانيين طويلاً ، حتى انكشف القادة الجدد الذين هتف لهم الشعب بعد الانقلاب « تركيا للأتراك ولنطرح النير الأجنبي » ، خاصة بعد ان اضطر هؤلاء القادة إلى طلب النجدة الأجنبية مجدداً لمساعدتهم في إعادة تنظيم شؤون الإمبراطورية فقد استعانوا بخبير فرنسي لضبط الخزينة التركية ، كما إستعانوا بخبير

بريطاني لتنظيم الجمارك . واستقدموا انجليزياً آخر كمستشار في الشؤون البحرية ، هذه البحرية التي أهملت طويلاً ، ولدرجة جعلت المستشار المذكور يقف منذهلاً عندما رأى الضباط البحريين ، يزرعون الخضار على جسور المراكب البحرية .. كذلك استعانوا بألماني لغرفة التجارة ، وبإيطالي انيطت به مهمة مفتش الدرك ، فقللت عملية « التكنيس » هذه من شعبية جماعة تركيا الفتاة لدى فئة كبيرة من الشعب التركي . والجيش نفسه ابتدأ يتذمر ... مما اضطر القيمين على الأمر ، إلى إبعاد فرقة متمردة كان مركزها في يلدز ، إلى الصحراء النائية في شبة الجزيرة العربية (٥٧) .

كما أصبح الناس يروجون « إن بلدهم أصبح يحكمه عبدة الاصنام ، وأن هؤلاء الحكام قد قرروا افساد بنات العائلات الإسلامية المحترمة ! ...

ألفوا تنظيماً عرف باسم « الأخوة المحمدية » مهمة أعضائه انقاذ الشريعة من مؤامرات اليهود ، والماسونيين ، المتمركزين في مدينة سالونيك (٥٨) .

استشهد أحد الصحفيين المعروفين ، الذي كان قد هاجم في آن معاً ، الرجعيين ، ولجنة الاتحاد والترقي .

وفي أثناء تشييع الجنازة تعالت الهتافات : (عاشت الشريعة ! — الموت للجنة الاتحاد والترقي !) وكان الوضع من الخطورة ، بحيث ان البوليس لم يتجرأ على التدخل ! واستفاقت القسطنطينية في اليوم التالي على طلقات الاسلحة النارية . والذين تسلحوا بالجرأة ونزلوا إلى الشوارع ، شاهدوا القوات المسلحة تحتل المساحات الرئيسية في المدينة ، والمباني الرسمية ، لكنها كانت قوات غير انضباطية ، أي بدون قواد ، لأن الضباط هربوا خوفاً من القتل ، أو الأسر ! .. وقد حصل اثناء الليل عصيان وتمرد ، إذ أن صفوف الضباط والجنود في ثكنات « تكسيم » قد شقوا عصا الطاعة على ضباطهم ، واتصلوا بزملائهم في الثكنات الأخرى محرضين وطالبين منهم أن ينضموا إليهم لانقاذ ديانتهم من شر الملحدين في سالونيك . فلم تنقض ساعات قليلة إلا وكان القسم الأكبر من حامية القسطنطينية قد أنضم إلى حركة التمرد هذه . التي نشأ عنها قتل ستة وثلاثين ضابطاً وجرح خمسين آخرين ، دون ان يلقى

المتمردون مقاومة تذكر ! . وعند الظهر ، كانت المدينة في قبضة صفوف الضباط . وقصر البرلمان ، في ساحة القديسة صوفيا . أحيط بجماهير هادرة ، زابدة من الجنود الصارخين بأصواتهم المبحوحة مطالبين بحكومة تحترم الشريعة المقدسة . ولم يتجرأ على الظهور إلا ستون نائباً من أصل خمسمائة ، ظهروا ليعلنوا توبتهم وأسفهم لتهورهم وانقيادهم الأعمى . ولكن ما كان يتخطى أول واحد منهم عتبة البرلمان ، وكان أميراً درزياً ونائباً عن اللاذقية ، حتى أمسكت به الجماهير الغاضبة وقطعته إرباً إرباً ، وحملوا هذه الأشلاء إلى مدير صحيفة تقدمية كانت تطالب بعتق المرأة وأطلاق حريتها ... (٥٩) .

وكان خاتمة المطاف في كشف النفوذ الصهيوني في حركة الإنقلاب الذي وقفت وراؤه الدول الاستعمارية هو انه : « من أصل الرجال الأربعة الذين انتدبوا لابلاغ السلطان قرار خلعه ، لم يكن هناك واحد من أصل تركي صرف ... لقد كانوا خليطاً من اليهود واليونان والأرمن ، وكلهم باستثناء رئيسهم الجنرال أسعد ، كانوا أعضاء نافذين في لجنة الاتحاد والترقي (٦٠) .

وكان قراصو اليهودي هو الذي سلم السلطان وثيقة التنازل ، والتي تحققت بها رؤية السلطان الذي رفض التنازل عن أي جزء من فلسطين ، قبل أن يصلوا إلى عرشه وهاهم وصلوا ، وبدأو تنفيذ المؤامرات بعدها للإستيلاء على فلسطين .

٢- القوميــة العربيــة

عندما دب الفساد في جسم الدولة العثمانية ، أصاب جميع أقاليمها ، وشعوبها وانتشر الفساد والفقر والجهل ، في كل مكان ، نتيجة وصول سلاطين جهلة ، متخلفين يهتمون بملاذهم ، وشهواتهم ، ولا يلتفتون إلى مصالح دولتهم ، وشعوبهم .

وما كاد يصل السلطان عبد الحميد الثاني إلا وكان الفساد قد استشرى ، بدرجة لم تفد المحاولات المستمرة التي قام بها من أجل الإصلاح .

ولقد كان العرب من الشعوب التي أصابها ما أصاب الشعوب الأخرى في الدولة

العثمانية من تخلف ثقافي ، واجتماعي ، واقتصادي ، فأنتشر في البلاد العربية في أواخر حكم الدولة العثمانية الفقر ، والجهل ، والمرض .

ولقد تطلع العرب إلى الغرب المتقدم وإلى مدارسه ومعاهده ، وكلياته المنتشرة في بلاد الشام ، وأخذ الناس يرسلون أولادهم إلى المدارس التبشيرية ، ليتعلموا علماً جديداً ، نافعاً .

ومن خلال هذه المدارس بدأ المثقفون العرب يحملون مبادىء الحرية والديمقراطية وبدأوا ينتسبون إلى الحركات القومية العربية التي قامت تدعو إلى الإصلاح .

وقد ساهم عدد كبير من السياسيين والمثقفين العرب في الحركات القومية العربية / التركية ، التي كانت تعمل من أجل إصلاح الدولة العثمانية ، كما اشترك عدد كبير من الضباط العرب في ثورة ١٩٠٨م ، ضد السلطان . وكان من أهم أولئك الضباط عزيز المصري ومحمود شوكت العراقي الذي تولى قيادة الجيش في سلانيك ، وأحتل استانبول سنة ١٩٠٩م .

وبعد استيلاء الشبان الأتراك على السلطة ، أخذوا يبعدون العناصر غير التركية وأصبحت سياسة التتريك هي السياسة المعتمدة في الدولة القومية الجديدة ، مما أدى إلى إبعاد العرب عن المراكز الحساسة في الدولة ، بل وقام الشبان الأتراك الذين استولوا على السلطة إلى ملاحقة القوميين العرب وإعتقالهم حتى وصل الأمر بهم إلى اعتقال الضابط عزيز المصري .

لم تكن فكرة القومية العربية عند معتنقيها العرب إلا دعوة للإصلاح ضمن اطار الدولة العثمانية ، وكان أصحاب الفكرة ومعتنقوها يعملون لها بإخلاص ويعتنقون مبادءها بوطنية صادقة .

ولكن بعد تطور موقف الشبان الأتراك وإنتشار سياسة التتريك ، بدأت القومية العربية ، تعني شيئاً آخر غير الإصلاح ، إذ أصبحت تعني ، حرية ، واستقلال العالم العربي ، عن تركيا . تلك الدعوة التي تبناها الشريف حسين في الحرب العالمية الأولى .

لقد كان لنشوء الحركة القومية التركية صدى حسناً لدى جميع الأوساط الشعبية في البداية ، بما فيها الأوساط العربية التي كانت تتطلع إلى الحرية والعدالة والتقدم . ولقد بدأ التعاون مبكراً بين دعاة الإصلاح العرب والأتراك وكان جميع العاملين في هذا الميدان من أصحاب النيات الحسنة ، المخلصين لعروبتهم وإسلامهم ، وكانت جميع تطلعاتهم للإصلاح لا تخرج عن اطار العمل ضمن الدولة العثمانية وليس انفصالاً عنها .

ولكن في الطرف الآخر لم تكن النيات الحسنة متوفرة بنفس المستوى ، فلقد كان وراء حلق حركة القوميات قوى أخرى استعمارية كانت تتطلع من وراء دعمها للقوميات لتفجير الدولة العثمانية من الداخل ومن ثم توزيع تركتها وأملاكها بين الدول الاستعمارية الغربية .

ومن هنا وجد تياران متناقضان تناقضاً كلياً ، تيار يعمل مخلصاً لاصلاح أوضاع الدولة العثمانية ، هؤلاء هم القوميون الأتراك والعرب الذي تعاونوا في البداية لتحقيق هذا الأمر ، وتيار كان يروج للأفكار القومية ويوجهها من خلال عملاء للقوى الاستعمارية والذين وجدوا أرضاً خصبة في حركة « تركيا الفتاة » والشبان الأتراك ، والذين ثبتت صلات بعضهم المباشرة بالقوى الاستعمارية الغربية .

وكما هي عادة المستعمرين دائماً ، شجعوا تلك الدعوات ، والحركات الوطنية ، تحت شعار انهم يؤيدون مبادىء الحرية والديمقراطية ، بينما كان همهم هو تقوية الحركات القومية لتكون بداية لتفجير الدولة العثمانية ، ومن ثم الاستيلاء على ممتلكاتها واقتسامها بين تلك الدول الأوروبية الاستعمارية .

ولقد كان استغلال الدول الاستعمارية للقومية العربية أشد من استغلالها للقومية التركية ، سواء أكان ذلك على صعيد الفكر ، أم التنظيم ، أم النشاط العسكري والسياسي .

وكان الاستعمار يعرف ان الشعوب الإسلامية ، كانت في ظل الدولة العثمانية ترتبط بالعقيدة الإسلامية ، وكان السلطان يمثل حاكم المسلمين وحامي تلك

العقيدة ، وكانت الشعوب ترى في ذلك مشاركة ولو معنوية في دولة تحس أنها تمثل الإسلام الذي يجمع تلك الشعوب .

وعندما بدأت الحركات القومية تنتشر في الدولة العثمانية ، كان ذلك مصدر سرور لدى المتربصين بالدولة العثمانية لأنهم كانوا يعتقدون ان تلك الحركات ستساهم مساهمة فعالة في تفتيت الدولة العثمانية .

وها هو الكاتب الصهيوني كادمي كوهن يؤكد هذه الحقيقة في كتابه « دولة اسرائيل » ص ٤١-٤٢ فيقول :

في الجزيرة العربية ولد الإسلام والعرب هم الذين تولوا نشره عبر الدنيا وعملوا منه ديناً عالمياً عظيماً ، لقد تضامن مع الكتلة العربية الهائلة كتل عديدة غير عربية ولكنها اعتنقت الإسلام ، فشعوب الملايو (ماليزيا) في جزر الهند والهندوس والأفغان والتتر على ضفاف نهر الفولجا وشبه جزيرة القرم في أوكرانيا والفرس والأتراك والبوسنيون في البلقان والبربر في مراكش والزنوج في أفريقيا الوسطى حيث يوجد مسلمون أكثر جداً مما يوجد عرب وإذا أرادت السياسة الأوروبية ان تتحرر من العقبات التي ترهق مستعمراتها ينبغي عليها ان تسعى لتفكيك هذه الهوية المصطنعة التي تتحرك ضدها ، هوية بين المفاهيم العربية والمفهوم الإسلامي ، وعندما تتجرأ على حل المسألة العربية فإنها تحطم آلياً التشابك الموجود بين المفهومين وتفتت الوحدة الإسلامية ، كما أن القوميات الاستعمارية الاوروبية تؤمِنْ بهذا هدوءاً لم تعرفه منذ أمد طويل . ان نظرية الوحدة العربية هي خير علاج وأفضل ترياق ضد الوحدة الإسلامية فهي لا تشكل خطراً أكثر مما تشكله القومية التركية الحالية إذ عندما تنصرف عن الدعوة إلى المشاعر الدينية ، ولأنها هي على العكس تشكل عرقية أساسية تصبح عنصراً صحيحاً للتوازن السياسي في العالم القديم . إن تفتيت الهوية التي تجمع بين الإسلام والعروبة هو القادر على جعل الضفة الشرقية للبحر الأبيض المتوسط ما يجب أن تكونه في الحقيقة واجهة القارة الآسيوية التي تطل على العالم الغربي ورأس جسر لأوروبا نحو آسيا الكبرى(٦١) .

ويضيف كادمي كوهين الصهيوني قائلاً :

إن الوحدة العربية تصبح قادرة على مقاومة الوحدة الإسلامية إذا ما نظمت سياسياً . فإيقاظ الشعور القومي العربي هو الذي يهيمن على المسألة . وينبغي ان لا يغرب عن بالنا إن تألق نجاحات الإسلام هو الذي ولد الإيمان الجديد عند العرب بتشكيل الأمة الإسلامية . إن القومية الإسلامية تتفوق على الفكرة العائلية وعلى العصبية العشائرية أو القبلية التي كانت معروفة حتى الآن فإذا لم يتراجع الغرب أمام تلك الديانة الجديدة ، وإذا ما أقر وأكد على وجود قومية عربية تمتد من البحر الأبيض المتوسط إلى بلاد فارس قومية تختلف في جوهر تحديدها عن التتر والهندوس والبربر فإنه يحرر بذلك قوة هائلة إذا ما تأطرت بشكل مناسب استطاعت أن تلعب دوراً في العالم المتمدن تؤهلها له أصالتها الرفيعة[٦٢] .

ليس بمستغرب أن تنطلق الفكرة القومية في الدولة العثمانية في نفس الوقت الذي بدأت فيه الدعوة إلى القومية اليهودية متمثلة في الحركة الصهيونية . كما يقول ناحوم جولدمان :

هناك فكرة أخرى في هذا السياق جديرة بأن نتوقف عندها : إن النزعة القومية التي خلقت الحركة الصهيونية ، هي نفسها التي خلقت حركة القومية العربية ، لقد نمت الحركتان في وقت واحد[٦٣] .

لقد انبثقت فكرة القومية العربية من المدارس التبشيرية التابعة للدول الاستعمارية ، والتي كانت تنتشر في بلاد الشام ، خاصة في لبنان ، ولقد كان التركيز في هذه المدارس على اللغة العربية والأدب العربي والشعر العربي ، وأوجدت الإرساليات التبشيرية المطابع العربية ، ونشروا الكتب العربية بلغة سهلة وأدى ذلك إلى انتشار واسع للغة العربية وآدابها ، كما أدى إلى ظهور عدد كبير من خريجي تلك المدارس الذين أصبحوا أدباء وشعراء كبار أمثال بطرس البستاني ، جبران خليل جبران ، ميخائيل نعيمة ... الخ ، وقد بدأ تنظيم الحركات القومية العربية ، في ظل تلك المدارس والكليات التبشيرية .

ويقول جورج أنطونيوس في كتابه « يقظة العرب » :

يرجع أول جهد منظم في حركة العرب القومية إلى سنة ١٨٧٥م – أي قبل أرتقاء

عبد الحميد العرش بسنتين – حين ألف خمسة شبان ، من الذين درسوا في الكلية البروتستنتية السورية ببيروت ، جمعية سرية . وكانوا جميعاً نصارى ، ولكنهم أدركوا قيمة انضمام المسلمين والدروز إليهم ، فأستطاعوا ان يضموا إلى الجمعية نحو اثنين وعشرين شخصاً ينتمون إلى مختلف الطوائف الدينية ويمثلون الصفوة المختارة المستنيرة في البلاد ، وكانت الماسونية قد دخلت قبل ذلك بلاد الشام على صورتها التي عرفتها أوروبا ، فأستطاع مؤسسوا الجمعية السرية ، عن طريق أحد زملائهم ، ان يستميلوا اليهم المحفل الماسوني الذي كان قد انشىء منذ عهد قريب ، ويشركوه في أعمالهم[٦٤] .

وكانت الفكرة القومية تنتشر سراً في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ولم يكن يجهر بها إلا بعض العرب القاطنين مصر أو أوروبا أو أمريكا [٦٥] .

وكان الذين يدعون للحركة القومية العربية ، من العرب ، ويعملون لها سراً وعلناً ، نوعان من الناس . أولهم المخلصون الذين كانوا يعملون لاستقلال وحرية العالم العربي بعيداً عن استغلال الدول الاستعمارية ، وثانيهم أولئك الذين كانوا يرون في الدول الاستعمارية ، دولاً تحمل مبادىء الانسانية والحرية ، والعدالة ، والديمقراطية ، وهؤلاء كانوا يرتبطون مع تلك الدول ويعملون معها من أجل حركة القومية العربية .

ومن أمثلة النوع الثاني السيد نجيب عازوري مؤسس جامعة الوطن العربي في القرن العشرين ومؤلف كتاب يقظة الأمة العربية .

يقول الدكتور أحمد بو ملحم مقدم كتاب يقظة الأمة العربية الذي ألفه نجيب عازوري .

إن هناك دلائل تشير إلى أنه كانت للعازوري وبعض زملائه صلات بوزارة الخارجية الفرنسية التي كانت توحي ببعض توجيهاتهم ، ثم ان تركة الرجل المريض كانت ما تزال محل نزاع في خطوطها التفصيلية بين الدول الأوروبية . وليس ببعيد أن يكون الأمل قد داعب العازوري ورفاقه ان تلعب فرنسا رغم كل شيء دوراً ايجابياً في مستقبل العرب القريب .

وهذا ما أوقعه في بعض التناقضات في نظرته القومية الشاملة مما يؤيد عدم وضوح الفكرة القومية عنده ، أو على الأقل كان يتأرجح بين قوميته وطائفيته في هذا الجانب مما ينبهنا إلى تناقض في الدعوة مع القومية العربية[٦٦] .

ولا يخفي نجيب عازوري اتصالاته بالدول الكبرى فهو يصرح حيناً بأنه لا يمكننا بلوغ التحرر والوحدة إلا بمساندة هذه الدول عبر حيادها .

وهو دائم الحركة فمن الاتصال مع القائم بأعمال إيطاليا إلى مقابلة مع قائد القوات البريطانية في مصر ماكسويل إلى زيارات للسفير الفرنسي .

يصفه صديقه اجن جنك في كتابه الثورة العربية فيقول في لندن والقاهرة وباريس كما في جميع المحافل الدبلوماسية اعترف بأهمية دوره [٦٧] .

وكان نجيب عازوري يشيد بالدول الأوروبية الاستعمارية وبأمريكا ، وكان يدعو إلى تأييد بريطانيا ضد روسيا كما كان دائم الاشادة بفرنسا . يقول عازوري عن انجلترا في كتابه يقظة الأمة العربية ص ١١١ :

يوجد في تركيا تياران متعاكسان : التيار الأول عادل ، إنساني ، متحرر ، نبيل وهو التيار الانجليزي . والتيار الثاني رجعي ، بربري ، متعصب ، اناني هو التيار الروسي[٦٨] .

كما يقول في ص ١٠٨ :

ترتكز اليوم سياسة انجلترا الخارجية الاستعمارية على ما يلي :

الحفاظ على الهند والإبقاء على وحدة الصين لمنع روسيا من التوسع ، وتحضير اليابانيين بغية الحاق الهزيمة بالسلاف في منشوريا ومناوئتهم في الأفغانستان وفارس وتركيا ، وتنمية إمبراطوريتها الأفريقية لتقوية الهند بثرواتها الهائلة لتحل مكانها فيما لو انتزعت منها والحفاظ أخيراً على الطرق البحرية : جبل طارق ومالطة ومصر ، قبرص وعدن . فبدونها تصبح تحت رحمة أول قادم . يجب ان تمتلك بريطانيا الموقع الخاص والقوة البحرية الضاربة قبل القيام بالمشاريع الضخمة .

قبل أن تهاجم هذه العظمة الكبرى وهذه الثروة الهائلة يجب أن نعلم أن وضعاً كهذا يفيد العالم أجمع . فأساس النظام الجمركي في انجلترا هو التبادل الحر ، لذا فإن استثمار المستعمرات البريطانية الواسعة يساهم في نشر الرخاء في كافة البلدان (٦٩) .

وكان دائم التحريض على السلطان العثماني والدولة العثمانية ويدعو الدول إلى تحرير القوميات وإسقاط السلطان :

إن الخوف من تفجر الشرور الكثيرة يجبر الدول على التريث في سياستها القائمة على تحمل الوجود البغيض للسلطان عبد الحميد الأحمر وهي تهيء بالوسائل السلمية الخلفية الذي تشتهي عند اقتسام تركة الرجل المريض(٧٠) .

أما فرنسا التي كان يُتهم بأنه يعمل لحسابها فقد أورد في نفس الكتاب ص ٢٧-٢٨ :

ولفرنسا إرساليات ورؤوس أموال ضخمة بالاضافة إلى إمتياز حماية الكاثوليك قليلة جداً هي القرى المسيحية في الشرق « التي تخلو من مدرسة كاثوليكية أو بروتستانتية أو من إثنين أو ثلاث لكل طائفة » . وبفضل فرنسا ومنافسة الدول الأخرى لها في مضمار التعليم أرسل الارثوذكس والمسلمون أولادهم إلى المدارس أسوة بالكاثوليك هكذا نجد اليوم أناساً مثقفين واعين وبتنا نعي قوميتنا ، نبغ بفضل تعليم اليسوعيين والقساوسة الأمريكيين كتاب معاصرون مشهورون وتألقت اللغة العربية(٧١) .

كما قال ص ١٣٤ :

ان الوسيلة لتغيير هذا الوضع المقيت اليوم كائنة فيه . فالعرب والأكراد والأرمن يريدون الانفصال عن الشجرة النخرة ليشكلوا دولاً مستقلة حرة مشبعة بأفكار التقدم والحضارة الغربية .

نحن واثقون سلفاً من تعاطف فرنسا مع مشروعنا ، نحن واثقون أيضاً من تشجيع أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية الشمالية(٧٢) .

وعن القوميات ، والدول الاستعمارية يقول عازوري ص ٢١٨ - ٢١٩ :

لم يسبق ان كانت اللجان الوطنية الانفصالية الأرمنية ، والكردية والألبانية والبلغارية والعربية واليونانية بمثل هذه القوة وبمثل هذه الإرادة . وللعرب ثلاث لجان في أوروبا وأمريكا وجمعيتان في مصر ، وجمعيات سرية في المدن الرئيسية في سوريا وبلاد الرافدين ، ويتفق الجميع الآن على القيام بنشاط مشترك ونهائي . إن من مصلحة رجال المال الأوروبيين الذين يملكون رساميل في تركيا ومن مصلحة التجار وأصحاب البنوك الذين تربطهم أعمال ببلادنا ، ان يشجعوا هذه المشاريع . عندما تسقط السيطرة التركية ستفتح آسيا بكاملها على التجارة الدولية . أما توظيف رؤوس الأموال الذي يعطي اليوم فائدة ٤٪ فسيعطي يوم تحررنا ٥٠٪ وليس بوسع المحسنين الكرام من أوروبيين وأمريكيين ان يجدوا عملاً أكثر نفعاً وخيراً وأجدر بتعاطفهم من ذاك الذي يهدف إلى تخليص عدة أمم كبيرة من الاستعباد وفتح المجال واسعاً للربح أمام كافة الناس الشرفاء الذين يريدون العمل .

من سيكون سلطـــان العـــرب :

لا شيء أكثر تحرراً من برنامج (جامعة الوطن العربي) فهي تريد قبل كل شيء لمصلحة الإسلام والأمة العربية فصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية ، وإقامة إمبراطورية عربية تمتد من الفرات ودجلة إلى خليج السويس ومن المتوسط حتى بحر عمان . وستتخذ الحكومة شكل السلطنة الدستورية المرتكزة على حرية كافة المذاهب ومساواة كافة المواطنين أمام القانون . ستحترم مصالح أوروبا وكافة الإمتيازات والمزايا التي منحها إياها الأتراك حتى اليوم . ستحترم أيضاً الحكم الذاتي في لبنان ، واستقلال إمارات اليمن ونجد والعراق وتمنح عرش الإمبراطورية العربية إلى أمير من العائلة الخديوية المصرية يعلن بصراحة أنه سيبذل كل طاقاته وكافة موارده لهذه الغاية . وتتخلى الجامعة عن فكرة الجمع بين مصر والإمبراطورية العربية في ظل ملكية واحدة لأن المصريين لا ينتمون إلى العرق العربي فهم من عائلة البرابرة الافريقيين واللغة التي كانوا يتكلمونها قبل الإسلام لا تشبه العربية قـط[٧٣] .

وهكذا نجد نجيب عازوري يقف مع الدول الاستعمارية من حيث يدري أو لا يدري في إبعاد مصر عن عروبتها وفصلها عن جسم الأمة العربية .

وعلى أثر سقوط السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨م قرر نجيب عازوري العودة إلى فلسطين لخوض الانتخابات إلا أن الأتراك حكموا عليه بالاعدام لأنه قام بنشاطات تمس أمن الدولة وذلك بغية إبعاده عن البلاد فهرب إلى القاهرة ، وترأس في القاهرة تحرير جريدة يومية (مصر) وأسس محفلاً ماسونياً .

أما تأسيسه للمحفل الماسوني في القاهرة على غرار الكربوناري ذي الأهداف التحررية الوطنية فيعكس تأثره بالحركة القومية الإيطالية التي استطاعت توحيد إيطاليا وما لبث هذا المحفل ان انتشرت فروعه في جميع الأقطار العربية ، حيث ضمت الأمراء وأبناء العائلات الكبرى والطلاب[٧٤] وكان هذا النشاط يتم في حماية ورعاية السلطات البريطانية في مصر .

ويبدو ان نجيب عازوري الذي كان ماسونياً وأسس محافل ماسونية قد كشف في وقت متأخر اتصال الماسونيين بأجهزة الاستخبارات الأجنبية ، وأن هناك بعض الذين كانوا يكتبون في الصحيفة التي كان يصدرها كانوا ضد الماسونية .

وفي هذا المجال اتهمت جريدة نهضة العرب التي كان يصدرها نجيب عازوري في باريس الاتحاديين بالتحالف مع اليهود والماسونيين الأحرار ، وإن اليهود تسلطوا على جمعية الاتحاد والترقي وأنهم دبروا ثورتها على السلطان عبد الحميد بهدف إيجاد الفوارق بين الأتراك والعرب من أجل هدم الإمبراطورية العثمانية ، وإقامة مملكة يهودية على انقاضها . ومثل هذه الأفكار لم تكن بين العرب فقط بل كانت بين قسم من الأوروبيين أيضاً ، وجدت طريقها إلى وزارة الخارجية البريطانية[٧٥] .

كما وان كثيراً من السياسيين العرب قد بدأوا يكشفون سياسة (تركيا الفتاة) و (جمعية الاتحاد والترقي) والشبان الأتراك الذين بدأوا يبعدون العناصر العربية عن الحكم ، خاصة تلك العناصر التي شاركتهم في الثورة ضد السلطان وبدأت مخاوفهم من انحراف الحكم يستحوذ على نفوس الجميع .

والواقع إن هذه المخاوف والشكوك التي أيدها العرب نحو « تركيا الفتاة » أصبحت من صلب السياسة العربية ، وذلك بعد ان ظهرت القومية التركية الطورانية المتعصبة

على حقيقتها ، وراحت تتحدى الكرامة العربية في آعزّ ما لديها من دين ولغة . وذكر الأب « لويس شيخو » من ان « رشيد رضا » – الذي امضى سنة كاملة في الاستانة – « وقف على غوامض سياسة الجمعية ومخبآت صناديق اسرارها » . وأوضح ان جمعية الاتحاد والترقي من شيعة الماسون » . ومن أهم مقاصد هؤلاء الزعماء جعل السيادة والسلطة في المملكة العثمانية للشعب التركي والتوصل بقوة الدولة إلى اضعاف اللغة العربية وأماتتها في المملكة وتتريك العرب مع أبقائهم ضعفاء بالجهل والضغط وذبذبة اللسان .. ومن لوازم تشيعهم للماسونية قوة نفوذ اليهود فيهم وفي الدولة ، وذلك يفضي إلى فوز الجمعية الصهيونية في استعمار بلاد فلسطين الذي يراد به إعادة ملك اسرائيل إلى وطنهم الأول وإلى ابتلاع اصحاب الملايين من اليهود لكثير من خيرات البلاد(٧٦) .

ومما زاد في شكوك العرب وحرج موقفهم انه بعد عزل السلطان عبد الحميد أمتدت يد العزل إلى كبار من كان يعتمد عليهم من العرب ، وهذا أمر طبيعي ولكن ما هو غير طبيعي توجيه الاتهامات والاساءات إلى الموظفين العرب فقط دون غيرهم ، وأخذت الاتهامات توجه إلى أولئك العرب بأنهم كانوا وراء مظالم السلطان فكانت نسبة المعزولين من العرب عالية جداً حتى لم يبق في وزارة الخارجية من العرب سوى موظف واحد . بينما كان السلطان عبد الحميد يعمل على استمالة العناصر العربية ويسلمهم مناصب رفيعة وحساسة ، وأكثر السلطان من تقريب العرب وعظمائهم حتى كانت لهم كفة مرجحة في الحكم . ومن بين هؤلاء عزت باشا العابد الدمشقي والشيخ أبو الهدى الصيادي ، وسليم باشا ملحمة وزير المعادن والحراج وشقيقه الوزير نجيب باشا ملحمة والاثنان من لبنان ، وغيرهم من العرب . وهؤلاء كلهم كانوا موضع ملاحقة من الاتحاديين ، حتى ان الشيخ أبو الهدى الصيادي لم يسلم من الاعتقال شهراً من الزمن(٧٧) .

ومن الطبيعي ان ينتقل الاستعمار الغربي إلى تفتيت الجماعات المتحالفة والقوميات المتعاونة ، بعد أن أدت دورها في تغيير النظام ، وأصبح اشعال نار الفتن والتناقضات بين القوميات هذه المرحلة اللاحقة لاسقاط الخلافة وهكذا كان .

وكان شهر العسل العربي – التركي الذي أعلنته جمعية الاخاء العربي العثماني قصير الأجل إذ سرعان ما اتضح ان عناصر جمعية الاتحاد والترقي كانت تركية أولاً ويهودية ثانياً وأن الاتجاه القومي الطوراني يقضي بسياسة « التتريك » وطمس معالم اللغة العربية والشخصية العربية . فقد ركز قادة الاتحاد والترقي هجومهم على عزت باشا العابد وأبو الهدى الصيادي وكانا من العرب المقربين إلى السلطان عبد الحميد(٧٨) .

وكان الشبان الاتراك قد تخلوا عن مبدأ المساواة وألقوه جانباً ولجأوا إلى سلطتهم – بأساليب كانت أحياناً استفزازية وتدل على الحمق – لترجيح المصلحة التركية والإضرار بإخوانهم العثمانيين ، وحكم الدولة على أساس السياسة الجنسية للعنصر التركي

ولا ريب في ان الرغبة في إعلاء شأن الجنس التركي فوق سائر الأجناس هي في ذاتها رغبة طبيعية في دولة انشأها الأتراك . ومع ذلك ، فقد نشأت هذه الرغبة لعدة عوامل أخرى غير مجرد حب الذات . إذ بدأت تبرز للوجود حركة تنادي بالقومية التركية المحض ، استمدت أسسها من تجديد الإيمان بانتساب الشعب التركي إلى أصول طورانية .

فإن فكرة الطورانية – بدعوتها إلى تمجيد العنصرية التركية وإبرازها لروابط القربى بين الأتراك في الدولة العثمانية واخوانهم في الجنس في آسيا الوسطى – تنقض فكرة الوحدة العثمانية التي كانت ترمى إلى توحيد الأجناس المختلفة في الدولة في أمة واحدة على أساس المساواة بين الجميع(٧٩) .

وقد لجأ الشبان الأتراك إلى ملاحقة العناصر القيادية من العرب خاصة تلك العناصر التي شاركتها في الثورة وكان لها دور هام في قيادة الجيوش العثمانية التي قامت بالانقلاب واحتلت العاصمة . ومن هؤلاء محمود شوكت العراقي الذي تولى قيادة الجيش الذي زحف من سلانيك وأحتل استانبول في ١٩٠٩م . لقد كان شوكت في صميم المعركة ! (٨٠) وعزيز المصري الذي شارك مشاركة فعالة في الثورة ، ثم لوحق من قبل الزعماء الأتراك . ففي التاسع من شباط (فبراير) من السنة نفسها ، بينما كان الرائد (الرئيس الأول) عزيز علي المصري ، من هيئة أركان حرب الجيش ،

خارجاً من فندق طوقاتليان بعد الغداء بادره ثلاثة من رجال الشرطة السريين ودعوه إلى مركز الشرطة المركزي في القسطنطينية . وهناك ألقي عليه القبض من غير أن توجه إليه أية تهمة . فذاعت الشائعات بأنه سيحاكم بتهمة الخيانة . وقد أثار نبأ اعتقاله الدهشة بين العرب هناك ثم تحولت الدهشة إلى سخط تمثل في مظاهرات الجماهير في الشوارع .

كان عزيز علي المصري قد أصبح – وهو في الخامسة والثلاثين من العمر – شخصية مشهورة . وقد ولد في القاهرة حيث كان يقيم والده ، ثم التحق بالكلية العسكرية في القسطنطينية ، ثم بكلية الأركان وبعد ان تخرج فيها بتفوق سنة ١٩٠٤م عين في هيئة أركان حرب الجيش الثالث في مقدونية . وهناك انضم إلى جمعية الاتحاد والترقي وكان أحد الضباط الذين قادوا الثورة العسكرية سنة ١٩٠٨م واشترك في الزحف على القسطنطينية في نيسان (أبريل) من السنة التالية . ولكن انضمامه إلى جمعية الاتحاد والترقي كان لعاملين : مثله العليا القومية العربية ، واخلاصه لمصلحة الدولة العثمانية ، فحين أدرك ، في الشهور التي تلت الثورة المعاكسة سنة ١٩٠٩م ، إن سياسة الاتحاديين كانت تعارض العامل الأول ، كما كانت تسيء التصرف بالنسبة للعامل الثاني أخذ يبحث حوله عن حلفاء له أجدر من الاتحاديين[٨١] .

ولعل أهم ما لفت نظر العرب وأكد لديهم التعاون القومي التركي / الماسوني الصهيوني ، هو الفرحة التي استقبلت بها الأوساط الصهيونية ثورة عام ١٩٠٨م ، والتي علق عليها الزعماء الصهاينة أمالاً كبيرة ، وتوقعوا أن تكون فاتحة عهد جديد بالنسبة لهم ، وأصدر حزب بوعالي تسيون في فلسطين بياناً سرياً خاصاً يشيد بها ، وتزلف زعماؤه لقادتها .

بل إن بعض زعمائهم ، وعلى رأسهم دافيد بن غوريون ويتسحاق بن زفي ، سافرا إلى تركيا سنة ١٩١١م ، لدراسة اللغة التركية ، والاطلاع عن كثب على أوضاع البلد لكي يحسنوا فهم الأتراك ، والتعامل معهم عند الضرورة[٨٢] .

مراجـــع
تفجير الدولة العثمانية بالحركات القومية

١- أبو الحسن علي الحسين النـــووي .	: الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ٣٨-٣٩ ، دار الانصار ، القاهرة ١٩٨١م.
٢- أرنست آ. رامــزور	: تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م ، ترجمة د. صالح أحمد العلي ، ص ٤٤-٤٥ ، دار الحياة ، بيروت ١٩٦٠ .
٣- جـــون هاسلـــب	: السلطان الأحمر (عبد الحميد) ، ترجمة فيليب عطا الله ، ص ٢٩٧ ، دار الروائع الجديدة ، بيروت ١٩٧٤م .
٤- حســان علي حــلاق	: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية (١٨٩٧ - ١٩٠٩) ، ص ٣١١ ، الدار الجامعية - بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٠م .
٥- محمد حرب عبد الحميد	: مذكرات السلطان عبد الحميد ، ص ٦ - ٧ ، دار الانصار ، القاهرة ، ١٩٧٨م .
٦- د. ارنست آ. رامــزور	: المصدر السابق ، ص ٢٠٠-٢٠١ .
٧- حســان علي حــلاق	: المصدر السابق ، ص ٢٩٣ .
٨- د. أرنست أ. رامــزور	: المصدر السابق ، ص ٤٩ .

٩- د. أرنست أ. رامـزور : المصدر السابق ، ص ١١٨ .

١٠- د. أرنست أ. رامـزور : المصدر السابق ، ص ١١٨ .

١١- د. أرنست أ. رامـزور : المصدر السابق ، ص ١٣٨-١٣٩ .

١٢- جـون هاسـلب : المصدر السابق ، ص ٢٩٧ .

١٣- حسـان علـي حـلاق : المصدر السابق ، ص ٢٨٩ .

١٤- حسـان علي حـلاق : المصدر السابق ، ص ٨٧-٨٨ .

١٥- د. خيريـة قاسميـة : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه (١٩٠٨ - ١٩١٨م) ، ص ٤٢-٤٣ م.ت.ف مركز الابحاث ، بيروت ١٩٧٣م .

١٦- د. خيريـة قاسميـة : المصدر السابق ، ص ٤٢ .

١٧- حسـان علي حـلاق : المصدر السابق ، ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ .

١٨- حسـان علي حـلاق : المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

١٩- رياض نجيب الريس : جواسيس العرب - مجلة المستقبل - السنة السابعة ، العدد ٣٣٧ بتاريخ ٦ آب (اغسطس) ١٩٨٣م .

٢٠- د. حسن صبري الخولي : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين ، المجلد الثاني ، ص ١٠٩ ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٧٠ .

٢١- جـورج انطونيـوس : يقظة العرب القوميـة ، ص ١٧٥-١٧٦ ، قدم له د. نبيه أمين فارس ، ترجمة ناصر الدين الأسد و د. احسان عباس ، دار العلم للملايـيـن ، بيـروت

٢٢-

٢٣- د. عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٥٢ .

٢٤- ج. هـ. جانسن : الصهيونية وإسرائيل وآسيا ، ص ١٢٦ ، ترجمة راشد حميد - م. ت. ف. مركز الابحاث ، بيروت ، ١٩٧٢م .

٢٥- أنيـس الصايـغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، ص ٢٣ ، منشورات جريدة المحرر والمكتبة العصرية بصيدا ، بيروت ١٩٧٢ .

٢٦- حسـان علي حـلاق : المصدر السابق ، ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

٢٧- حسـان علي حـلاق : المصدر السابق ، ص ٢٣٤ .

٢٨- حسـان علي حـلاق : المصدر السابق ، ص ٣٣٨-٣٣٩ .

٢٩- حسـان علي حـلاق : المصدر السابق ، ص ٣٤٢ .

٣٠- د. إسماعيل أحمد ياغي : موقف عرب فلسطين من الهجرة اليهوديـة والصهيونيـة (١٨٨٢-١٩١٤م) ، ص ١٣ ، بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين) .

٣١- جـــون هاســـلب : المصدر السابق ، ص ٣١١ .

٣٢- حســـان علـي حــلاق : المصدر السابق ، ص ٣٤٠ .

٣٣- حســـان علـي حــلاق : المصدر السابق ، ص ٣٢٥ .

٣٤- أحمـــد بهـــاء الديـن : إسرائيليـــات ، ص ٤٢ .

٣٥- السلطان عبد الحميد الثاني : مذكراتي السياسية ، ص ٤٦ ، مؤسسة الرسالة ، بيـــروت .

٣٦- حســـان علـي حــلاق : المصدر السابق ، ص ٣٢٨-٣٢٩ .

٣٧- حســـان علـي حــلاق : المصدر السابق ، ص ٢٧٣ .

٣٨- د. ارنست آ. رامزور : المصدر السابق ، ص ١٢٦ .

٣٩- د. ارنست آ. رامزور : المصدر السابق ، ص ١٢٧ .

٤٠- د. ارنست آ. رامزور : المصدر السابق ، ص ١١٤ .

٤١- د. اربست آ. رامزور : المصدر السابق ، ص ١١٢ .

٤٢- د. ارنست آ. رامزور : المصدر السابق ، ص ١٢٦ .

٤٣- د. ارنست آ. رامزور : المصدر السابق ، ص ١٢٧ .

٤٤- د. ارنست آ. رامزور : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

٤٥- د. ارنست آ. رامزور : المصدر السابق ، ص ١١٩ .

٤٦- د. ارنست آ. رامزور : المصدر السابق ، ص ١٣ .

٤٧- د. ارنست آ. رامزور : المصدر السابق ، ص ٢٠٥ .

٤٨- د. ارنست آ. رامزور : المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

٤٩- د. ارنست آ. رامزور : المصدر السابق ، ص ١١٧ .

٥٠- السلطان عبد الحميد الثاني : المصدر السابق ، ص ٧٣-٧٤ .

٥١- حســـان علـي حــلاق : المصدر السابق ، ص ٢٨٩-٢٩٠ .

٥٢- السلطان عبد الحميد الثاني : المصدر السابق ، ص ٩٦ .

٥٣- السلطان عبد الحميد الثاني : المصدر السابق ، ص ١٧٧ .

٥٤- محمد حرب عبد الحميد : المصدر السابق ، ص

٥٥- محمد حرب عبد الحميد : المصدر السابق ، ص

٥٦- حسان علي حلاق : المصدر السابق ، ص ٣٢٧ .

٥٧- جون هاسلب : ٣١٤ .

٥٨- جون هاسلب : المصدر السابق ، ص ٣١٥ .

٥٩- جون هاسلب : المصدر السابق ، ص ٣١٦ .

٦٠- جون هاسلب : المصدر السابق ، ص ٣٢٩ .

٦١- كادمي كوهن : دولة إسرائيل ، ص ٤١-٤٢ ، منشورات فلسطين المحتلة ، ط ١ ، بيروت ١٩٨١م .

٦٢- كادمي كوهن : المصدر السابق ، ص ٤٢ ،

٦٣- ناحوم جولدمان : إسرائيل الى آين ؟ ، ص ٣٨ . منشورات فلسطين المحتلة ، ط ١ ، بيروت ١٩٨٠م .

٦٤- جورج انطونيوس : المصدر السابق ، ص ١٤٩ .

٦٥- حسان علي حلاق : موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية (١٨٩٧ - ١٩٠٩م) ، ص ٢٣٤ ، الدار الجامعية ، بيروت ط ٢ ، ١٩٨٠م .

٦٦- نجيـــب عـــازوري : يقظة الأمة العربية ، ص ٨-٩ ، تعريب د. أحمد بو ملحم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيـــروت .

٦٧- نجيـــب عـــازوري : المصدر السابق ، ص ٢٠-٢١ .

٦٨- نجيـــب عـــازوري : المصدر السابق ، ص ١١١ .

٦٩- نجيـــب عـــازوري : المصدر السابق ، ص ١٠٨ .

٧٠- نجيـــب عـــازوري : المصدر السابق ، ص ١٢٠ .

٧١- نجيـــب عـــازوري : المصدر السابق ، ص ٢٧-٢٨ .

٧٢- نجيـــب عـــازوري : المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

٧٣- نجيـــب عـــازوري : المصدر السابق ، ص ٢١٨-٢١٩ .

٧٤- نجيـــب عـــازوري : المصدر السابق ، ص ١٨-١٩ .

٧٥- د. إسماعيل أحمد ياغي : موقف عرب فلسطين من الهجرة اليهوديـــــة - الصهيونيـــــة (١٨٨٢-١٩١٤م) ، ص ٩ ، بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين) .

٧٦- حســـان علي حـــلاق : المصدر السابق ، ص ٣٣٧ .

٧٧- حســـان علي حـــلاق : المصدر السابق ، ص ٣٣٧-٣٣٨ .

٧٨- د. عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٥٣ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٣م .

٧٩- جـــورج انطونيـــوس : نفس المصدر السابق ، ص ١٨١-١٨٢ .

٨٠- د. أرنست أ. رامزور : تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨م ، ص ١٨ ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي - دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٠م .

٨١- جورج انطونيوس : المصدر السابق ، ص ١٩٥-١٩٦ .

٨٢- صبري جريس : تاريخ الصهيونية ، ج ١ (١٨٦٢-١٩١٧م) ، ص ٢٦٢-٢٦٣ ، م.ت.ف ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٦١م .

الفصـــل الخامـــس

السلطان عبد الحميد يتصدى للصهيونية

١- هرتزل والسلطان عبد الحميد الثاني .
٢- السلطان يضحي بعرشه من أجل فلسطيــن .
٣- فشل المشروع الصهيوني في الدولة العثمانية .

« انصحـو الدكتـور هرتـزل :

لا أستطيـع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض فهي ليست ملك يميني بل ملك شعبي . لقد قاتل شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه . فاليحتفظ اليهـود بملايينهم ، إذا مزقـت امبراطوريتـي فلعلهم يستطيعون آنذاك بأن يأخذوا فلسطيـن بلا ثمـن . ولكـن يجب أن يبـدأ ذلك التمزيـق أولاً فـي جثتـا » .

« إننـي اخبرهـم أن عليهـم أن يستبعـدوا فكـرة انشـاء دولـة في فلسطيـن لأنـني لا زلت أكبر أعدائهـم » .

السلطـان عبـد الحميـد

السلطان عبد الحميد الثاني يتصدى للصهيونية

مقـــدمة :

عندما تهزم الامم ، تهزم معها حضارتها ، وثقافتها ، وتراثها بالاضافة إلى هزيمتها العسكرية والاقتصادية .

وحينما سقطت الأمة الإسلامية ، لم يكتف الاستعمار بتحطيم بيتها الداخلية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية ، بل عمد إلى تشويه ثقافتها ، وطمس معالم حضارتها ، حتى أصبح كثير من الشباب في هذه الأمة ضحية تلك المناهج الثقافية والتربوية التي فرضها الاستعمار على شعوبنا ، وخاصة الشعب العربي

ولقد كان ما ثبته الاستعمار في اذهاننا ، ولمدة طويلة ، هو موقف السلطان عبد الحميد من القضية الفلسطينية ، مما أوجد انطباعاً عند الكثيرين انه فرّط في حقوق عرب فلسطين ، ممالأة للصهيونية ، ولو كان الأمر كذلك لما دفع ملكه ثمناً لتصديه للاستعمار الغربي ، وللصهيونية صنيعة ذلك الاستعمار .

. لقد جاء السلطان عبد الحميد الثاني إلى سدة الحكم ، والدولة العثمانية في اسوأ أحوالها . فكان الفساد قد استشرى في كل ركن من اركانها ، والمطامع الاستعمارية تحيط بها من كل مكان والجهاز الإداري للدولة في غاية الفساد ، والضعف والانحلال .

ولم يكد السلطان عبد الحميد الثاني ، يبدأ في الإصلاح حتى بدأت تتصدى له قوى الفساد من الداخل وقوى الاستعمار من الخارج .

وقد كانت فلسطين تحظى بالأهمية القصوى لدى السلطان نظراً لمتابعته مخططات الاستعمار والصهيونية ، التي كانت تعمل على تحويلها إلى وطن لليهود . وقد اتخذ السلطان لمنع تنفيذ هذه المخططات كل الوسائل الممكنة ، من إصدار تشريعات وقوانين وإجراءات إدارية وسياسية تحول دون وصول هؤلاء المستعمرين إلى أهدافهم . وكان من اولى الخطوات الهامة التي اتخذها في هذا السبيل ، هي ربط سنجق القدس مباشرة بالباب العالي حتى يشرف بنفسه على منع تغلغل النفوذ الاستعماري والصهيوني في فلسطين ، بعد ان زاد النشاط في هذا الاتجاه .

وإن هذا النشاط كما يرى « هوغارت » أحد البريطانيين المتخصصين في أمور الشرق الأوسط خلال الحرب الأولى – إن الاستيطان – هو الذي « دفع السلطان عبد الحميد عام ١٨٨٧م إلى جعل القدس سنجقاً مستقلاً عن ولاية دمشق ومتصرفية لها اتصال مباشر بالباب العالي »[١] .

وكانت فلسطين في ظل الحكم العثماني تابعة لأقسام الشام الإدارية وكانت الشام وقتذاك تتألف من خمس ولايات وهي : ولاية حلب ، ولاية بيروت ، ولاية الشام أو سوريا ، متصرفية جبل لبنان . وجميع هذه الولايات الشامية كانت تابعة في أمورها العسكرية إلى مشير العرض الهمايوني الخامس من قوى الجيش العثماني ومركزه دمشق . أما فلسطين فكانت تقسم كوحدة إدارية إلى المناطق التالية :

١- **في الشمال** : متصرفية عكا وتشمل اقضية : حيفا ، طبريا ، صفد .
متصرفية نابلس وتشمل : قضائي جنين وطولكرم ، وكلها تتبع ولاية بيروت .

٢- **في الجنوب** : متصرفية القدس الشريف المستقلة ، وتشمل اقضية : القدس ، يافا ، غزة ، الخليل ، بئر السبع ، وتخضع مباشرة للحكومة في الاستانة .

أما ولاية شرق الأردن فجعلت جزءاً من ولاية دمشق[٢] .

وقد سعى سفراء وممثلوا وقناصل الدول الاستعمارية ، سعياً حثيثاً لدى الباب العالي للحصول على موافقة السلطان ، لفتح باب الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، والسماح بشراء الأراضي هناك تنفيذاً لسياسة حكوماتهم ، إلا أن السلطان صمد أمام تلك الأغراءات والتهديدات ، ورفض التفريط بأي جزء من أرض فلسطين .

وعلى لسان السفير العثماني في واشنطن اعلن بوضوح انه لن يبيع فلسطين وأوقف الباب العالي أي هجرة يهودية تالية لليهود الروس نحو فلسطين (٣) .

وقد أكد ذلك حاييم وايزمن حينما قال :
إن الحكم العثماني كان يمنع بيع الأراضي لليهود ويمنع بناء مستعمرات لهم(٤) .

وقد تنبهت السلطات العثمانية في زمن مبكر فقامت بفرض منع على الاستيطان اليهودي بفلسطين يرجع تاريخه إلى نيسان (ابريل) ١٨٨٢م (٥) .

ولقد كان السلطان عبد الحميد الثاني يعرف مدى فساد الإدارة الحكومية وانتشار الرشوة والمحسوبية عند كبار الموظفين ، ولذلك فقد كان يحرص على اللوام إختيار الموظفين الأكفاء المخلصين لتعيينهم متصرفين على سنجق القدس ، حتى لا يقعوا فريسة اغراءات قناصل الدول الأجنبية ، فيغضوا النظر عن دخول المهجرين اليهود إلى فلسطين ، وشراء الأراضي الحكومية لهم .

وكان من هؤلاء الموظفين المخلصين رؤوف باشا (١٨٧٦-١٨٨٨م) وهو رجل مستقيم نظيف اليد عينته الدولة متصرفاً على القدس ، فأخد يرسل بين الحين والآخر القوات العثمانية للبحث عن اليهود المقيمين بطريقة غير قانونية ولكن هذه القوات كانت في كثير من الأحوال تخضع لشهوة المال الذي كان اليهود يمنحوه بسخاء لقاء الصمت وغض النظر عن اقامتهم ، وكان رؤوف باشا في صراع مع اليهود منذ عام ١٨٧٨م ومن المعارضين للهجرة اليهودية لانه كان يعي تماماً انه انتشرت بين اليهود احلام العودة إلى فلسطين ، وان ما يفعله ضد المستعمرات اليهودية إنما لإزالة الحلم وكثيراً ما تنازع مع القنصلين الروسي والألماني بسبب احتجاجاتهما المتكررة ضده بسبب ملاحقته للمهاجرين اليهود والواقع انه كان لردود الفعل العربية أثر واضح في

سياسة رؤوف باشا حين اجتمع أكثر من مرة مع المتنورين العرب الذين أبدوا معارضتهم للهجرة اليهودية سواء بتقديم العرائض أو بالهجمات على المستوطنات اليهودية [٦] .

وعلى أثر المذابح التي قامت بها الحكومات القيصرية الروسية ضد اليهود وتهجير عدد كبير منهم خارج أوطانهم ، بدأ بعض هؤلاء المهجرين يتوجهون إلى فلسطين .

وعندما أحس السلطان بأن سيل الهجرة قد يتدفق إلى فلسطين أرسل في ٢٩ حزيران ١٨٨٢م رسالة إلى متصرف القدس يطلب فيها ان يمنع اليهود الذين يحملون الجنسيات الروسية والرومانية والبلغارية من الدخول إلى القدس . كما أبلغت الدولة العثمانية البعثات الدبلوماسية لدى الباب العالي رسمياً قرار مجلس الوكلاء العثماني القاضي بمنع اليهود الروس من استيطان فلسطين . وكانت السلطات العثمانية تنظر إلى المهاجرين اليهود نظرة مشوبة بالشك والريبة لكونهم أوروبيين ذلك ان العثمانيين كانوا قد فقدوا ثقتهم بأوروبا نتيجة لسياستها تجاه الدولة العثمانية فعملت السلطات على مضايقة المهاجرين اليهود الذين جاؤوا ليؤسسوا وطناً لهم داخل إمبراطورية السلطان . وكانت قوانين ١٨٨٢م لا تسمح لليهود بدخول فلسطين إلا في حالة واحدة هي : الحج والزيارة المقدسة ولمدة ثلاثة شهور على ان يحجز جواز سفر الزائر ويودع في مركز البوليس التركي حيث يستبدله مؤقتاً « بالجواز الأحمر » ولكن ظلت تلك الأوامر نافذة في الخيال فقط واستطاع اليهود خرقها بفضل البخشيش [٧] .

والواقع ان الدولة العثمانية لم تكن بمنأى عن هذا النشاط الصهيوني في فلسطين ، فمنذ عام ١٨٥٥م اصدرت قانوناً يمنع الأجانب من الاحتفاظ أو شراء الأراضي في فلسطين ، كما ومنعت انشاء مستعمرات يهودية جديدة . ففي شباط (فبراير) عام ١٨٨٧م صدرت أوامر جديدة بشأن الهجرة اليهودية وجهت إلى متصرفي القدس ويافا تعلمهم بأنه يسمح لليهود الدخول إلى البلاد كحجاج أو زوار فحسب ، وعلى كل يهودي يصل إلى يافا ان يدفع ٥٠ ليرة تركية لقاء تعهده بمغادرة فلسطين خلال (٣١) يوماً . وجاء ذلك القرار منسجماً مع قرار الباب العالي الذي استهدف وضع حد لتيار الهجرة اليهودية الذي أخذ يتدفق على فلسطين ، لاسيما بعد ان تحقق الباب العالي

من الخطر الذي يكمن وراء استيطان اليهود بأعداد كبيرة في فلسطين ، وما يترتب على تلك الهجرة من حقوق وامتيازات يتمتع بها اليهود كرعايا أجانب[٨] .

ولم يكتف السلطان عبد الحميد الثاني بإصدار القرارات والقوانين التي تحمي فلسطين من تدفق الهجرة اليهودية إليها ، بل عمد إلى تبليغ الدول الأجنبية استياءه من مواقفهم في تشجيع الهجرة غير الشرعية ، وحماية اليهود الذين رفضوا العودة بعد تأدية فرائض الحج والطقوس الدينية .

وعندما رأت الدولة العثمانية ان بعض الدول الأجنبية تساعد على انجاح الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وتعمل في نفس الوقت على عرقلة تنفيذ القرارات الحكومية طلب الباب العالي من متصرف القدس اجراء اتصالات مع قناصل الدول الأجنبية في آب (اغسطس) عام ١٨٨٧م لابلاغهم استياء السلطان والسلطات العثمانية لعدم قيام القنصليات الأجنبية في القدس وفروعها في يافا بخطوات من جانبها لتسهيل مهمة إخراج اليهود الأجانب الذين انتهت مدة اقامتهم امتثالاً للأوامر التي وردت من الباب العالي ، بناء على إرادة السلطان بمنع اليهود من الإقامة في فلسطين . وكان رد القناصل على المتصرف في ٢٣ أيلول (سبتمبر) من نفس العام ، إنهم لم يقبلوا تنفيذ الأمر حتى يتلقوا تعليمات من سفاراتهم في استانبول [٩] .

وفي عام ١٨٨٢م أصدر الباب العالي قوانين جديدة نصت على ضرورة حمل اليهود الأجانب جوازات سفر توضح عقيدتهم اليهودية كي تمنحهم سلطات الميناء تصريحاً لزيارة المتصرفية لمدة ثلاثة شهور ، كما رفضت السلطات العثمانية في ميناء يافا السماح بدخول اليهود الذين لم يحصلوا على سمات دخول من القناصل العثمانيين في بلادهم . وكان هذا القرار رداً صريحاً على موقف القناصل الأجانب من محاولاتهم المستمرة لتعطيل فعالية القوانين العثمانية الخاصة باليهود ، وتكريساً للموقف العثماني من الهجرة اليهودية المتدفقة ، فكان ان أوعزت الحكومة العثمانية إلى قناصلها في مختلف البلاد عدم التأشير على جوازات سفر اليهود إلا بداعي الزيارة الدينية ولمدة محدودة . ومن أجل ذلك احتجت بريطانيا على قوانين عام ١٨٨٨م ، فأوضحت الحكومة العثمانية لسفارتها في استانبول في تشرين الأول (اكتوبر) من نفس

العام إن اجراءات المنع لن تطبق إلا بحق اليهود الانجليز الذين يأتون إلى فلسطين بأعداد كبيرة وليس بحق الذين يأتون فرادى(١٠) .

وكانت الدول الأجنبية تزداد نشاطاً في تهريب اليهود إلى فلسطين ، كلما ازدادت تشريعات السلطان بمنع دخولهم واقامتهم في البلاد .

ونظراً لهذا الواقع الجديد فقد زادت شكوك السلطان « عبد الحميد الثاني » في أهداف الحركة الصهيونية فأتخذ وسائل للحد من الأطماع اليهودية في فلسطين فأرسل بعض امانة السر الخاصة به في قصر « يلـدز » لتولي حكم متصرفية القدس بدلاً من الموظفين الذين تدرجوا في سلك وظائف الإدارة العثمانية . وكان أول من وصل إلى القدس « توفيق بك » الذي كان أميناً وصارماً في تطبيق نصوص القانون ، وبسبب ذلك فإن المهاجرين اليهود والمنظمات اليهودية المختصة بإنشاء المستعمرات التفتوا إلى الأراضي الواقعة في شمال البلاد « لأن المسؤولين الرسميين كانوا أقل صلابة من هؤلاء الموجودين في المتصرفية والذين كانوا على استعداد لارضاء رئيسهم والي بيروت »(١١) .

ونظراً لضعف الحكومة العثمانية من جهة وإزدياد تآمر الدول الاستعمارية من جهة ثانية ، فقد كانت تلك القوانين والتشريعات تقابل بالمعارضة ، والمحاربة من تلك الدول التي كانت تعمل جاهدة على ترسيخ المشروع الصهيوني الاستعماري . وكثيراً ما كانت تتحدى الباب العالي في معارضتها لتلك السياسة العثمانية .

وكان السلطان يقابل ذلك بمزيد من التشريعات والقوانين وتكرس ذلك عملياً عندما أصدر السلطان « عبد الحميد الثاني » قوانين جديدة في حزيران (يونيه) عام ١٨٩٨م منع فيها اليهود من دخول القدس ، على ان هذه القوانين لقيت معارضة من القنصليات الأجنبية فأبرق متصرف القدس إلى الباب العالي « يطلب منه تعليمات دقيقة ومحددة حول القوانين الجديدة » فجاء الرد بعد شهرين وبالذات في ٢٥ آب (اغسطس) عام ١٨٩٨م – أي قبل انعقاد المؤتمر الصهيوني الثاني بثلاثة أيام – يطلب الصدر الأعظم تنفيذ قوانين الهجرة الخاصة باليهود .

وقد بلغ من تشدد السلطات العثمانية في تنفيذ هذه القوانين انها منعت نائب القنصل البريطاني في انطاكية من الدخول ما لم يقدم التعهد المطلوب بإعتباره يهودياً . ذلك التعهد الذي يقضي بان يغادر البلاد خلال المدة التي حددها القانون .

وفيما يختص بالهجرة اليهودية فإن تشدد السلطات العثمانية لم يكن مقتصراً على القدس الشريف فحسب ، بل حدث ان منع قائمقام يافا بعض اليهود الانجليز من دخول البلاد واعادهم إلى السفينة ، كما قام بطرد عائلتين يهوديتين لانتهاء زيارتهما وكانت مثل هذه القوانين تطبق في مختلف انحاء فلسطين إلا ان المرتشين من الحكام كثيراً ما كانوا يعطلون من فعاليتها(١٢) .

وكانت الحكومات الاستعمارية تتدخل ضد ممارسات الحكومة العثمانية بوقاحة استعمارية متناهية بحجة الدفاع عن حقوق الانسان ، وحماية الاقليات ، ورعاية مصالح اليهود المساكين المضطهدين !!!؟.

ومن الأمثلة على ذلك ما حدث عندما اعادت السلطات العثمانية عدداً من اليهود الذين دخلوا فلسطين بصورة غير شرعية .

وكانت السلطات العثمانية قد طردت تسعة يهود بريطانيين واعادتهم إلى الباخرة وقد أكد ذلك القنصل البريطاني ونائبه بأن هؤلاء قد أعيدوا قهراً إلى الباخرة ، وانهم لم ينزلوا إلى ميناء حيفا إلا بعد ان قدم صديق لهم ضماناً وتعهداً بالخروج في المدة المحددة ، إلا أن « ديكسون » صرح بأن « أمزلاك » قد حصل على وثيقة خطية موقعة من شاهدي عيان يهود حول تلك المعاملة غير اللائقة ويبدو ان اليهود البريطانيين قد عذبوا وضربوا بالأيدي لارغامهم على العودة إلى الباخرة وبناء على هذه المعلومات قدم « أوكونر » — السفير البريطاني في الأستانة — احتجاجاً على الموقف العثماني من اليهود البريطانيين وأرسل برقية عاجلة إلى « ديكسون » يستفسر فيها عن موضوع المهاجرين اليهود التسعة الذي طردتهم السلطات العثمانية وقال : « هل اليهود التسعة هم حجاج أم مهاجرون ؟ اين هم الآن ؟ لقد احتججت بقوة على تصرفات الدولة العثمانية التي تعتبر خرقاً مباشراً لمعاهدة الامتيازات اعلم المتصرف ان هذه مسألة خطرة » . واعتبرت وزارة الخارجية البريطانية ان منع اليهود من الدخول إلى

فلسطين مخالف للاتفاقيات الدولية « وإن على الامبراطورية العثمانية ان تعيد النظر في هذه الأنظمة المطروحة على البحث الآن ، لأنها تتعارض مع حقوق الانسان »(١٣) .

ولقد كان التقيد بتعليمات السلطان صارماً ، بحيث ان السلطات العثمانية في فلسطين تشددت مع كل يهودي مهاجر مهما كانت مهنتة وقصده مع زيارة الأراضي المقدسة فقد حدث ان منعت سلطات ميناء حيفا السيدة « آنالانـدو » – اليهودية البريطانية لدى وصولها من انجلترا – من النزول إلى القدس لتسلم منصبها كمعلمة في المدرسة التابعة للاتحاد الانجلو – يهودي(١٤) .

وبالرغم من هذه الاجراءات المشددة للحفاظ على فلسطين . استطاع بعض اليهود التسلل إلى فلسطين بمساعدة بعض القناصل الاوروبيين في فلسطين وقبول بعض الموظفين العثمانيين الرشاوي . وفطن عرب فلسطين إلى هذا التسلل فأرسل أعيان القدس في الرابع والعشرين من شهر يونيو (١٨٩١م) التماساً إلى الباب العالي لاتخاذ اجراءات فعالة كفيلة بمنع نزوح اليهود الأجانب إلى فلسطين وشرائهم الأراضي ، وكان العرب قد أدركوا ان القيود المفروضة على اليهود الأجانب قد خففت بعد ان ترك محمد شريف رؤوف باشا الذي كان يتولى متصرفية القدس منصبه سنة ١٨٨٩م ، وكان هذا المتصرف يؤيد تأييداً حاراً سياسة السلطان عبد الحميد في منع اليهود من الاقامة في فلسطين ، وكان يسارع إلى طرد الحجاج من فلسطين بالقوة بمجرد انقضاء المدة المسموح بها لهم ، كما كان يمنع قدر استطاعته بيع الأراضي لليهود . وقد استجاب الباب العالي للالتماس الذي رفعه اليه أعيان القدس ، وجدد القيود المفروضة على إقامة اليهود في فلسطين وعلى بيع الأراضي اليهم . وفي سنة ١٨٩٢م صدر قانون يحرم بيع أراضي الحكومة إلى جميع اليهود ، بما فيهم رعايا الدولة العثمانية اليهود (١٥) .

كما حاول المهاجرون اليهود التفتيش عن طريقة للتحايل على ذلك الأمر وهو « ما لم يكن صعباً في تركيا » في تلك الأيام . ولكن والي القدس ، رؤوف باشا ، الذي كلف بتنفيذ ذلك الأمر والذي استغله ليس لمنع المهاجرين اليهود من دخول فلسطين فقط وإنما لعرقلة إقامة الأبنية الجديدة في مستوطناتهم أيضاً ، كان رجلاً « ذكياً ،

حسن الاطلاع وغير قابل للرشوة » . ولهذا كان الصراع معه صعباً للغاية . ولكن هواة صهيون لم يعدموا وسيلة للتغلب على تلك الاجراءات ، إذ قام زعماؤهم في روسيا بلفت نظر السلطات هناك إلى هذا الوضع ، فأوعزت الحكومة الروسية التي كانت معنية باستمرار الهجرة إلى سفيرها في تركيا وقناصلها في فلسطين بتقديم احتجاج على ذلك ، وعلى الأثر خفت حدة الاجراءات ، وسمح باستئناف الهجرة واستمر الوضع على هذا المنوال حتى سنة ١٨٨٤م وذلك بعد ان سويت الخلافات بين المواطنين الجدد وابناء اليشوف القديم ، من سكان القدس خاصة ، الذين اتهموا بتحريض السلطات ضد المهاجرين الجدد ، وحثها على منعهم من دخول فلسطين ، خشية ان يؤدي إزدياد عددهم في البلد إلى المساس بأموال التبرعات ، التي كانت ترسل لليشوف القديم [١٦] .

واكتشفت السلطات ان « موظفي ميناء يافا ... المرتشين كانوا يرسلون كل شهر إلى الوالي بيانات (كاذبة) تفيد ان كل اليهود الذي دخلوا البلاد خلال الشهر السابق ، قد عادوا من حيث اتوا » ولهذا ازدادت اجراءات منع المهاجرين من الدخول إلى فلسطين حدة وفعالية خاصة خلال سنة ١٨٨٧م — وكانت قد وقعت صدامات بين العرب ومستوطني بيتيح تكفا خلال السنة السابقة — وعززت قوة الشرطة في ميناء يافا ، واستبعدت العناصر الفاسدة من بينها وذلك بعد ان وسعت مساحة الأراضي التي تسري عليها أوامر الحظر لتشمل أيضاً منطقة الجليل في شمال فلسطين بالاضافة إلى منطقة القدس وقد ادت هذه الاجراءات إلى فرض حظر شبه كامل وفعال ، على دخول المهاجرين اليهود إلى فلسطين ، مما دفع هواة صهيون إلى التفتيش عن الوسائل الكفيلة بالغائه فاتجهوا ، مرة أخرى ، إلى طلب تدخل الدول الأجنبية لصالحهم ، فقام سفراء الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بالضغط على الحكومة التركية ، لالغاء تلك الاجراءات ، إلى ان تم لهم ذلك سنة ١٨٨٩م . ولم يكتف سفير الولايات المتحدة اوسكار شتراوس ، اليهودي الأصل ، بذلك وإنما استمر في ضغوطه ، حتى استطاع حمل السلطات التركية على عزل والي القدس ، رؤوف باشا ، من منصبه واستبداله بوال آخر ، أقل عداء للصهيونيين . وكانت مواقف رؤوف باشا هذه قد أدت الى تجميد النشاط الاستيطاني الصهيوني في متصرفية القدس ، خلال فترة ولايته[١٧] .

ولم تكن هذه الاجراءات موجهة ضد استيطان اليهود في الدولة العثمانية ، بل كانت موجهة بصورة محددة ضد الاستيطان اليهودي في فلسطين ، نظراً لما يترتب على ذلك من تنفيذ للمخططات الاستعمارية في السعي لتهويد فلسطين ، واقامة دولة يهودية تكون قاعدة للاستعمار الغربي في المنطقة .

وكانت السلطات العثمانية ، حتى ذلك الوقت ترحب مبدئياً بقدوم اليهود إلى الامبراطورية ، وتسمح لهم بالسكن في أي منطقة فيها ، وهو تقليد اتبعته منذ طرد اليهود من اسبانيا في نهاية القرن الخامس عشر . ولكن هذا الموقف تغير مع بداية موجات الهجرة الصهيونية إلى فلسطين ، إذ خشيت السلطات ان يؤدي إزدياد اعداد أولئك المهاجرين الى نشوء مشكلة قومية جديدة في الامبراطورية العثمانية ، التي كانت قد جابهت مشاكل عدة مماثلة ، في انحاء مختلفة منها ، خلال القرن التاسع عشر . كذلك خشيت السلطات العثمانية من إزدياد تدخل الدول الأوروبية في شؤون الإمبراطورية الداخلية ، نتيجة لازدياد اعداد مواطنين تلك الدول فيها . كما ساهمت احتجاجات العرب الفلسطينيين ضد الهجرة في تغيير موقف السلطات منها . يضاف إلى ذلك كله ان معظم المهاجرين اليهود كانوا من روسيا ، عدو تركيا اللدود . وكانت قد نشبت خلال القرن التاسع عشر فقط ، أربع حروب بين روسيا وتركيا ولهذا تنبهت السلطات العثمانية في وقت مبكر إلى موجات الهجرة اليهودية المتجهة نحو فلسطين ، مما دفع بها ، بعد بحث القضية ، إلى الاعلان في آواخر سنة ١٨٨١م ، عن موقف واضح بهذا الشأن ، مفاده السماح بهجرة اليهود إلى أي جزء من أجزاء الإمبراطورية العثمانية ، عدا فلسطين ، شرط أن يوافق المهاجرون على استبدال جنسياتهم الأصلية بالجنسية العثمانية وبقيت هذه السياسة سارية المفعول ، عامة ، حتى نشوب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م . غير أن هذه السياسة لم ترق في أعين المهاجرين اليهود ، الذين كانوا يتجهون بأكثريتهم إلى فلسطين بالذات ، بينما كان العديد منهم يرفضون التنازل عن جنسياتهم الأصلية ليتسنى لهم التمتع بحماية القناصل الأجانب في البلد . وكانت حصيلة هذين الموقفين المتناقضين لجوء الحكومة التركية ، من جهة ثانية بمحاولات لاسترضاء السلطات التركية أو الضغط عليها بواسطة الدول الأجنبية حتى يتم الغاء تلك الاجراءات — ثم اضطرار السلطات

إلى العودة إليها ثانية مع إزدياد اعداد المهاجرين . وبدأ ذلك كأنه نوع من دورات منتظمة متواصلة ، من فرض القيود ثم الغائها، استمرت تظهر وتختفي حتى نهاية الحكم العثماني في فلسطين[١٨] .

كذلك قامت السلطات التركية ، في الوقت نفسه ، بتشديد اجراءات منع المهاجرين من دخول فلسطين ، خصوصاً بعد ان قويت موجة الهجرة إلى البلاد خلال (١٨٩٠-١٨٩١م) ، اثر ظهور معارضة في أمريكا وبريطانيا لدخول المهاجرين اليهود إليهما بأعداد كبيرة . وحاول قناصل الدول الأجنبية التدخل ، كالعادة ، لالغاء هذه الاجراءات إلا أن السلطات أصرت ، هذه المرة ، على عدم الاستجابة لكل طلباتهم ، وأبقت على بعض القيود بشكل دائم[١٩] .

ولم يقف عرب فلسطين موقف المتفرج من هذه الهجمة الاستعمارية الشرسة على بلادهم بل قاموا يواجهونها بالقوة تارة والاحتجاج تارة أخرى وكانوا يلقون تجاوباً دائماً من السلطان الذي كان يسارع إلى تلبية طلباتهم إلى سن القوانين ولمنع الهجرة واستبدال الموظفين المتواطئين مع قناصل الدول الأجنبية .

صمم عرب فلسطين على التصدي للهجرة اليهودية ومخططات الصهيونية ، ففي آيار (مايو) ١٨٩٠م قام وفد من وجهاء القدس بتقديم عريضة احتجاج للصدر الأعظم ضد رشاد باشا (متصرف القدس) الذي أبدى محاباة وتحيزاً للصهاينة بخلاف سلفه رؤوف باشا وعاد وجهاء القدس في عام ١٨٩١م فأرسلوا إلى الصدر الأعظم في الاستانة احتجاجاً طالبوا فيه باصدار (فرمان) « بمنع هجرة اليهود وتحريم استيطانهم واستملاكهم للأراضي الفلسطينية » بعد ان لاحظوا بداية النشاط الصهيوني لاقامة وطن قومي لليهود في فلسطين[٢٠] .

كما تصدوا لعملية بيع الأراضي التي كان يقف وراءها سفراء الدول الأجنبية مع الموظفين العثمانيين المتواطئين معهم .

وشهد عام ١٩٠٠م حملة احتجاجية واسعة من العرائض الجماعية ضد استملاك اليهود للأراضي الزراعية وسجلت تقارير البرت عنتيبي المعتمد الرسمي للجمعية

الاستعمارية اليهودية وكانت حينذاك مؤسسة صهيونية ، بأن هذه الجملة تدل دلالة قاطعة على الوعي الفلسطيني المبكر ، وتثبت ان الصهيونية هي التي سممت العلاقات العربية اليهودية في فلسطين ، كما سجلت هذه التقارير امتداد المعارضة للصهيونية إلى صفوف موظفي الحكومة من أهالي البلاد .

وفي عام ١٩٠١م صدر قرار آخر يمنع دخول أي يهودي إلى أرض فلسطين (إلا إذا كان سيغادرها خلال ثلاثة أشهر) ولم ينفذ هذا القرار بسبب تدخل السفير البريطاني في العاصمة العثمانية علاوة على دخول الصهاينة إلى أرض فلسطين بمساعدة بريطانيا بطرق غير مشروعة[٢١] .

وبعد ان جرت انتخابات مجلس المبعوثان في السلطنة العثمانية ، انتقل الصراع ضد الصهيونية داخل المجلس أيضاً ، ففي عام ١٩٠٩م أجبر النواب العرب في مجلس المبعوثان رئيس الوزراء على ان يعلن « انه لن يسمح لليهود باستيطان فلسطين » . كما انهم أجبروا كذلك وزير الداخلية على ان يعلن معارضته للأهداف الصهيونية [٢٢] .

ونتيجة لمساعي عرب فلسطين ، وتجاوب السلطان عبد الحميد الثاني صدرت عام ١٨٩٩م قوانين جديدة وضعت بهدف منع استيطان اليهود في فلسطين ، وأرسلت إلى القدس ويافا لتنفيذها ، كما وزعت نسخ منها على الهيئات القنصلية في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٠٠م بعنوان « القوانين المتعلقة بالزوار العبرانيين للأراضي المقدسة » . هذه القوانين ألغت تأمين الـ ٥٠ ليرة تركية وتحديد الاقامة بـ ٣١ يوماً وسمح لكل يهودي أجنبي يزور فلسطين بالاقامة فيها مدة ٣ أشهر ، وعند نزوله إلى أي ميناء في ولاية بيروت أو في متصرفية القدس يسلم جواز سفره ويتسلم بدلاً منه تذكرة خاصة (تتميز بلون وشكل خاص لكي يسهل تمييزها عن التذاكر العادية ، مقابل قرش واحد) ، تذكر فيها المهنة والجنسية وسبب الرحلة . وعند انتهاء الأشهر الثلاثة تقوم السلطات المحلية بترحيل اليهودي عن البلاد (إذا رفض مغادرتها) عن طريق القنصلية ذات العلاقة ، نظراً لما لها من حق السلطة القضائية عليه . ونصت

القوانين على وجوب حفظ سجل شهري لتواريخ وتفاصيل مثل هذه التذاكر المؤقتة ، توزع على السلطات المحلية والبوليس من أجل إبعاد الذين تجاوزوا فترة الاقامة (٢٣) .

كما أصدر السلطان في نوفمبر ١٩٠٠ فرماناً يحدد إقامة الزائرين اليهود لفلسطين بمدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر ، وكان هذا الفرمان اجراءً وقائياً يتصل بأمن الدولة ، ولكنه أثار الصهيونيون ودفعوا بعض الحكومات الأوروبية إلى الاحتجاج عليه لدى السلطان . وقد سارعت الحكومة الايطالية بإبلاغ حكومة الاستانة انها لا تميز بين رعاياها اليهود ورعاياها المسيحيين . ومن ثم فهي تحتج على هذا الفرمان . وقام السفير الامريكي في الاستانة بتقديم احتجاج مماثل في ٢٨ من فبراير ١٩٠١م باسم حكومة الولايات المتحدة الامريكية ، وكذلك نهجت انجلترا هذا النهج وكان رد الباب العالي ان ذلك الفرمان ليس امراً جديداً فهو تجديد لفرمان مماثل صدر منذ عشرين عاماً . ورأى السلطان عبد الحميد – كي يخفف من حدة هذه الاحتجاجات – ان يقابل في قصره زعيم الحركة الصهيونية تيودور هرتزل . وقد تمت المقابلة في ١٧ آيار (مايو) ١٩٠١م ، وقد صحب هرتزل معه اثنين من أقطاب الحركة الصهيونية (٢٤) .

ولقد قام عرب فلسطين بتقديم الشكاوي والعرائض ضد الموظفين العثمانيين المتواطئين مع قناصل الدول الأجنبية بشدة . مما كان يؤدي في كثير من الاحيان إلى ابعادهم عن وظائفهم .

وبسبب الشكاوي العربية استبدل حاكم القدس العثماني في العام ١٩٠٦م بحاكم آخر وضع القيود على الهجرة اليهودية موضع التنفيذ بشدة (٢٥) .

وفي عام ١٩٠٦م عين متصرف جديد للقدس بدلاً من سلفه رشيد بك الذي كان قد ساند الهجرة اليهودية إلى فلسطين وخالف القوانين العثمانية التي فرضت الحظر عليها (٢٦) .

أما في فلسطين ذاتها فقد قام العرب رجالاً ونساءً يتصدون للهجمة الصهيونية الاستعمارية الشرسة المتمثلة في الهجرة وشراء الأراضي التي بدأت تزداد بشكل ملحوظ

عقب سقوط السلطان عبد الحميد الثاني واستلام الاتحاديين (تركيا الفتاة) للحكم ، وهؤلاء كانوا يتعاونون مع الصهيونية والماسونية .

وفي منتصف عام ١٩١٤م تأسست في فلسطين مؤسسات وطنية وخيرية في القدس بقصد الوقوف في وجه الأخطار الوشيكة التي تهدد أرض الوطن وانقاذ البلاد من الدمار « والمؤسسات هي : الجمعية الخيرية الإسلامية ، جمعية الاخاء والعفاف ، وشركة الاقتصاد الفلسطيني العربي وشركة التجارة الوطنية الاقتصادية وكانت جميع الجمعيات المذكورة تنادي بالتوعية ونشر التعليم ومساندة الصناعات الوطنية . كما أسس الطلبة الفلسطينيين بالأزهر الشريف « جمعية مقاومة الصهيونية » وأسس طلبة نابلس في بيروت « جمعية الشبيبه النابلسية » وتأسست « جمعية المنتدى الأدبي » في حيفا . وشاركت النساء العربيات الفلسطينيات في هذا المجال جمعية الإحسان العام وجمعية يقظة الفتاة العربية وكانت كلا الجمعيتين وطنية تتولى برعايتها الصناعات المحلية [٢٧] .

١- هرتزل والسلطان عبد الحميد الثاني :

حاول الصهاينة منذ بدأت الحركة الصهيونية اليهودية بشكل منتظم عام ١٨٩٧م الاتصال بالسلطان عبد الحميد الثاني لاقناعه بفتح باب الهجرة اليهودية إلى فلسطين والسماح لهم بإقامة مستوطنات للاقامة فيها .

ولقد قام هرتزل باتصالاته تلك بتوجيه من الدول الاستعمارية الاوروبية خاصة بريطانيا وألمانيا . وكان هرتزل يعلم مدى الضائقة المالية التي تمر بها الدولة العثمانية ، لذلك كان يحاول إغراء السلطان بحل مشاكله المالية مقابل تنفيذ طلبات الصهاينة ، والمستعمرين الذين يوجهونهم .

أخبر هرتزل السلطان عبد الحميد وذلك عن طريق أحد الوسطاء (استخدام الوسطاء فن يحيده السماسرة والصهاينة) انه سينشر في جريدة دي فيلت التي يعمل بها بسرور وحياد اكيدين (كذا) المراسلات والأنباء التي قد تكون في صالح

السلطان . وقد استخدم هرتزل بالفعل الصحافة اليهودية في العالم ضد الأقلية المتمردة ليحوز على رضى السلطان . ولم يتردد هرتزل في ان يكتب إلى باديني رئيس حكومة النمسا الرجعي في عام ١٨٩٦م عارضاً عليه اصدار مجلة تدافع عن مصالح رئيس الحكومة مقابل خدمته للسياسة الصهيونية . كما انه لا يتردد في ان يعلن دون حياء ان الحركة الصهيونية ستحول يهود العالم إلى عشرة ملايين عميل لانجلترا إذا ما ساعدتهم الأخيرة على تحقيق الحلم الصهيوني ، ومن المعروف ان هرتزل سبق ان تقدم بعرض مماثل إلى ألمانيا لتحويل اليهود إلى عملاء ألمان (٢٨) .

ومن الواضح ان هرتزل وأعوانه أرادوا ان يستغلوا الضائقة المالية الشديدة التي كانت تئن تحت وطأتها الدولة العثمانية ، فلوحوا بالمال . ولكن السلطان عبد الحميد الثاني ما وهن وما ضعف وما استكان أمام إغراء المال ورد على وسطاء هرتزل بقوله :

« انصحوا الدكتور هرتزل بألا يتخذ خطوات جديدة في هذا الموضوع . أني لا استطيع ان اتخلى عن شبر واحد من الأرض فهي ليست ملك يميني بل ملك شعبي . لقد قاتل شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه ، فليحتفظ اليهود بملايينهم إذا مزقت إمبراطوريتي ، فلعلهم يستطيعون آنذاك بأن يأخذوا فلسطين بلا ثمن ، ولكن يجب ان يبدأ ذلك التمزيق أولاً في جثتنا وإني لا أستطيع الموافقة على تشريح اجسادنا ونحن على قيد الحياة »(٢٩) .

ولم يكن هدف الصهاينة اليهود هو الحصول على مقر اقامة أو وطن ، لان ذلك كان متاحاً لهم في أي بقعة من الدولة العثمانية وكان بامكانهم ان يكونوا مواطنيين عثمانيين اينما كانوا وحيثما أرادوا في الدولة العثمانية عدا فلسطين التي كانوا يتطلعون اليها لتحقيق أهداف سياسية استعمارية ، لذلك كان الصهاينة يقولون إن فلسطين وطننا القومي الذي لا يمكن ان ينسى . ومجرد الأسم هائل ومثير كالصيحة الحامعة بالنسبة لشعبنا . وإذا ما منحنا السلطان صاحب الجلالة فلسطين فسنقدم بالمقابل الوعد بتسوية مشاكل تركيا المالية تماماً أما أوروبا فستكون قد شيدت بذلك جزءاً **« من الحصن في وجه آسيا »** . إننا سنقوم بدور المخفر الحضاري المتقدم في وجه البربرية(٣٠) .

ونتيجة لاتصالاته المتعددة ، دعى هرتزل في آيار (مايو) ١٩٠١م إلى استانبول لمقابلة السلطان ، بصفته « رئيساً لليهود وصحفياً ذا تأثير » ، ولكن حظر عليه التحدث معه عن الصهيونية . وأثناء لقائه مع السلطان ، عرض هرتزل مساعدته على حكومة تركيا ، لتوحيد ديونها للمموليين الأجانب ، الذين كانوا يضغطون عليها ويتدخلون في شؤونها الداخلية ، بسبب ديونهم ، بواسطة قرض طويل الأمد ، يقدمه بعض الرأسماليين اليهود ، مقترحاً مقابل ذلك إصدار « بيان صداقة » من قبل السلطان نحاه اليهود يرحب بقدومهم إلى الإمبراطورية العثمانية والاستيطان فيها . وبعد هذه المقابلة ، استدعى عزت باشا ، أحد مستشاري السلطان ، هرتزل للتفاوض معه بشأن اقتراحاته لتوحيد الديون ، وأبلغه ان اليهود يستطيعون « أن يأتوا إلينا » ، شرط ان يوافقوا على قبول الجنسية العثمانية ، ولن يسمح لهم باستيطان جماعي في أي مكان . وخلال المفاوضات التي تبعت هذه اللقاءات ، استدعى هرتزل مرة أخرى ، في شباط (فبراير) ١٩٠٢م ، إلى استانبول ، وأبلغ أيضاً انه لن يسمح لليهود الذين يفدون إلى الإمبراطورية العثمانية بالاستيطان ، في البداية ، في فلسطين ، وستعين الحكومة ، من حين إلى آخر ، الأماكن التي سيسمح لها بالاستيطان فيها ، ولكن هرتزل رفض هذا العرض . وأدى موقف الحكومة التركية هذا من جهة ، وعجز هرتزل عن إيجاد المال اللازم ، لتوحيد الديون ، من جهة أخرى ، إلى إيقاف المفاوضات بين الطرفين ، بينما اقتنع هرتزل بأنه لن يحصل على إمتياز توطين اليهود في فلسطين ، إلا بعد تقسيم تركيا[٣١] .

وقد دون هرتزل في مذكراته رد السلطان عبد الحميد الثاني عندما عرض عليه المال لشراء فلسطين بقوله : « **لا أقدر أن أبيع ولو قدماً واحداً من البلاد ، لأنها ليست لي بل لشعبي . لقد حصل شعبي على هذه الإمبراطورية بإراقة دمائهم ، وقد غذوها فيما بعد بدمائهم ، وسوف نغطيها بدمائنا قبل ان نسمح لأحد باغتصابها منا . لقد حاربت كتيبتان من جيشنا في سوريا وفي فلسطين وقتل رجالنا الواحد بعد الآخر في (بلفنة) لأن أحداً منهم لم يرضى بالتسليم ، وفضلوا ان يموتوا في ساحة القتال . الامبراطورية التركية ليست لي وإنما للشعب التركي ، لا استطيع أبداً أن اعطي أحداً أي جزء منها . ليحتفظ اليهود ببلايينهم ، فإذا قسمت الامبراطورية فقد**

يحصل اليهود على فلسطين دون مقابل ، إنما لن تقسم إلا على جثتنا ولن أقبل بتشريحنا لأي غرض كان »[٣٢] .

وقد سجل هرتزل في رسالة هامة مؤرخة في الثاني عشر من شهر يوليو ١٩٠٢م رأياً خطيراً نسبه إلى السلطان عبد الحميد الثاني ، فقرر ان هذا السلطان عرض على هرتزل توطين اليهود في العراق ، ولكن رفض هرتزل هذا العرض لأنه لم يشمل فلسطين [٣٣]

ولم يستطع هرتزل كممثل لجريدة Neue Freie Presse الذي قابل السلطان مرتين بواسطة الاستاذ مارلنغ ان يقنع السلطان عبد الحميد بالتخلي عن معارضته ، بل انه – كما يقول مارلنغ القائم بأعمال السفارة في الاستانة « رفض كل مشاريع الهجرة غير المحددة لليهود إلى تركيا ، ووضع كل عقبة في طريق إدخال جماعي لليهود – الأجانب » [٣٤] .

ولقد أوضح وايزمان في مذكراته :

« .... كنا نعرف ان أبواب فلسطين كانت مغلقة ، وإن اليهودي كان يمكن ان يطرد حالاً من قبل السلطات ... وان القانون التركي يمنع الحصول على الأراضي ... ولو اننا حاولنا أن نكون نظاميين لفزعنا ، ولكننا عبرنا عن طريق ملتو ، فاليهود قد استقروا في فلسطين ولم يطردوا ... واشتروا أرضاً .. أحياناً عن طريق رجال صورة ... أو بالرشوة ... لأن الجهاز التركي كان فاسداً ... وفي ظل هذا النظام بنيت المستعمرات الصهيونية الأولى ... » [٣٥] .

ونتيجة ليأس الدول الاستعمارية ، وعملائها الصهاينة من الحصول على موافقة رسمية من السلطان عبد الحميد الثاني ، لاستيطان اليهود في فلسطين ، عملوا إلى التآمر على حياته .

وتذكر بعض المصادر الصهيونية أنه نتيجة للموقف العثماني الرسمي من المشروع الصهيوني ، عرض القنصل العام للدولة العثمانية في فيينا « علي نوري بك » على « تيودور هرتزل » مشروعاً غريباً لتحقيق استيطان يهودي وإقامة الدولة اليهودية وبدونه

لا يمكن ان تنال الصهيونية ما تريد في فلسطين وهو أن يبحر « هرتزل » إلى البوسفور في سفينتين وينسف « يلدز » ويعمل على اتاحة الفرصة للسلطان عبد الحميد بالهرب أو القبض عليه وتعيين سلطان آخر بدلاً منه ، ولكن قبل ذلك يجب اقامة حكومة مؤقتة تعطي اليهود امتياز الاستيطان في فلسطين . ورغم غرابة القصة فقد درسها هرتزل وقدّر تكاليفها وفكر بعواقب فشلها ، وقد طرحت الفكرة في ٢٤ شباط (فبراير) عام ١٩٠٤م وقرر هرتزل اللجوء إليها إذا فشلت مساعية الأخيرة السلمية في استانبول ، لكنه أبرق إلى « علي نوري بك » في ١٩ نيسان (ابريل) من نفس العام معتذراً عن قبول الاقتراح بسبب خشية « هرتزل » من قيام مذبحة هائلة يمنى بها اليهود في الدولة العثمانية إذا فشل المشروع[٣٦] .

وبالرغم من فشل الزعيم الصهيوني في إقناع السلطان العثماني بمشروع الدولة اليهودية في فلسطين فقد كانت « جمعية الاستعمار اليهودي » تواصل نشاطها في فلسطين بالأساليب غير القانونية معتمدة على شراء الأراضي من الإقطاع اللبناني ومنتهجة أسلوب الرشوة مع الإدارة التركية الفاسدة كي تتغاضى عن عمليات الشراء . وكانت اسرة « سرسـق » تملك وحدها مساحات شاسعة في فلسطين تتاجر بها وتستثمرها ، ويعترف هرتزل بهذه الحقيقة عندما يقول : « جمعية الاستعمار اليهودي تتفاوض مع عائلة رومية اسمها سرسق – على ما أظن – من أجل شراء سبعة وتسعين قرية في فلسطين . يعيش هؤلاء الروم في باريس وقد خسروا أموالهم في القمار ، وهم يريدون بيع ممتلكاتهم وهي – ٣٪ بالمئة من مساحة فلسطين حسب قول باميس – بسبعة ملايين فرنك . لقد تحولت جمعية الاستعمار اليهودية عن الأرجنتين ولم تعد تستثمر أموالها إلا في فلسطين[٣٧]

ويذكر السلطان « عبد الحميد الثاني » في مذكراته حول مفاوضات الصهيونية لامتلاك فلسطين فيقول : بأن يهود العالم تعاونوا مع المحافل الماسونية ، وطلبوا مساعدتهم واسكانهم في فلسطين وقد عرضوا عليّ أموالاً ولكنني لم أقبلها ورفضت ذلك المشروع . ويضيف بقوله : « **ان زعيم الصهيونية هرتزل لم يستطع اقناعي بأفكاره بانشاء مزارع لليهود لأنني أعرف أنهم سيقيمون حكماً ذاتياً، وبذلك تكون المسألة اليهودية قد إنتهت . وربما كان هرتزل على حق بالنسبة لشعبه فإنه يريد**

أرضاً لهم ولكنه نسي ان الذكاء وحده ليس كافياً » ، كما يؤكد السلطان عبد الحميد بأنه منذ نشأة الحركة الصهيونية بدأ يعارض مخططاتها لأنه عرف مقاصدها وقال : « **إن الصهيونية لا تريد أراض زراعية في فلسطين لممارسة الزراعة فحسب ، ولكنها تريد ان تقيم حكومة ويصبح لها ممثلون في الخارج .. وإنني أعرض عن هذه السفالة لانهم يظنونني أنني لا أعرف نواياهم ، وليعلموا ان كل فرد في امبراطوريتنا ، كم يُكنّ لليهود من الكراهية طالما هذه نواياهم ، وإن الباب العالي ينظر إليهم مثل هذه النظرة ، إنني أخبرهم أن عليهم ان يستبعدوا فكرة انشاء دولة في فلسطين لأنني لا زلت أكبر اعدائهم »** . ويرى « فامبري » — المقرب من السلطان — إن المشكلة الأولى التي واجهت الصهيونية وأهدافها هي الاتجاهات الحكومية ، وهي نفس المزشكلة التي واجهها هرتزل زعيم الصهيونية(٣٨) .

السلطان يضحي بعرشه من اجل فلسطين :

نتيجة للمواقف الصلبة للسلطان عبد الحميد الثاني ، ضد مخططات الاستعمار والصهيونية ، أصبح من المؤكد لدى زعماء الدول الاستعمارية انه لا مجال لتنفيذ المشروع الصهيوني وتهويد فلسطين ما دام السلطان على العرش .

وقد حكم السلطان — بسبب عدائه هذا لأماني اليهود وأطماعهم — على نفسه بالخلع ، وعلى سمعته وتاريخ خلافته بالتشويه والتحريف والتجريح ، والذي يؤكد ذلك وثيقة تاريخية بخط السلطان عبد الحميد تبين سبب خلعه ، وهي رسالة وجهها بعد خلعه إلى شيخه في الطريقة الشاذلية الشيخ محمود ابي الشامات — شيخ الطريقة الشاذلية في دمشق — وقد نشر هذه الرسالة الاستاذ « سعيد الافغاني » الدمشقي في مجلة « العربي » الكويتية في عددها الصادر في شهر شوال ١٣٩٢هـ الموافق لكانون الأول ١٩٧٢م ضمن مقالة بعنوان « سبب خلع السلطان عبد الحميـد » .

إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما ، سوى أنني — بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم (جون تورك) وتهديدهم — اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة .

إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصروا عليّ بأن اصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة « فلسطين » ورغم أصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف ، وأخيراً وعدوا بتقديم (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة انجليزية ذهباً ، فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً ، وأجبتهم بهذا الجواب القطعي الآتي :

« انكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً — فضلاً عن (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة انجليزية ذهباً — فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي ، لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة فلم أسود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين . لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي أيضاً » .

وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي ، وأبلغوني انهم سيعيدونني إلى (سيلانيك) فقبلت بهذا التكليف الأخير[٣٩] .

لقد كان السلطان عبد الحميد يدرك اخطار الهجرة اليهودية ، يدرك مدى قوة الصهاينة في أوروبا التي هي قوة الدول الاستعمارية نفسها لذلك فهو يقول في مذكراته :

لليهود في أوروبا قوة أكثر من قوتهم في الشرق ، لهذا فإن أكثر الدول الاوروبية تحبذ هجرة اليهود إلى فلسطين للتخلص من العرق السامي الذي زاد كثيراً .

ولكن لدينا عدد كاف من اليهود ، فإذا كنا نريد ان يبقى العنصر العربي متفوقاً علينا أن نصرف النظر عن فكرة توطين المهاجرين في فلسطين وإلا فإن اليهود إذا استوطنوا أرضاً تملكوا كافة مقدراتها خلال وقت قصير . وبذا نكون قد حكمنا على إخواننا في الدين بالموت المحتم .

إنني أدرك أطماعهم جيداً ، لكن اليهود سطحيون ، في ظنهم أنني سأقبل بمحاولاتهم وكما إنني أقدر في رعايانا من اليهود خدماتهم لدى الباب العالي فإنني أعادي أمانيهم وأطماعهم في فلسطين[٤٠] .

وكانت له سياسة واضحة تجاه الهجرة بشكل عام في إمبراطوريته إذ كان

يقول :لكي نعمل على اسكان الأراضي الخالية من امبراطوريتنا ، يتوجب تنظيم الهجرة بشكل مناسب لكننا لا يمكننا القول بأن الهجرة اليهودية شكل مناسب لقد مضى عهد دخول اتباع الأديان الأجنبية إلى مجتمعنا كما تدخل الشوكة في أجسادنا . ليس لنا ان نقبل في أراضينا إلا من كان من أمتنا إلا من شاركنا في معتقدنا ، علينا أن نبدي اهتمامنا في تقوية العنصر التركي (العثماني) وأن نسعى إلى زيادة المسلمين في البوسنة والهرسك وبلغاريا بالهجرة إلى هذه المناطق واستيطانها [٤١] .

وهكذا نجد ان مثل هذه السياسة تعارض بشكل واضح سياسة الدول الاستعمارية التي بدأت بالتآمر عليه واسقاطه فجاءت نهاية حكم السلطان عبد الحميد الثاني على يد ثوار « تركيا الفتاة » لتفتح المجال الواسع أمام النشاط الصهيوني المنظم على شتى المستويات [٤٢] .

ولقد أدى « انقلاب » تركيا الفتاة إلى تحسن ملحوظ في الفرص والمجالات المفتوحة أمام التطور الصهيوني بفلسطين . فقد كتب آنذاك البروفسور ريتشارد غوتهايل ، وهو الذي كان رئيس الفرع الأمريكي للمنظمة الصهيونية طيلة سنوات سبع ، ليؤكد على الاحترام الصهيوني للسيادة العثمانية على فلسطين . فقال ما يلي :

بين اليهود ما من أحد يخفق قلبه فرحاً وابتهاجاً مثلما يخفق قلب الصهيونيين (على انقلاب تركيا الفتاة) «[٤٣] .

وتميزت الفترة الممتدة بين مجيء جماعة تركيا الفتاة واندلاع الحرب العالمية الاولى (١٩٠٨-١٩١٤م) بتصاعد النشاط الصهيوني في عاصمة الإمبراطورية العثمانية وفي الولايات العربية التابعة لها[٤٤] .

فشل المشروع الصهيوني في الدولة العثمانية :

لقد تبين لنا فيما سبق الجهود الكبيرة التي بذلتها الدول الاستعمارية والحركة الصهيونية ، لتهجير اليهود إلى فلسطين وشراء الأراضي لتوطينهم وإقامة الدولة اليهودية

هناك لتكون حصناً لأوروبا ، وقاعدة انطلاق لتأمين مصالحها .

ونود الآن ان نرى ثمرة هذه الجهود الجبارة ، وإلى مدى ما تحقق لها من النجاح منذ بدأ النشاط الاستعماري الصهيوني حتى قيام الحرب العالمية الأولى .

لقد مر معنا كيف تحالفت جميع القوى الاستعمارية لتنفيذ المشروع الصهيوني وكيف بذلت الجهود المتواصلة لتهجير اليهود من أوطانهم إلى فلسطين وكيف قامت بالضغوط والمؤامرات على الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد الثاني بالذات حتى اسقطته لأنه كان عقبة في طريقها تحول دون تنفيذ ذلك المشروع .

ونستطيع ان نقول بكل ثقة ان جميع تلك الجهود قد فشلت . وأنه لولا الحرب العالمية الأولى وما نتج عنها من تدمير للدولة العثمانية واحتلال مباشر لفلسطين من قبل الاستعمار البريطاني ، وتقسيم البلاد العربية بين الدول الغربية الاستعمارية، لما قدر للمشروع الصهيوني أن يرى الحياة في فلسطين .

ولعل ما سنورده من أرقام عن عدد المهجرين اليهود وعن مساحة الأراضي التي استطاعوا الاستيلاء عليها بدعم الدول الاستعمارية ، لهو دليل واضح على فشل الجهود الاستعمارية لتهويد فلسطين .

اختلفت التقديرات حول عدد اليهود قبيل وصول طلائع المهاجرين الجدد اليها ، ويستفاد من احصاء جرى للسكان عام ١٨٣٩م فذكر ان عددهم نحو ٦٥٠٠ نسمة نصفهم في القدس وارتفع هذا الرقم في السنة التي تليها ليصل إلى ١٠٥٠٠ نسمة ثم ارتفع ليصل إلى ١٤٥٠٠ نسمة في عام ١٨٥٦م ، ووصل في نهاية عام ١٨٨١م إلى ٢٢٣٥٠ نسمة وكان أكثر من نصف أولئك السكان يعيشون في القدس بينما يعيش الباقون في صفد وطبريا وعكا وحيفا ونابلس والخليل وفي قريتي شفا عمرو والبقيعة .

بينما يذكر التقرير الاحصائي لحكومة فلسطين ١٩١٤م بأن عدد اليهود في عام ١٨٣٩م لم يتجاوز ٦٠٠٠ نسمة في حين بلغ عدد العرب ٣٠٠٠٠٠ نسمة أي أن نسبة اليهود لم تتعدى ٢٪ بالمئة ولم يتجاوز عدد اليهود في عام ١٨٨٠م عشرين ألفاً [٤٥] .

وبين عامي ١٨٤٠ و ١٨٨٠م وصل عدد المستوطنين اليهود بفلسطين إلى ٢٥٠٠٠ ، وخلال السنوات الخمس والثلاثين القادمة قدر لهذا العدد ان يبلغ ٦٠٠٠٠ نسمة[٤٦] .

وفي عام ١٨٧٥م بدأت موجات الهجرة تتدفق ، وكان معدل عدد المهاجرين يصل إلى ألفين في العام ، مما جعل قنصل الولايات المتحدة يكتب إلى وزارة خارجيته محذراً من أن تدفق اليهود على فلسطين من روسيا بمثل هذه الكثرة سوف يقلب الحالة في البلاد ، فلا تمضي سنوات حتى يصبح اليهود هم سكان البلاد — لا سكانها الأصليون . ونتيجة لهذه الهجرة ازداد عدد اليهود فبلغ في نهاية القرن التاسع عشر خمسون ألف يهودي نصفهم تقريباً في القدس ، كما بلغ عدد مستعمراتهم تسع عشرة مستعمرة عدد سكانها ٤٣٥٠ شخصاً[٤٧] .

وبينما تؤكد بعض المصادر ان عدد اليهود كان في ١٨٩٥م حوالى ٦٠ ألف إلا أن المصادر الصهيونية تؤكد ان عدد اليهود كان أقل من ذلك بكثير فقد كان عددهم في عام ١٨٩٧م ما يقارب ٥٠٠٠٠ ألف يهودي[٤٨] منهم حوالي ٤٥٠٠٠ يعيشونَ في ٩ مدن صغيرة وكبيرة (في القدس وحدها « ٢٨٢٥٥ » بينما لم يكن هناك سوى ٤٣٥٠ فرداً يتوزعون على ١٩ مستوطنة يمثلون الاستيطان الحديث . ولم يكن هذا العدد كفيلاً بتغيير النموذج التقليدي للاستيطان القديم القائم على الصدقة (الحالوكا) [٤٩] .

أما مساحة الأراضي التي استطاعوا الاستيلاء عليها فقد كانت صغيرة للدرجة .

وقبل ان نتحدث عن الأراضي التي استطاع الاستعمار والحركة الصهيونية الحصول عليها ، يجدر بنا ان نعطي فكرة عن الوضع القانوني للأراضي في ظل الدولة العثمانية .

لقد أصدرت السلطات العثمانية سنة ١٨٥٨م قانون الأراضي العثماني المؤقت — الذي رغم كونه « مؤقتاً » بقي نافذ المفعول ، في فلسطين على الأقل لمدة تزيد على قرن من الزمن — ليساعدها على تنفيذ سياستها تلك . وقد احتوى ذلك القانون

تعليمات عديدة لتنظيم ملكية الأراضي والحقوق والواجبات المترتبة على ذلك ، فرضت احدها على مالك الأرض تسجيل أرضه بأسمه في دائرة تسجيل الأراضي (الطابو) ، لكي يضمن حقوقه في الملكية ، بينما نصت أخرى على ان ملكية كل قطعه ارض من نوع الأراضي الاميرية (ميري) ، وهو تعريف ينطبق على معظم الأراضي في فلسطين ، تنتقل إلى الدولة ، إذا امتنع صاحبها عن فلاحتها لمدة ٣ سنوات متتالية .

فإصرار السلطة على جباية الضرائب المترتبة على المحاصيل (الأعشار) وفقاً لتقديرات مبالغ فيها ، بحيث لم يكن لدى الفلاحين القدرة على تسديدها ، دفع الكثيرين منهم إلى التنازل عن فلاحة مساحات من أراضيهم ، فقامت الدولة بالاستيلاء عليها وبيعها بالمزاد العلني وبأسعار بخسة عادة ، للأفندية والأثرياء من سكان المدن ، بحيث استطاع عدد ضئيل منهم تركيز ملكية مساحات شاسعة من الأراضي في أيديهم . وبهذه الطريقة انتقلت (مثلاً) ملكية كل أراضي مرج ابن عامر (جنوب مدينة الناصرة) إلى عائلة سرسق ... في بيروت (وهي الأراضي التي بيعت لليهود فيما بعد) واشترى أغنياء آخرون معظم الأراضي القريبة من المدن : صفد ويافا وغزة . وكان أصحاب هذه الأراضي الجدد يؤجرونها (للفلاحين) ، أبناء القرى المجاورة رغم ان عدد المستأجرين كان قليلاً وطرق فلاحتهم بدائية ، وكانوا يتهربون من دفع حصة أصحاب الأراضي (في المحصول) ، ولهذه كان أولئك مستعدين دائماً لبيع الأراضي التي وصلت إلي حوزتهم ، بأسعار بخسة . وحتى في الثمانينات والتسعينات (من القرن التاسع عشر) ، كانت أراضي مرج ابن عامر ، والسهل الساحلي بين حيفا وعكا ووادي الحوارث (إلى الجنوب من حيفا) معروضة للبيع (من قبل « مالكيها الجدد) . دون ان يكون هناك من يشتريها . وقد بيعت معظم هذه الأراضي إلى اليهود ، الذين أقاموا عليها ، مع مرور الوقت ، عشرات المستوطنات .

كذلك فإن أمر السلطات القاضي بتسجيل الأراضي باسماء مالكيها ، في دوائر تسجيل الأراضي (الطابو) ، قد ساهم أيضاً في الاسراع بعملية تركيز الملكية تلك ، في أيدي قلة من الوجهاء ، إذ أن كثيراً من الفلاحين خشوا من إزدياد عبء الضرائب ،

الملقى على عاتقهم ، بعد تنفيذ عملية التسجيل تلك ، واطلاع السلطات نتيجة لها على كل ممتلكاتهم . لذلك اتجه العديد من الفلاحين إلى الأفندية «والوجهاء «لحمايتهم» ، وذلك بطلب موافقتهم على تسجيل أراضي الفلاحين تحت اسمائهم ، لكي يتجنبوا دفع الضرائب ، مقابل دفع نسبة مئوية معينة من ناتج تلك الأراضي ، لقاء تلك « الحماية » . وقد انتقلت بهذه العملية ، رسمياً على الأقل ، ملكية مساحات من الأراضي ، لا بأس بها ، إلى أولئك الأفندية ، الذين كثيراً ما اساءوا الائتمان وتصرفوا بها ، ببيعها أو بنقل ملكيتها إلى ورثتهم . فقبيلة عرب الزبيد ، مثلاً ، قامت بتسليم ثلث مساحة أراضيها ، الواقعة بالقرب من بحيرة الحولة ، في شمال فلسطين ، إلى قنصل فرنسا اليهودي في عكا ، يعقوب عبو ، لقاء بسط حمايته على أبناء القبيلة ، بينما قام القنصل . على أثر ذلك ، ببيع هذه الأراضي إلى مستوطني يسود هامعلة (٥٠) .

إضافة إلى ما ذكرنا ، كانت هناك طريقة ثالثة لانتقال ملكية الأراضي إلى الأفندية ، وذلك بواسطة الربا الفاحش . فعموم الفلاحين ، الذين لم تكن أوضاعهم الاقتصادية على ما يرام ، كثيراً ما كانوا يلجأون إلى الأفندية الأثرياء للحصول على قروض مالية ، كانت تمنح لهم ، عادة ، لقاء التعهد بدفع نسبة عالية من الفائدة ، بعد رهن أراضيهم كتأمين لتسديد تلك القروض . وفي مثل هذه الحالات ، كثيراً ما كانت الفائدة تتراكم ، خلال مدة قصيرة ، لتصبح أضعاف مبلغ القرض الأصلي . ويعجز الفلاح عن تسديدها ، فتكون النتيجة استيلاء الأفندي على أراضيه المرهونة (٥١) .

وعلى ضوء ذلك نستطيع ان نعرف السبب الأساسي لانتقال الأراضي التي حصل عليها اليهود ، من العائلات غير الفلسطينية التي كانت تعيش خارج فلسطين .

وكان يضاف إلى تلك الأسباب ، المصادرات والهبات التي كانت تمنحها حكومة الانتداب البريطاني لليهود ، بصفتها تملك صلاحيات السلطان العثماني التي أبقتها لتنفيذها لمصلحة المشروع الصهيوني . وكانت أكبر نسبة من الأراضي التي انتقلت ملكيتها لليهود من الهبات الحكومية التي منحتها الحكومة البريطانية بصفتها الدولة المنتدبة من عصبة الأمم لإقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين .

وفي سنة ١٨٧٩م تم استملاك نحو ١٠٠٠٠ دونم من تاجر يدعى تيان (لبناني) . إلا أن معظم المستوطنين أضطروا إلى تركها بعد نحو ٣ سنوات من تأسيسها في ١٨٨١م بسبب الأمراض التي تفشت بهم والخسائر التي لحقت بهم نتيجة لعدم خبرتهم في الزراعة ، فسلمت الأراضي إلى مزارعين عرب لفلاحتها [٥٢] .

ونتيجة لاحتجاجات عرب فلسطين على بيع العائلات المذكورة الأراضي لليهود استجابت الاستانة للاحتجاج إلا ان التدخل البريطاني أبطل مفعول فرمان السلطنة العثمانية ولكن عرب فلسطين واصلوا الاتصال بالاستانة ، وصدر قرار في السنة التالية ١٨٩٢م يمنع اليهود من شراء الأراضي ويمنع أيضاً الرعايا من بيع الأراضي لليهود ، ولكن بريطانيا وبعض الدول الكبرى تدخلت ، فاستطاعت ان تقلل من فاعلية المنع بالرغم من تثبث الحكومة العثمانية برأيها حتى خلع السلطان عبد الحميد (أبريل ١٩٠٩)[٥٣] .

وفي سنة ١٩٠١م ، تم شراء ما مساحته ٣١٥٠٠ دونم من الأراضي الواقعة بالقرب من طبريا ، من عائلة سرسق البيروتية ، المالكة لتلك الأراضي . وقد كان لهذه الصفقة تأثير بعيد المدى على النشاط الاستيطاني الصهيوني في فلسطين ، إذ أقيم على تلك الأراضي عدد من المستوطنات اليهودية ، جاءت بمثابة نواة لتجمع ثان من المستوطنات الصهيونية التي أقيمت في شمال البلاد ، وذلك بالاضافة إلى التجمع الرئيسي الذي كان قائماً في متصرفية القدس . كذلك كانت صفقة البيع هذه بمثابة مقدمة لصفقات أخرى مماثلة ، باع بموجبها أبناء عائلة سرسق للصهيونيين ، مساحات شاسعة من الأراضي ، في أماكن مختلفة من فلسطين[٥٤] .

وكان الصهيونيون قد استطاعوا خلال السنوات (١٨٨٩–١٩٠٢م) من شراء نحو نصف أراضي قضاء طبريا ، التي كانت ملكاً لعائلة عربية اقطاعية تسكن في دمشق[٥٥] .

وفي القدس استطاعت شركة تطوير أراضي فلسطين ، شراء ١٩٢ دونماً من الأرض ، حتى سنة ١٩١٨م ، وذلك على جبل سكوبس ، حيث أقيمت الجامعة العبرية فيما بعد ، وفي المنطقة التي أنشأ عليها شارع بن يهودا والشوارع المحيطة به في القدس

الجديدة . وكانت هذه الأراضي ملكاً للورد انجليزي ، والبطريك اليوناني في القدس .

واشترت الشركة في حيفا أيضاً ، حتى سنة ١٩١٣م ، ما مساحته ٢٤٩ دونماً من الأرض على جبل الكرمل . وأقيم على جزء من تلك الأراضي آنذاك . معهد الهندسة التطبيقية ، التخنيون وفي سنة ١٩١٨م ، اشترت الشركة ٢٥٣٦ دونماً ، في أماكن مختلفة في المدينة ، معظمها ملك لألمان ، كانوا يسكنون هناك حتى ذلك الوقت[٥٦] .

وهكذا نرى ان الصهاينة بتسهيلات من بريطانيا قد اشترّوا بعض الأراضي من عائلات غير فلسطينية (عربية وأجنبية) كانت تسكن خارج فلسطين وان نسبة تلك الاراضي كانت قليلة جداً ولا تكاد تذكر بالنسبة لمساحة فلسطين وهذا ما ادى إلى فشل المشروع الصهيوني خلال حكم السلطان عبد الحميد .

مراجع
السلطان عبد الحميد يتصدى للصهيونية

١- د. خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني وصداه (١٩٠٨-١٩١٨م) ص ٢٤ م.ت.ف مركز الابحاث - بيروت ١٩٧٣م .

٢- حسان علي حلاق : موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية (١٨٩٧-١٩٠٩م) ، ص ٧٤ ، الدار الجامعية ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٠م .

٣- د. خيرية قاسمية : المصدر السابق ، ص ٢٣ .

٤- حسان علي حلاق : المصدر السابق ، ص ٩٦-٩٧ .

٥- د. أسعد رزوق : إسرائيل الكبرى ، ص ٣٤ ، م.ت.ف مركز الابحاث ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٣م .

٦- حسان علي حلاق : المصدر السابق ، ص ٩٧ .

٧- حسان علي حلاق : المصدر السابق ، ص ٩٧ - ٩٨ .

٨- حسان علي حلاق : المصدر السابق ، ص ١٠١.

٩- حسان علي حلاق : المصدر السابق ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

١٠- حسان علي حلاق : المصدر السابق ، ص ١٠٢.

١١- حسان علي حلاق : المصدر السابق ، ص ١٤٩.

١٢- حسان علي حلاق : المصدر السابق، ص ١٥١، ١٥٢، ١٥٣.

١٣- حسان علي حلاق : المصدر السابق ، ص ١٥٦.

١٤- حسان علي حلاق : المصدر السابق ، ص ١٦٩.

١٥- د. حسن صبري الخولي	:	**سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأوّل من القرن العشرين . (المجلد الأوّل) ص ٧ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ من مقدمة الدكتور عبد العزيز الشناوي ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٧٣م .**
١٦- صبـــري جريـــس		تاريخ الصهيونيـــة (الجـــزء الأول) (١٨٦٢-١٩١٧م) ، ص ١٠٩ ، م.ت.ف مركز الابحاث ، بيروت ١٩٨١م .
١٧- صبـــري جريـــس	:	المصدر السابق ، ص ١١٠ .
١٨- صبـــري جريـــس	:	المصدر السابق ، ص ١٠٨-١٠٩ .
١٩- صبـــري جريـــس	:	المصدر السابق ، ص ١٢٠ .
٢٠- د. إسماعيل أحمد ياغي	:	موقف عرب فلسطين من الهجرة اليهودية والصهيونية (١٨٨٢-١٩١٤) ، ص ٥ ، بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطيـــن) .
٢١- د. إسماعيل أحمد ياغي	:	المصدر السابق ، ص ٦ .
٢٢- د. إسماعيل أحمد ياغي	:	المصدر السابق ، ص ١٠ .
٢٣- د. خيريـــة قاسميـــة	:	المصدر السابق ، ص ٢٤ .
٢٤- د. حسن صبري الخولي	:	المصدر السابق ، ص ٨٣ .
٢٥- ج. هـ. جانســـن	:	الصهيونية وإسرائيل وآسيا ، ص ١٢٦ ، ترجمة راشد حميد ، م.ت.ف. مركز الابحاث ، بيروت ، ١٩٧٣ .
٢٦- د. إسماعيل أحمد ياغي	:	المصدر السابق ، ص ٧ .
٢٧- د. إسماعيل أحمد ياغي	:	المصدر السابق ، ص ١٦ .
٢٨- د. عبد الوهاب المسيري	:	اليهودية والصهيونية وإسرائيل ، ص ١٤٢ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٥م .

٢٩- د. حسن صبري الخولي : المصدر السابق ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

٣٠- جـــورج ماكـــاي : دولة إسرائيل والصهيونية ، ص ٥١-٥٢ ، ترجمة عن المجرية اسد محمد قاسم .

٣١- صبـــري جريـــس : المصدر السابق ، ص ١٦٥ .

٣٢- حســـان علي حـــلاق : المصدر السابق ، ص ١٢٢ .

٣٣- د. حسن صبري الخولي : المصدر السابق ، ص ٨٩ .

٣٤- د . خيريـــة قاسميـــة : المصدر السابق ، ص ٤٢ .

٣٥- د . خيريـــة قاسميـــة : المصدر السابق ، ص ٢٦ .

٣٦- حســـان علي حـــلاق : المصدر السابق ، ص ٢٠٥ .

٣٧- حســـان علي حـــلاق : المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

٣٨- حســـان علي حـــلاق : المصدر السابق ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ .

٣٩- السلطان عبد الحميد الثاني : (مذكراتي السياسية) ص ٣٥-٣٧ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، تعليق المترجم .

٤٠- السلطان عبد الحميد الثاني : المصدر السابق ، ص ٣٤ .

٤١- السلطان عبد الحميد الثاني : المصدر السابق ، ص ٢٩ .

٤٢- د . أسعـــد رزوق : المصدر السابق ، ص ١٩١ .

٤٣- ريتشارد . ب. ستيفنز : الصهيونية كمرحلة من مراحل الأمبريالية الغربية تهويد فلسطين ، ص ٤٧ ، إعداد وتحرير د. إبراهيم أبو لغد ، ترجمة أسعد رزوق ، م.ت.ف. مركز الابحاث ، بيروت ١٩٧٢م .

٤٤- د . أسعـــد رزوق : المصدر السابق ، ص ١٩٠ .

٤٥- د. إسماعيل أحمد ياغي : موقف عرب فلسطين من الهجرة اليهودية (١٨٨٢-١٩١٤م) ، ص ٢ ، بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين) .

٤٦- ريتشارد ب. ستيفنز : تهويد فلسطين ص ٤٥ ، إعداد وتحرير د. إبراهيم أبو لغد ، ترجمة الدكتور اسعد رزوق - مركز الابحاث ، بيروت ١٩٧٢م .

٤٧- د. إسماعيل أحمد ياغي : نفس المصدر السابق ص ٣ .

٤٨- حسان علي حلاق : موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ، ص ٨٤ ، الدار الجامعية ، ط ٢ ، بيروت ١٩٨٠م .

٤٩- د. خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ، ص ١٩ ، مركز الأبحاث ، بيروت ١٩٧٣م .

٥٠- صبري جريس : تاريخ الصهيونية ج ١ (١٨٦٢-١٩١٧م) ص ١١٢، ١١٣، ١١٤ ، م.ت.ف مركز الابحاث ، بيروت ١٩٨١م .

٥١- صبري جريس : المصدر السابق ص ١١٤ .

٥٢- صبري جريس : المصدر السابق ص ٦٩ .

٥٣- د. إسماعيل أحمد ياغي : المصدر السابق ، ص ٥ .

٥٤- صبري جريس : المصدر السابق ، ص ١١٠ .

٥٥- صبري جريس : المصدر السابق ، ص ٢٤٥ .

٥٦- صبري جريس : المصدر السابق ، ص ٢٤٨-٢٤٩ .

« لقد عاش لبنان وعاشت طائفتنا المارونية بألف خير وطمأنينة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، ولا نعرف ماذا تخبىء لنا الايام من بعده » .

البطريك الماروني الياس حويك

الخاتمـــة

إنني أعلم أن مادة هذا الكتاب ستثير جدلاً عند كثير ممن حكموا على الدولة العثمانية من خلال صورتها القاتمة التي كان يراها العالم بصورة عامة والعرب بصورة خاصة وهي في نهاية أيامها ، يوم كانت تقوم باسم القومية التركية ، بمحاربة القوميات الأخرى وخاصة القومية العربية . وإنه لمن الانصاف أن نقرر بأن السلطان عبد الحميد قد حاول جهده لاصلاح اوضاع الدولة ، وتصدى للقوى الاستعمارية ، كما تصدى لعملائها الصهاينة . وبالرغـم من محاولاته المتكررة إلا أنه لم يوفق في ذلك لأسباب خارجية تتعلق باتفاق الدول الاستعمارية على تحطيم الدولة العثمانية . ولأسباب داخليـة تتعلق بالفساد الذي استشرى في جميع نواحي الدولة ، مما جعل جميع محاولاته تلك تبوء بالفشل ولا يسعني في الختام إلا أن أعتبر هذا البحث بداية لدراسات مفصلـة عن هذا الموضوع لتكون أساسا لتصحيح تاريخ هذه الأمة الذي شوه من قبل اعدائها الذين ما زالــوا يتربصون بها لخنق نهضتها وتحررها .

ولينصـرن الله مــن ينصـــره .. ان الله لقوي عزيز .،،،
« صـــدق الله العظيـــم »

الفهـــرس

الموضـــــوع	الصفحة

الفصـل الثالـث

تآمر الدول الاستعمارية على الدولة العثمانية

الفصـل الرابـع

تفجير الدولة العثمانية بالحركات القومية

الفصـل الخامـس

السلطان عبد الحميد يتصدى للصهيونية



هــذا الكتــاب

يعتبر من الكتب القليلة التي أنصفت السلطان عبد الحميد الثاني في موقفه من القضية الفلسطينية .

وقد تناول المؤلف الأستاذ رفيق شاكر النتشه موضوعه من زوايا مختلفة ، فعرض ما آلت اليه الأوضاع الداخلية في الدولة العثمانية من فساد في نهاية القرن التاسع عشر، وبيَّن ما بذل السلطان عبد الحميد الثاني من جهد لاصلاحها ، وكيف تصدى لمؤامرات الدول الاستعمارية التي كانت تسعى لاقتسام أملاكها ومنها فلسطين التي رفض التنازل عن أي شبر منها للصهيونية .

إن هذا الكتاب يعتبر من الكتب العلمية التاريخية الهامة التي ستضاف الى المكتبة العربية والتي بذل فيها المؤلف جهداً واضحاً اتسم بالموضوعية والمنهج العلمي.

الناشــر

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت ، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون ، ص.ب : ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي : موكيالي ، هـ ٨٠٧٩٠٠/١
تلكس : LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

الغلاف : زهير أبو شايب